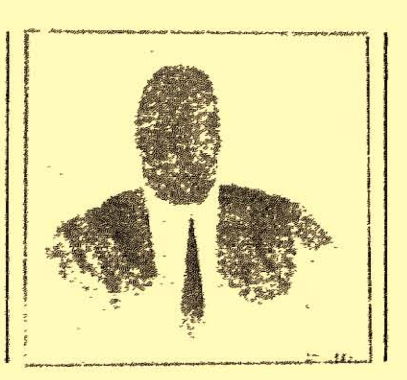
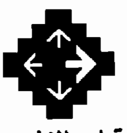
عيون الأدب الأجنبي



ترجمة : خليل صابات

چان پول سارتر ; الكلمات

« لم أكن أعرف القراءة بعد ، ولكني كنت محبًا للظهور إلى الحد الذي جعلني أطالب بكتبٍ لي . وذهب جدّي إلى ناشره الوغد ، وأخذ منه « قصص » الشاعر موريس بوشور المقتبسة من الأدب الشعبي ، والموضوعة في أسلوب يتناسب وذوق الطفل ، بقلم رجل احتفظ بعيون الطفولة كما يقول . وأردت أن أبدأ في الحال احتفالات التملك . وأخذت المجلدين الصغيرين ، وشممتهما وجسستهما ، وفتحتهما بلا اكتراث « في الصفحة المطلوبة » وجعلتهما يقرقعان . ولكن عبثاً : فلم أكن أشعر بأنّي أملكهما. وحاولت دون تحقيق نجاح أكبر أن أعاملهما كأنّهما دميتان ، فأهدهدهما ، وأقبّلهما ، وأضربهما . وانتهى بي الأمر ، وأنا أكاد أبكي ، إلى وضعهما على ركبتي أمّي . »



دار شرقيات للنشر والتوزيع

الكلمات

هذه ترجمة
Les Mots
تأليف
Jean-Paul Sartre
الناشر
Gallimard, Paris
طبعة جديدة منقحة

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوى
باب اللوق ـ القاهرة . ت ٣٩٣٠٣٣٥

الغلاف والاشراف الفنى على الكتاب :
محيى الدين اللباد

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة



چان پول سارتر

الكلمات

ترجمة: خليل صابات

دار شرقيات للنشر والتوزيع

مقدمة المترجم

لا يمكن أن نفهم «الكلمات» الفهم الصحيح دون أن نستعرض في شيء من التمهل حياة مؤلفها وأعماله. إن «چان پول سارتر» يعتبر رأس الفلسفة الوجودية والراعي لها في المجالس التي كان يعقدها في المقاهي الأدبية وأقبية حي «سان جرمان دي بريه» بپاريس، ويراه بعض الناس شخصية سياسية تدعو إلى كتابة المنشورات وتكتب في مجلة يسارية وتشترك في الاجتماعات السياسية ونحوها، ويحكم عليه آخرون بأنه فيلسوف يتأمل في سكون غرفة فندق. تلك هي الوجوه الثلاثة لچان پول سارتر الروائي والمؤلف المسرحي وكاتب المقالات الأدبية الذي اعتذر عن قبول جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٦٤ وأثار اعتذاره مختلف التعليقات، لا في الأوساط الأدبية الفرنسية فحسب، بل في العالم أجمع.

ولد سارتر في پاريس خلال شهر يونيو من عام ١٩٠٥، وكان أبوه ضابطاً في البحرية الفرنسية، أما أمه «آن ماري شفايتزر»، فقد كان عمها الدكتور ألبير شفايتزر الطبيب الشهير الذي نال هو الآخر جائزة نوبل. وفقد «چان پول» أباه وهو في الثانية من عمره فعاش مع أمه عند جده شفايتزر.

ويقول الحفيد عن هذا الجد في الكتاب الذي نقدم له بأنه دفعه إلى اعتبار الشيء المكتوب أكثر واقعية وأهم من الشيء الذي نعيشه ونحياه. ومنذ السادسة من عمره بدأ «چان پول» يكتب الروايات: «لحاجتي إلى أن أبرر وجودي جعلت من الأدب مطلقاً. وكان لابد لي من ثلاثين سنة كي أتخلص من هذه الحالة الذهنية».

وبعد أن درس «سارتر» في «ليسيه لاروشيل» ثم في «ليسيه هنري الرابع» التحق بمدرسة المعلمين العليا، وهو في التاسعة عشرة من عمره. وبعد ثلاث سنوات من الدراسة نجح في «أجريجاسيون» الفلسفة، وكان الأول على أقرانه. وفي هذه الأثناء بدأ يهتم مع مجموعة صغيرة من زملاء الدراسة بفلسفة الوجود التي كان يدعو إليها الفيلسوف الألماني «مارتن هيدجر» خليفة الفيلسوف الدنمركي «كيركجورد». وعين «سارتر» مدرساً في الهافر التي اتخذها اطاراً لروايته «الغثيان» ثم انتقل إلى لاون. وقضى سنة في «المعهد الفرنسي ببرلين» حيث التقى بالفيلسوف «إدموند هوسرل» مؤسس فلسفة الظواهر. وقد تأثر سارتر بهذه الفلسفة في كتابه «الوجود والعدم» الذي ظهر في سنة ١٩٤٣. غير أن الجمهور لم يكتشف الناحية المثيرة من مذهبه بعد الحرب، أي «الوجودية» إلا في مؤلفاته الروائية.

فبعد «الغثيان» قدم سارتر «الحائط» ثم ثلاثية «طرق الحرية» (١٩٤٣- ١٩٤٩). وحاول أن يؤسس أثناء احتلال الألمان لفرنسا جماعة «الاشتراكية والحرية»، ولكنه لما كان «ماركسياً إنسانياً» فسرعان ما وقف يعارض الحزب الشيوعي ويتهمه بأنه يمارس

«ماركسية جامدة». وحمي وطيس الجدال واحتل مكاناً رحباً في مجلة «الأزمنة الحديثة» التي أنشأها أديبنا الفيلسوف في سنة ١٩٤٦ مع لفيف من أصدقائه نذكر منهم الفيلسوف «موريس مرلو بونتي» و «ألبير كامو» الذي لم يلبث أن اختلف معه وانفصل عنه.

واعتبر سارتر المسرح منبراً مستديماً لعرض آرائه. فبعد «الذباب» و «الجلسة السرية» التي أخرجها ألبير كامو للمسرح، قدم «المومس الفاضلة» و «الأيدي القذرة»، وكانت التمثيلية الأخيرة تنديداً بالوسائل الستالينية وقد أثارت بطبيعة الحال جدلاً عنيفاً. وألف بعد ذلك «الشيطان والله» و «كين»، وقد اقتبس التمثيلية الأخيرة اقتباساً حراً عن «اسكندر دوماس الأب»، وآخر مسرحياته «سجناء ألتونه».

وخاض سارتر معكرة رهيبة من أجل الوضوح والحرية وهما، في نظامه، الصفتان اللتان لابد منهما لحياة الإنسان. وفي رأيه أن الإنسانية تتكون من فئتين: «الصالحون» الذين اختاروا وهم يعلمون ماذا يفعلون، و «القذرون» الذين لا يريدون أن يختاروا أو الذين يختارون وهم يكذبون على أنفسهم.

ولكن إذا أردنا أن نكون أحراراً فلابد لنا أيضاً من أن نريد أن يكون الآخرون أحراراً.

لقد أدى هذا الرأي الجديدإلى مجادلات لا حد لها. وحاول سارتر أن يؤسس حزباً سياسياً أطلق عليه اسم «المنظمة الديمقراطية الثورية» كما حمل حملة شعواء على الاستعمار وأيد ثورة «فيدل كاسترو» واستقلال الجزائر.

ونشر سارتر «المواقف»، وهي عبارة عن عدد من المقالات والموضوعات والمقدمات التي كتبها بين ١٩٥٤ و ١٩٦٣، وكلها تعالج الاستعمار والاستعمار الجديد وتبرهن على أن مؤلف «الكلمات» لم يعدل عن الكفاح السياسي.

إن «كلمات» سارتر، شأنها في ذلك شأن «اعترافات» چان چاك كرسو أو القديس أوغسطين، تتجاوز وجهتها موضوعها لتصبح مرآة تفكير عصر وسجل مواجهة الإنسان الأبدية لظروف وجوده. إن «الكلمات» قصة تبحث عن أصل «الأنا» وحلم الماضي ومذكرات شخصية قاسية تقف على القطب الآخر للفلسفة الصورية. إن الفلسفة والأدب كلاهما نوع من الكذب أو بالأحرى اقتراب من الواقع، على حد تعبيره في «الكلمات» الذي كتبه وهو في التاسعة والخمسين من عمره. وقد عاش حتى بلغ الخامسة والسبعين.

وبمناسبة صدور الطبعة الثانية من هذا الكتاب يهمني أن أذكر بالشكر والعرفان أستاذي الدكتور محمد مندور، الذي راجع الطبعة الأولى فأضفى عليها الكثير من فنه الذي تعلمته منه، وأثر في أسلوب كتابتي وطريقة تفكيري.

د. خليل صابات

القسم الأول
القراءة

في مقاطعة الألزاس، حوالي سنة ١٨٥٠، قَبل مُعلم مزهق بالأطفال أن يعمل بدالاً. وليعوِّض هذا المرتد ما فعله بتخليه عن تكوين العقول، قرر أن يتولى أحد أبنائه تكوين النفوس فيكون في الأسرة راع[1] هو شارل. ولكن شارل تهرّب، وفضّل أن يقطع الطرق إثر سائسة تعمل في سيرك، فأديرت صورته إلى الحائط ومنع النطق باسمه. على من يقع الدور إذاً؟ لقد أسرع أوغست إلى تقليد أبيه في تضحيته فدخل التجارة وارتاح لها. لم يبق إلا لويس الذي لم يكن لديه أي استعداد محدد: لقد استولى الأب على هذا الصبي الهادئ وجعله راعياً في غمضة عين. وبلغت الطاعة بلويس بعد ذلك حداً جعله ينجب بدوره راعياً، هو «ألبير شفايتزر»[2] الذي عرفنا مهنته. غير أن شارل لم يعثر على سائسته: لقد أثرت بادرة أبيه الجميلة فيه، فاحتفظ طول حياته بطعم الرفعة وبذل جهده في صنع ظروف عظيمة بأحداث صغيرة. ولم يكن يفكّر، كما نرى، في التملص من الميل العائلي؛ فقد كان يتمنى أن يهب نفسه لشكل مخفف من الروحانية، لكهنوت يسمح له بالسائسات.

ووجد غايته في التعليم فاختار شارل أن يعلّم الألمانية. وتقدم برسالة عن هانس ساخس[3]، واختار المنهج المباشر الذي ادعى بعد ذلك أنه مبتكره، ونشر بالاشتراك مع م.سيمونو كتاب «المطالعة الألمانية»، وقد نال التقدير وحقق تقدماً سريعاً، وانتقل من مدينة ماكون إلى ليون ومنها إلى باريس. وفي هذه المدينة الأخيرة ألقى في حفل توزيع الجوائز خطاباً استحق شرف نشره في طبعة خاصة. وقد قال فيه: «سيدي الوزير، سيداتي، سادتي، أولادي الأعزاء. لن تحذروا قط ما سأتحدث إليكم عنه اليوم! سأتحدث عن الموسيقى!». وكان يبدع في الأشعار التي يلقيها في المناسبات. وتعوّد أن يقول في اجتماعات الأسرة: «لويس هو الأتقى وأوغست الأغنى وأنا الأذكى». وكان الأخوان يضحكان والزوجتان تزمان شفتيهما. وفي ماكون كان «شارل شفايتزر» قد تزوج «بلويز جيمان» ابنة وكيل كاثوليكي. وكرهت العروس شهر عسلها؛ فقد اختطفها عريسها قبل نهاية الطعام وألقى بها في قطار. وفي سن السبعين كانت لويز لا تزال تتحدث عن سَلَطة الكراث التي قدمت لهما في مقصف إحدى المحطات قائلة: «كان يأخذ الأبيض كله ويترك لي الأخضر». لقد أمضيا خمسة عشر يوماً في الألزاس دون أن يتركا المائدة، وكان الأخوان يتبادلان باللهجة الريفية قصصاً غير مهذبة، وكان الراعي يلتفت إلى «لويز» بين آن وآخر ويترجمها لها على سبيل المحبة المسيحية. ولم تلبث أن حصلت على شهادات مجاملة أعفتها من الاتصال بزوجها وأعطتها الحق في أن يكون لكل منهما غرفته الخاصة كانت تتكلم عن صداعها، ودأبت على ملازمة الفراش، وبدأت تكره الضوضاء، والهوى

(١) قسيس بروتستانتي (المترجم). (٢) هو الطبيب الفرنسي الذي أسس في الجابون مستشفى لعلاج الجذام ونال جائزة نوبل للسلام (المترجم). (٣) شاعر ألماني ولد في نورمبرج سنة ١٤٩٤ وتوفي سنة ١٥٧٦. ألف عدداً من التمثيليات ذات الموضوعات الدينية أو القديمة (المترجم).

والحماس وكل حياة أسرة شفايتزر الغليظة المفتعلة. إن هذه المرأة الحية والخبيثة بل الباردة كانت تفكر تفكيراً مستقيماً وسيئاً، لأن زوجها كان يفكر جيداً وبغير انتظام، ولأنه كان كذاباً وسريع التصديق، كان تشك في كل شيء وتقول «إنهم يدعون أن الأرض تدور، ما أدراهم بذلك؟» ولما كانت محاطة بكوميديين فضلاء فقد كرهت الكوميديا والفضيلة. إن هذه المرأة الواقعية بالغة الرقة، التائهة وسط أسرة من الروحانيين الغلاظ اعتنقت الڤولتيرية تحدياً دون أن تقرأ ڤولتير. كانت ظريفة وسمينة وسفيهة ومازحة فأصبحت السلبية البحتة: فبرفع حاجبيها وبابتسامة غير محسوسة كانت تسحق كل المواقف الكبيرة، بنفسها وبدون أن يلحظه أحد. لقد أفنتها كبرياؤها السلبية وأنانية إبائها. لم تكن ترى أحداً. فقد كان تكبرها الزائد يمنعها من السعي للحصول على المكان الأول، وكان زهوها لا يدعها ترضى بالمكان الثاني وكانت تقول «تعلمي كيف تضعين نفسك موضع اشتهاء» لقد اشتهوها كثيراً، ثم أخذ هذا الاشتهاء يقل شيئاً فشيئاً وانتهى الأمر بنسيانها لقلة ما رؤيت. ولم تعد تغادر كرسيها أو فراشها إلا قليلاً. ولما كانت أسرة الشفايتزر من أتباع المذهبين الطبيعي والبوريتاني[1]- وتآلف هذين المذهبين في الفضائل أقل ندرة مما نعتقد- فقد كان أفراد هذه الأسرة يحبون الألفاظ الفجة التي بتحقيرها الجسد من الوجهة المسيحية البحتة، تعبر عن قبولها للوظائف الطبيعية، وكانت لويز تفضل التلميح على التصريح. وكانت تقرأ الكثير من الروايات الخليعة إذ كانت تقدر فيها شفافيتها المقنّعة أكثر من تقديرها لحبكة أحداثها. وكانت تقول بلطف: «إنها جريئة ومكتوبة جيداً: مروا أيها الناس ولا تلحوا!». واعتقدت هذه المرأة ناصعة البياض أنها ستموت من الضحك وهي تقرأ «فتاة من نار[2]» لأدولف بيلو، وكانت تحب أن تحكي قصص ليالي الأعراس التي تنتهي دائماً نهاية سيئة: فتارة نرى الزوج في عجلته البهيمية، يقصف رقبة زوجته على خشبة السرير، وتارة يُعثر على العروس الصغيرة في الصباح وقد لجأت إلى أعلى خزانة الملابس، عارية ومجنونة. وكانت لويز تعيش في ضوء خافت، وكان «شارل» يدخل عندها ويدفع مصاريع النوافذ ويضيئ كل المصابيح، وكانت تزفر وهي تضع يديها على عينيها قائلة: «إنك تُعشيني يا شارل» ولكن مقاومتها لم تكن تتعدى حدود المعارضة الدستورية: فقد كان «شارل» يوحي إليها بالخوف وبإزعاج مدهش وأحياناً بالصداقة شريطة ألا يلمسها: وكانت تسلّم له بكل شيء ما أن يأخذ في الصياح: وأنجبت له أربعة أطفال مفاجأة: بنت ماتت صغيرة وصبيان وبنت أخرى، وبلا مبالاة أو باحترام سمح الزوج بأن يُربى الأولاد على المذهب الكاثوليكي. ولما كانت «لويز» غير مؤمنة، فقد جعلتهم يدينون بالكاثوليكية لتقززها من العقيدة البروتستانتية. وأخذ الصبيّان جانب أمهما، فأبعدتهما رويداً عن هذا الأب الضخم، ولم يلحظ «شارل» ذلك، ودخل جورج، الابن الأكبر، مدرسة

(١) مذهب يتمسك أصحابه بحرفية ما جاء في الكتاب المقدس ويتميزون بالصلابة (المترجم).
(٢) أخطأ سارتر في العنوان وصحته «امرأة من نار» (المترجم).

الهندسة، وأصبح الابن الثاني مدرساً للغة الألمانية، وكانت الأم تقول عنه إنه يقلقني عليه فأنا أعرف أنه ظل عزباً، ولكنه كان يقلد أباه في كل شيء على الرغم من عدم حبه له وانتهى الأمر باختلاف الأب مع الابن، وحدثت مصالحات مأثورة. كان «إميل» يخفي حياته وكان يعبد أمه. فاحتفظ حتى النهاية بعادة زيارتها سراً، دون سابق إخطار، كان يمطرها بالقبلات والملاطفات ثم يأخذ في الكلام عن أبيه، ساخراً في أول الأمر ثم بغضب شديد ويتركها وهو يصفق الباب من خلفه. كانت تحبه على ما أعتقد، ولكنه كان يخيفها. إن هذين الرجلين الغليظين الصعبين كانا يتعبانها وكانت تفضل عليهما «جورج» الذي كان يغيب باستمرار، ومات «إميل» سنة ١٩٢٧ مصاباً بالجنون من الوحدة، ووجد تحت وسادته مسدس، وفي حقائبه مائة زوج من الجوارب المثقوبة وعشرون زوجاً من الأحذية المكعوبة.

وقضت «آن ماري»، الإبنة الصغرى، طفولتها على كرسي. لقد علموها الضجر وأن تقف وتجلس معتدلة، كما علموها الخياطة. وكانت لها مواهب واعتقدوا أنه من اللباقة تركها على سجيتها. كانت فيها نضارة، ولكنهم عملوا على إخفائها عنها. إن هؤلاء البورجوازيين البسطاء والمتكبرين كانوا يجدون الجمال فوق إمكانياتهم أو دون وضعهم، وكانوا يسمحون به للمركيزات والمومسات. كانت كبرياء «لويز» عميقة للغاية: فخوفاً من أن تُرمى بالبلاهة،كانت تنكر في أولادها وفي زوجها وفيها نفسها الخلال المتناهية الوضوح. لم يكن «شارل» يعرف كيف يتعرف على الجمال عند الآخرين، فكان يخلطه بالصحة. ومنذ مرض زوجته كان يجد سلواه في صحبة السيدات المثاليات المتوردات المُشعرات وذوات الصحة الجيدة. وبعد مرور خمسين سنة، لاحظت «ماري»، وهي تتصفح سجل صور الأسرة أنها كانت جميلة.

وحوالي الوقت الذي التقى فيه «شارل شفايتزر» بلويز جيمان، تزوج أحد أطباء الريف ابنة أحد أصحاب الأملاك الأغنياء من مقاطعة البريجور وأقام معها في شارع تيفييه الكبير الكئيب، أمام الصيدلي. وغداة الزفاف تبيَّن أن والد العروس لا يملك شيئاً. ومن الغيظ ظل الدكتور سارتر أربعين سنة لا يوجه كلامه إلى زوجته، فعلى المائدة كانا يتحدثان بالإيماء وانتهى الأمر بأن أسمته «نزيلي». وكان، مع ذلك، يشاركها الفراش، وكان ينجب منها بين آن وآخر، دون أن ينبس بكلمة: فقد أعطته صبيين وابنة، وأطلق على أولاد الصمت هؤلاء «جان باتيست» و «چوزيف» و «ايلين». وتزوجت «ايلين» في سن متأخرة، من ضابط في سلاح الفرسان أصيب بعد ذلك بالجنون. وأدى «چوزيف» الخدمة العسكرية في فرقة المشاة الجزائرية وعاد في سن مبكرة إلى والديه، ولم تكن له مهنة. ولما كان واقعاً بين بُكم أبيه وصياح أمه فقد أصيب باللجلجة وقضى حياته يصارع الكلمات. وأراد «جان باتيست» أن يُعد نفسه للمدرسة البحرية ليشاهد البحر. وفي سنة ١٩٠٤، وهو ضابط في البحرية في شربورج أصيب بحميات كوشالشين[1] وتعرف على

(١) أقليم في فيتنام (المترجم).

«آن ماري شفايتزر» واستحوز على هذه الفتاة الجسيمة المهجورة وتزوجها وسرعان ما أنجب منها صبياً هو أنا. وقد حاول أن يموت.

ولكن الموت ليس سهلاً: كانت الحمى المعوية ترتفع دون عجل، لا بل وتتراجع أحياناً. وكانت «آن ماري» تتفانى بالعناية به، ولكن دون أن تصل بها الجرأة إلى حد الحب. لقد حذرته لويز من الحياة الزوجية: فبعد زفاف دام، تتابعت التضحيات إلى ما لا نهاية تقطعها تفاهات ليلية واقتداء بأمها فضّلت والدتي الواجب على اللذة. لم تكن تعرف أبي كثيراً، لا قبل الزواج ولا بعده. ربما تساءلت أحياناً لماذا اختار هذا الغريب أن يموت على ذراعيها! لقد نقلوه إلى مزرعة تقع على بعد بضعة فراسخ من تيفييه، وكان أبوه يأتي لزيارته راكباً عربة صغيرة وأنهك السهر والهموم «آن ماري»، فجف لبنها، وعُهد بي إلى إحدى المرضعات التي لم تكن تسكن بعيداً عنا. واجتهدت أنا أيضاً في الموت: من التهاب الأمعاء وربما من الغيظ. كانت أمي، في العشرين من عمرها، تتمزق بين محتضَرين مجهولَين دون خبرة أو نصائح، إن زواج العقل الذي قبلته كان يجد حقيقته في المرض والحزن. وقد استفدتُ أنا من الموقف: ففي ذلك الوقت كانت الأمهات يرضعن أطفالهن بأنفسهن ولمدة طويلة، ولولا هذا الاحتضار المزدوج لتعرضتُ لصعوبات الفطام المتأخر. ولما كنت مريضاً ومفطوماً كرها في شهري التاسع، فإن الحمى والتهافت الجسمي منعاني من الشعور بآخر حز للمقص الذي يقطع الروابط بين الأم والابن! لقد انغمست في عالم مشوّش، تسكنه أوهام بسيطة وأصنام خشنة. وعند موت أبي أفقتُ أنا و «آن ماري» من كابوس مشترك، وشفيت. ولكننا وقعنا ضحية سوء تفاهم، لقد وجدت ثانية حب ابنها الذي لم تكن قد تخلت عنه تخلياً حقيقياً، واستعدتُ وعيي وأنا على ركبتي سيدة غريبة.

ولما كانت «آن ماري» بلا مال ولا صنعة، فقد قررت العودة لتعيش في بيت والديها. غير أن الموت الوقح الذي نزل بأبي أغم أسرة شفايتزر: إنه يشبه كثيراً التطليق. ولأن أمي لم تعرف كيف تتوقعه ولا كيف تمنعه، فقد اعتُبرت مذنبة إذ قبلت في طيش زوجاً لم يعش طويلاً. وبالنسبة لأريان[1] الجسيمة التي عادت إلى (مودون) مع طفل على ذراعيها فقد تصرف الجميع معها تصرفاً ممتازاً: فجدي الذي كان قد طلب إحالته إلى المعاش استأنف العمل دون أن ينبث بكلمة عتاب، وكان استقبال جدتي لنا رزيناً. ولكن «آن ماري»، وقد جمّدها عرفان الجميل، كانت ترى العتاب من خلال المعاملة الطيبة: فالأسر تفضل بلا شك الأرامل على البنات اللواتي يلدن سفاحاً، ولكن بفارق قليل. ولكي تنال أمي الغفران بذلت نفسها دون حساب، وأشرفت على منزل والديها في (مودون) ثم في باريس وعملت مربية وممرضة ورئيسة خدم ووصيفة وخادمة دون أن تتمكن من تهدئة مضايقة أمها الصامتة. كانت «لويز» ترى أن إعداد قائمة الطعام كل صباح والحساب كل مساء من

(١) يشبه المؤلف أمه بأريان في أساطير الأغريق التي هجرها تيزيه (المترجم).

الأمور المملة، ولكنها لم تكن تحتمل أن يقوم أحد غيرها بذلك، وكانت لا تقبل أن تُعفى من التزاماتها إلا في غضب مخافة أن تُحرم من امتيازاتها. إن هذه المرأة التي تتقدم في السن والتي تتصرف بصلابة لم يكن لديها إلا وهم واحد، فقد كانت تعتقد أنها ضرورية. ولكن الوهم تبدد، وأخذت «لويز» تغار من ابنتها. يا لآن ماري المسكينة! فهي إن اتخذت موقفاً سلبياً أُتهمت بأنها عبء، وإن اتخذت موقفاً إيجابياً ظُن بها أنها تريد أن تُهيمن على المنزل. ولكي تتجنب العقبة الأولى احتاجت إلى كل شيء عنها ولتتجنب الثانية احتاجت إلى كل تواضعها. ولم يمض وقت طويل لتعود الأرملة الشابة إلى قاصر: عذراء بوصمة. ولم يُمنع عنها مصروفها الشخصي، ولكنهم كانوا ينسون أن يعطوها هذا المصروف. لقد استعملت ملابسها كلها حتى بليت دون أن يفكر جدي في تجديدها، وبالكاد كانوا يجيزون لها الخروج وحدها. وحين كانت صديقاتها القديمات، وأكثرهن كن متزوجات، يدعونها إلى العشاء كان عليهن أن يطلبن الإذن قبل الموعد بوقت طويل وأن يعدن بإعادتها قبل العاشرة. وفي وسط الطعام، كان رب البيت يترك المائدة ليصحبها بالعربة إلى منزلها. وفي هذه الأثناء كان جدي يذرع أرض حجرة نومه، وهو بقميص النوم وساعته في يده. وكان يُرعد عندما تدق العاشرة آخر دقة. وأخذت الدعوات تقل كثيراً وكرهت والدتي هذه اللذات باهظة الثمن.

وكانت وفاة چان باتيست أكبر حدث في حياتي إذ أعاد أمي إلى أغلالها ومنحني الحرية.

لا يوجد أب طيب، تلك هي القاعدة، ويجب ألا نلوم الرجال على ذلك، بل نلوم رباط الأبوة المتعفن. ليس هناك أفضل من إنجاب الأطفال، ولكن يا له من ظلم حين نُرزق بهم! ولو عاش أبي لرقد عليّ بكل طوله ولسحقني. لكنه بالصدفة مات صغير السن، وأنا في وسط الأبناء الذين يحملون آباءهم. أعبر من ضفة إلى أخرى بمفردي، كارهاً هؤلاء الآباء المحتجبين الراكبين على ظهور أولادهم مدى الحياة. لقد تركت خلفي شاباً ميتاً لم يمتد به العمر ليكون أبي، وكان من الممكن أن يصبح اليوم ابني. أكان ذلك شراً أم خيراً؟ لست أدري! ولكني أتفق مع حكم عالم نفساني كبير: فليس عندي العقدة النفسية المسماة بـ«الأنا العليا».

لا يكفي أن نموت بل لابد أن نموت في وقتنا. لقد شعرت بعد ذلك بأني مذنب، فاليتيم الواعي يلوم نفسه: إن والديه، وقد أعشتهما رؤيته انسحبا إلى جناحهما في السماء. أما أنا فكنت سعيداً: إن وضعي الحزين كان يفرض الاحترام ويشكل أهميتي، كنت أعتبر حزني من عداد فضائلي. كان أبي قد تلطف ومات بخطئه، وكانت جدتي تردد أنه تملص من واجباته، وجدي الذي يفخر بطول عمر أسرة شفايتزر، لم يكن يقبل أن يموت الإنسان في الثلاثين من عمره؛ وعلى ضوء هذه الوفاة المشكوك فيها توصل إلى الشك في وجود زوج ابنته في وقت من الأوقات ونسيه لينتهي منه. ولم يكن عليّ حتى أن أنساه:

فبانسحاب «چان باتيست» دون استئذان حرمني لذة معرفته. ولا زلت حتى اليوم في دهشة من القليل الذي أعرفه عنه. ومع ذلك فقد أحب وأراد أن يعيش فوجد نفسه يموت؛ وهذا يكفي لصنع رجل مكتمل. ولكن لم يعرف أحد من أسرتي أن يثير فضولي بالنسبة لهذا الرجل. فخلال عدة سنوات استطعت أن أرى فوق سريري صورة ضابط صغير ذي عينين بريئتين ورأس مستدير أصلع وشارب كث، وعندما تزوجت أمي مرة ثانية اختفت الصورة.

وقد ورثت بعد ذلك كتباً كانت له: كتاب من تأليف «لودانتك» عن مستقبل العلم وكتاب آخر تأليف «ويبر» عنوانه: نحو الإيجابية بالمثالية المطلقة. وكان ما يقرؤه سيئاً على غرار جميع معاصريه. وقد اكتشفت على الهوامش كتابات بخط رديء لا يمكن قراءتها، إنها علامات ميتة للمحة إلهام كانت حية وراقصة حوالي مولدي. لقد بعت الكتب: فهذا الراحل يخصني قليلاً. لقد عرفته بالسمع كما عرفت الرجل ذا القناع الحديدي[1] أو فارس أيون[2]، وما أعرفه عنه لا يتعلق بي قط: هل أحبني، هل ضمني بين ذراعيه، هل أدار نحو ابنه عينيه الفاتحتي اللون الثائرتين؟ لا يذكر أحد الآن شيئاً من ذلك. إنه عذاب حب مفقود. إن هذا الأب لم يكن لا ظلاً ولا نظرة: فقد وطأنا، أنا وهو، أرضاً واحدة، هذا كل شيء. لقد أفهموني أني ابن معجزة لا ابن رجل ميّت. ومن هنا أتت بلا أدنى شك خفتي غير المعقولة، فأنا لست زعيماً ولا أبتغي أن أصحبه. إن القيادة والطاعة شيء واحد. إن الأكثر تسلطاً هو الذي يأمر باسم آخر، باسم طفيلي مقدس هو اسم أبيه، وينقل العنف المجرد الذي يتحمله. لم أعط في حياتي أمراً دون أن أضحك ودون أن أضحك غيري؛ ذلك أن فرحة السلطة لا تعذبني، كما أنني لم أتعلم الطاعة.

ومن أطيع؟ إنهم يشيرون إلى عملاقة شابة ويقولون لي إنها أمي. ولو تُرك الأمر لي لاعتبرتها شقيقتي الكبرى. إن هذه العذراء التي حُددت إقامتها والخاضعة للكل، أرى جيداً أنها هنا لتخدمني. إني أحبها، ولكن أنَّى لي أن أحترمها في حين أن أحداً لا يحترمها؟ في منزلنا ثلاث غرف: غرفة جدي وغرفة جدتي وغرفة «الأولاد» الذين هم نحن: فكلانا قاصر وكلانا مُعال. ولكن الرعاية كلها كانت موجهة لي. ففي حجرتي وضعوا سرير فتاة. والفتاة تنام وحدها وتستيقظ بعفة. أكون نائماً حين تهرع للحمام لتغتسل في الطست وتعود مرتدية ملابسها كلها: كيف تمت ولادتي منها؟ إنها تقص علي مصائبها وأصغي إليها بشفقة. لقد وعدتها بأن أتزوجها في المستقبل لكي أحميها: سوف أبسط يدي عليها وأضع أهميتي الطفوليّة في خدمتها. هل أحد يعتقد أني سأطيعها؟ إني

(١) رجل مجهول ألقوا به في قلعة بنيرول سنة ١٦٧٩ ثم في الباستيل حيث توفى سنة ١٧٠٣، ولم تعرف شخصيته قط لأنه كان مضطراً إلى وضع قناع على وجهه (المترجم). (٢) هو الفارس «شارل دى بومون ديون» معتمد لويس الخامس عشر السياسي ظهر في بلاط القيصرة اليصابات في ملابس امرأة فعينته «قارئتها» الخاصة (المترجم).

أتكرم وأخضع لرجولتها. وهي على أي حال لا تصدر أوامر، إنها ترسم بكلمات خفيفة مستقبلاً تطلب مني أن أتفضل بتحقيقه فتقول: «إن صغيري العزيز سوف يكون لطيفاً جداً وعاقلاً جداً إنه سوف يدَعني بكل ظُرف أضع نقطاً في أنفه». وكنت أنساق إلى فخ نبوءاتها الناعمة.

بقي الشيخ الجليل الذي كان يشبه الله الآب إلى درجة كانت كثيراً ما تجعل الناس يظنون أنه هو، فقد دخل ذات يوم إحدى الكنائس من باب الهيكل، وكان القسيس يهدد ضعاف الإيمان بصواعق السماء: «إن الله هنا! وهو يراكم!» وفجأة اكتشف المؤمنون، تحت المنبر، عجوزاً فارع الطول، ملتحياً يحدق فيهم: ففروا هاربين. وكان جدي يقول في مرات أخرى إنهم ألقوا بأنفسهم تحت أقدامه فأحب التجليات. وفي شهر سبتمبر من سنة ١٩١٤ ظهر في دار للسينما بمدينة أركاشون. وكنت بصحبة أمي في الشرفة، حين طلب أن تضاء القاعة، كان رجال آخرون حوله يقلدون الملائكة ويصيحون: «النصر! النصر!» وصعد الله على المسرح وقرأ بلاغ المارن[1]. وحين كانت لحيته سوداء كان يمثل إله اليهود وأشك في أن يكون «إميل» قد مات بسببه بطريقة غير مباشرة. إن إله الغضب هذا كان يتغذى بدم أبنائه إلا أني ظهرت في نهاية حياته الطويلة، فقد ابيضت لحيته واصفرت من الدخان ولم تعد الأبوة تلهيه. ومع ذلك فلو كنتُ ابنه لما تواني، على ما أعتقد تماماً، عن استعبادي بحكم العادة. ولكن لحسن الحظ كنت ملكاً لميت: ميت سكب بضع نقاط من المني، الثمن العادي لطفل، لقد كنت قبساً من الشمس، وكان في استطاعة جدي أن يتمتع بي دون أن يمتلكني. كنت «معجزته» لأنه كان يتمنى أن ينهي أيامه شيخاً منذهلاً: قرر أن يعتبرني منّة فريدة من القدر، هبة مجانية قابلة لأن تُلغى دائماً، ما المفروض أن يطلبه مني؟ لقد كان مجرد وجودي يغمره. كان إله الحب بلحية الأب وقلب الابن المقدس، كان يضع يديه على رأسي، وكنت أشعر بحرارة راحتيه على جمجمتي، كان يسميني صغيره الصغير بصوت يرتجف حناناً، وكانت دموعه تملأ عينيه الباردتين. وكان الكل يصيحون معترضين: «إن هذا الشقي قد أصابه بالجنون!». كان يعبدني، وهذا أمر ظاهر، ولكن هل كان يحبني؟ في مثل هذه العاطفة العلانية، يصعب عليَّ التمييز بين الصدق والتصنع: لم يُبد - على ما أعتقد - كثيراً من المحبة لأحفاده الآخرين، صحيح أنه كان يراهم قليلاً وأنهم لم يكونوا في حاجة إليه، أما أنا فكنت تابعاً له في كل شيء، وكان يعبد كرمه في شخصي.

والحقيقة أنه كان يبالغ في السمو بعض الشيء: كان رجلاً من القرن التاسع عشر، وكان يعتبر نفسه، ككثيرين غيره وكڤكتور هوجو ذاته، أنه ڤيكتور هوجو. وكان هذا الرجل الوسيم ذو اللحية الطويلة يبدو وكأنه على الدوام بين مفاجأتين، كالمخمور بين كأسي نبيذ، وكنت أعتبره ضحية لتقنيتين اكتُشفتا حديثاً وهما: فن التصوير الفوتوغرافي وفن أن يكون الإنسان جَدّاً. وكان من حسن طالعه وسوئه أن يبدو وسيماً في الصور

(١) معركة من معارك الحرب العالمية الأولى (المترجم).

الفوتوغرافية، وكانت صوره تملأ المنزل: ولما لم يكن التصوير الفوري معروفاً بعد فقد شغف بالأوضاع واللوحات الحية، وكان يتخذ كل شيء حجة لتعليق حركته، ولتجميد نفسه وتحجيرها في وضع جميل. كان مولعاً بلحظات الخلود هذه حيث يصبح تمثالاً لنفسه. ولم أحتفظ منه - بسبب شغفه باللوحات الحية - إلا بصور مشدودة كصور خيال الظل.
كصورة في الغابة وأنا جالس على جذع شجرة في الخامسة من عمري: و «شارل شفايتزر» يضع على رأسه قبعة من القش المصنوع في بنما ويرتدي حلة من صوف الفانلة الطحيني الفاتح مقلمة بالخطوط السوداء وصديرية من نسيج القطن الأبيض تقطعها سلسلة ساعة، وتتدلى نظارته الأنفية بطرف خيط وقد مال عليّ رافعاً إصبعه المحلى بخاتم ذهبي وهو يتكلم. كان كل شيء معتماً وكل شيء رطباً عدا لحيته التي تضيء كالشمس: إن هالته تحيط بذقنه. ولا أعرف ما كان يقوله لي، فقد كنت مشغولاً بالإصغاء إليه أكثر مما يجب لكي أسمعه. ويبدو أن هذا الجمهوري كبير السن في العهد الامبراطوري، كان يعلمني واجباتي المدنية ويحكي لي التاريخ البورجوازي؛ فقد كان هناك ملوك وأباطرة، وكان هناك أشرار طردوا وسار كل شيء على ما يرام. وفي المساء حين كنا نذهب لانتظاره على الطريق، كنا نعرفه بسرعة، بين زحمة المسافرين الخارجين من القطار، بقامته الطويلة ومشيته التي تشبه مشية معلّم الرقص. ومن أبعد مسافة يرانا منها كان يتخذ «وضعاً» وكأنّه يطيع أوامر مصوِّر فوتوغرافي خفي: فلحيته في الهواء وجسمه مستقيم وقدماه زاوية قائمة وصدره منتفخ وذراعاه مفتوحتان كثيراً، وكنت عند هذه الإشارة أتوقف عن الحركة وأميل إلى أمام، فقد كنت العداء الذي يبدأ في الانطلاق، والعصفور الذي سيخرج من الجهاز. كنا نمكث وجهاً لوجه بضع لحظات، كمجموعة تماثيل جميلة من خزف ساكس، ثم أثب محملاً بالفواكه والأزهار وبسعادة جدي لأصطدم بركبتيه وأنا أتصنع اللهث، وكان يرفعني من الأرض عالياً إلى أقصى ما تستطيع ذراعاه وينزلني على صدره وهو يتمتم: «يا كنزي!». كانت الصورة الثانية التي يلاحظها بكثرة. وكنا نتظاهر بما لا نضمر ونقدم مائة مشهد مختلف، فهناك الغزل وسوء التفاهم الذي يزول بسرعة والمعاكسات المتناهية في الطيبة والتأنيب الرقيق، وغضب الحبيب والتكتم الحنون والهوى. كنا نتخيل عقبات في طريق حبنا كي نفرح بتذليلها، كنت متعجرفاً أحياناً، ولكن النزوات لم تكن تستطيع أن تخفي حساسيتي العذبة، كان يُظهر الزهو السامي البريء الذي يناسب الجدود. كما كان يظهر العمى والضعف الأثيم اللذين يوصي بهما «ڤيكتور هوجو»، فلو عوقبت بأكل الخبز الجاف لأحضر لي المربى، ولكن المرأتين المرهوبتين كانتا تتجنبان هذا العقاب وكنت فوق ذلك طفلاً عاقلاً أجد دوري مناسباً إلى الحد الذي جعلني لا أخرج عنه. والحقيقة أن انسحاب أبي السريع وهبني «أوديباً» غاية في النقصان: لا «أنا عُليا» موافق ولكن لا للعدوان أيضاً. فأمي كانت لي، ولم يكن أحد يعترض على ملكيتي الهادئة لها. كنتُ أجهل العنف والكراهية، وكفوني مؤونة التدريب القاسي على الغيرة، وأول معرفتي للواقع كانت عن طريق ميوعته الضاحكة، وذلك لأني لم أصطدم بمخالبه. فعلى من وعلى أي

شيء أثور: إن تقلّب الغير لم يطمح قط لأن يكون شريعتي.

كنتُ أسمح بلطف بأن يُلبسوني حذائي ويضعوا نقطاً في أنفي ويفرشوا ملابسي ويغسلوني ويلبسوني الملابس ينزعوها عني ويزينوني، فليس ثمة ما يسلي أكثر من أن نلعب دور العقلاء. وأنا لا أبكي أبداً وقلما أضحك، ولا أضج. وفي الرابعة من عمري قبضوا عليَّ وأنا أضع ملحاً على المربى: وكان ذلك على ما أعتقد حباً في العالم أكثر منه حباً في الإيذاء؛ وعلى أية حال فكانت تلك هي الجريمة الوحيدة التي أذكرها. ويوم الأحد كانت هاتان السيدتان تذهبان أحياناً إلى القدّاس للاستماع إلى موسيقى جيدة وإلى عازف أرغن معروف، وكلتاهما لا تؤديان واجباتهما الدينية على وجه كامل، ولكن إيمان الآخرين كان يؤهلهما للوجد الموسيقي! وكانتا تؤمنان بالله وهما تتذوقان اللحن. وكانت لحظات الروحانية العليا هذه تسعدني: كان النعاس يبدو على الجميع، وكانت فرصة لعرض ما أستطيع عمله فكنت أجثو على المركع، وأتحوّل إلى تمثال، مانعاً نفسي حتى من تحريك إصبع قدمي، ناظراً في خط مستقيم أمامي، دون أن أطرف بعيني حتى تسيل الدموع على خدي. وكنت بالطبع أقاتل النمل قتال الجبابرة، ولكن كنت على ثقة من الانتصار، مدركاً لقدرتي إلى الحد الذي يجعلني لا أتردد في أن أثير في نفسي أبشع الإغراءات لاستمتع بقدرتي على طردها: ولو وقفتُ صائحاً «بدابوم!» ماذا لو تسلقت العمود لأتبول في جرن الماء المقدس؟ إن هذه الأفكار الرهيبة سترفع من قدر التهاني التي ستقدمها لي أمي بعد هنيهة. ولكني أكذب على نفسي، فأتظاهر بأني في خطر لأزيد مجدي: ولم تكن المغريات تبعث الدوار لحظة واحدة؛ فأنا شديد الخوف من الفضيحة؛ وإن كنت أريد إثارة العجب. فبفضائلي، وكانت هذه الانتصارات السهلة تقنعني بأن لدي استعداداً طيّباً، وما على إلا أن أترك نفسي على سجيتها لكي ينهالّ المديح عليَّ، وأن الرغبات والأفكار السيئة إن وجدت فكانت تأتي من الخارج، وما أن تستقر فيَّ حتى تسقم وتذبل: فأنا أرض جدباء للشر. ولما كنت أمثل الفضيلة، فكنت لا أجهد نفسي ولا أقهرها قط: كنت أخترع. وكانت لي حرية الممثل الواسعة الذي يجذب جمهوره ويفرط في الاعتناء بدوره. إنهم يعبدونني، إذن فأنا استحق العبادة. ولا غرابة في ذلك، ما دام العالمُ قد أحسن صنعه؟ يقولون لي إني جميل فأصدّق. وقد ظهرت منذ بعض الوقت، على عيني اليمنى، الغشاوة التي سوف تجعلني أعور وأحْوَل: ولكن شيئاً من هذا لم يظهر بعد. فهم يلتقطون لي مائة صورة تنقحها أمي بأقلام ملونة. وفي واحدة من هذه الصور التي بقيت، أبدو وردياً وأشقر، بشعر مموّج وخد مستديرة، وفي نظرتي احترام باش للنظام القائم، وفمي ينتفخ بغطرسة خبيثة: فأنا أعرف قدري.

لا يكفي أن يكون لي استعداد طيِّب، بل يجب أن تكون لدي حاسة النبوءة، فالحقيقة تخرج من فم الأطفال. ولما كان هؤلاء لا يزالون قريبين جداً من الطبيعة باتوا أولاد عمومة الريح والبحر: إن جلجتهم تقدم لمن يفهمها تعاليم واسعة ومبهمة. لقد عَبَر

جدي بحيرة چنيف مع «هنري برجسون»[١]. ويقول لنا: «لقد جننت حماساً، ولم تكن عيني تكفياني للإعجاب بالقمم المتلألئة ولمتابعة بريق الماء. ولكن «برجسون» الذي كان يجلس على حقيبة، لم يكف عن النظر بين قدميه». وكان جدي يستخلص من ذلك الحادث الذي وقع له أثناء السفر، أن التأمل الشعرى أفضل من الفلسفة. وتأمَّل فيَّ: وكان يجلس في الحديقة، وكأنه على ظهر إحدى عابرات المحيط الأطلسي، وكوباً من الجعة في متناول يده، ويراني أعدو وأقفز، ويبحث عن حكمة في أحاديثي المبهمة ويجدها. وقد ضحكتُ بعد ذلك من هذا الجنون؛ وأنا أأسف على ذلك الآن لأنه كان من صنع الموت. كان «شارل» يكافح القلق بالإعجاب الشديد ويعجب في شخصي بعمل الأرض الرائع ليقنع نفسه بأن كل شيء حسن، حتى نهايتنا الجديرة بالشفقة. إن هذه الطبيعة التي كانت تستعد لاسترجاعه، كان يذهب للبحث عنها على القمم وفي الأمواج، ووسط النجوم وفي ينبوع حياتي الصغيرة ليتمكن من احتضانها كلها ومن تقبل كل شيء منها حتى الحفرة التي كانت تُعَدُّ له في هذه الطبيعة. لم تكن الحقيقة هي التي تكلِّمه من فمي بل موته. ولا عجب إن كان للسعادة التافهة لسنواتي الأولى طعم الموت أحياناً: إني أدين بحريتي لوفاة حدثت في الوقت المناسب، وبأهميتي لوفاة ستحدث قريباً. ولكن ماذا: إن جميع كاهنات أبولون[٢] من الموتى، الكل يعلم ذلك، وكل الأطفال مرايا للموت.

وكان جدي إلى جانب ذلك، يحب مضايقة أولاده، لقد أمضى هذا الولد المرعب حياته في سحقهم؛ كانوا يدخلون على أطراف أصابعهم فيفاجئونه جالساً على ركبتي طفل: فتنفطر قلوبهم! ففي كفاح الأجيال غالباً ما يقف الأطفال والشيوخ في جبهة واحدة: فيؤدي البعض هتاف الآلهة ويقوم الآخرون بحل طلاسمها، إن الطبيعة تتكلَّم والخبرة تترجم: وليس على البالغين إلا أن يسدوا أفواههم. وإن لم تنجب فلنقتن كلباً: وفي مدافن الكلاب، حين زرتها في العام الماضي، وفي الكلمات المؤثرة التي تتتابع من قبر إلى قبر، عرفتُ حكَم جدي؛ إن الكلاب تعرف أن تحب؛ فهي أحنُّ من الناس وأشد إخلاصاً منهم، إنها فَطِنَة ولها غريزة بلا شوائب تسمح لها بالتعرف على الخير والتمييز بين الصالحين والطالحين. لقد كَتَبت إحدى الثكالى على قبر كلبها «أي بولونيوس أنتَ خيرٌ مني: فلم يكن في إمكانك أن تعيش بعدي: أما أنا فأعيش بعدك». وكان يصحبني صديق أمريكي، ركل من الغيظ بقدمه تمثال كلب مصنوعاً من الأسمنت فكسر أذنه، وقد كان على حق: ذلك أننا حين نبالغ في حبنا للأطفال والحيوانات فإننا نحبهم بدلاً من حبنا للناس.

فأنا إذاً كلب المستقبل؛ إني أتنبأ. لديَّ كلمات أطفال، انهم يحفظونها ويكررونها

(١) فيلسوف فرنسي ولد بباريس سنة ١٨٥٩ وتوفي سنة ١٩٤١. جعل من البداهة الوسيلة الوحيدة لمعرفة الزمان والحياة. نال جائزة نوبل سنة ١٩٢٧ (المترجم).

(٢) كانت كاهنات أبولون مكلفات بالنطق بهتاف الآلهة وكن يجلسن على مقعد بأرجل ثلاثة فوق شق تنبعث منه أبخرة باردة ينتج عنها هذيان مؤقت (المترجم).

عليَّ. وأتعلم أن أصنع كلمات أخرى. لي كلمات رجال: وأعرف أن أتحدث بكلمات «أكبر من عمري» دون أن ألمسها، إن هذه الأقوال شعرية، والوصفة سهلة: يجب أن نثق في الشيطان والصدفة والفراغ، وأن نستعير جملاً كاملة من الكبار وأن نضعها الواحدة في طرف الأخرى وأن نكررها دون فهم. وبالاختصار، كنت أتفوَّه بنبوءات حقيقية، وكان يفهمها حسبما يريد. إن الخير يولد في أعمق أعماق قلبي، وتولد الحقيقة في ظلمات فهمي الشابة. إني أُعجب بنفسي عن ثقة، ويحدث أن يكون لحركاتي وكلماتي صفة لا أدركها ولكنها تكون واضحة بالنسبة للكبار، ولكن دعنا من ذلك! سوف أقدم لهم دون توقف اللذة الرقيقة التي حُرِمْتُ منها. إن مزاحي يتخذ ظواهر الكرم: كان بعض الفقراء يأسفون على أنهم لم يرزقوا أطفالاً؛ فأشفقت عليهم وخرجت من العدم في فورة إيثار وتنكرت بلباس الطفولة لأوهم بأن لهم ابنا. وكانت أمي وجدتي كثيراً ما تدعواني إلى إعادة تمثيل مشهد الطيبة السامية التي أعطتنى الحياة، إنهما تتملقان هوس «شارل شفايتزر»، وحبَّه للمفاجآت المسرحية، فكانتا تدبران له المفاجآت. وكنت أختفي خلف قطعة أثاث وأحبس نفسي، وتغادر الامرأتان الغرفة أو تتظاهران بنسياني وأتوارى، ويدخل جدي الغرفة متعباً وعابساً، كما لو كنتُ غير موجود فيها، وأخرج فجأة من مخبئي، وأنعم عليه بمولدي، فيلمحني ويندمج في التمثيلية ويغيِّر وجهه ويرفع يديه إلى السماء. كنت أسعده بوجودي وباختصار كنت أهبُ نفسي: أهب نفسي دائماً وفي كل مكان، أهب كل شيء؛ كان يكفي أن أدفع باباً كي أشعر أنا كذلك بأني أظهر في رؤيا. إني أضع مكعباتي بعضها فوق بعض، وأخرج فطائري الرملية من قوالبها وأنادي بأعلى صوتي، فيأتي أحد ويبدي عجبه! لقد زدت السعداء واحداً. إن الطعام والنوم والاحتياطات من تقلبات الجو تشكل الأعياد الأساسية والالتزامات الرئيسية لحياة كلها احتفالات. فإني أتناول طعامي علناً كملك: فإذا أكلت جيداً هنأوني، وتصيح جدتي نفسها: «كم هو من العقل أن نجوع!».

ولا أكف عن خلق نفسي: أنا الواهب والهبة، ولو كان أبي على قيد الحياة، لعرفت حقوقي وواجباتي، ولكنه مات وأنا أجهلها، فليس لي حق لأن الحب يملأني، وليس لي واجب لأني أعطي عن حب وعليَّ مهمة واحدة هي أن أُرضي الناس؛ من أجل المظهر. إن عائلتنا لمفرطة في الكرم: فجدي يعولني، وأصنع أنا سعادته، وأمي تبذل نفسها من أجل الجميع. واليوم، حين أفكر في ذلك، يبدو لي أن هذا البذل وحده هو الحقيقي. ولكن كنا نميل إلى أن نلتزم الصمت إزاءه، ولكن حياتنا ليست إلا سلسلة من الاحتفالات، وكنا نصرف وقتنا في إمطار أنفسنا بالمجاملات. وكنت أحترم الكبار شريطة أن يعبدوني. أنا صريح ومتفتح ورقيق كالبنت، أفكر جيداً وأثق في الناس: الجميع طيِّبون بما أنهم ماضون. وأرى المجتمع تدرجاً قاسياً من الفضائل والسلطات. إن الذين يحتلون قمة السلَّم يعطون كل ما يملكون للذين تحتهم. ومع ذلك فأنا لا أهتم بأن أقف على أعلى درجة: فأنا لا أجهل أنهم يحتفظون بها لأشخاص قساة ذوي نيَّة حسنة يوطدون النظام. إني أقف على مجثم

صغير هامشي، ليس ببعيد عنهم، ويمتد اشعاعي من أعلى السلّم إلى أسفله. وباختصار، أبذل جهدى كله لأبتعد عن السلطة الدنيوية، لا أسفل ولا أعلى، بل في موضع آخر. ولما كنت حفيد رجل دين، فأنا رجل دين منذ الطفولة؛ عليّ مسحة أمراء الكنيسة، وبشاشة كهنوتية، وأعامل المرؤسين كأنداد: إنها كذبة بريئة لإسعادهم، ومن المناسب أن يصدقوها إلى حد ما. فأنا أتحدث إلى خادمتي وإلى ساعي البريدوإلى كلبتي بصوت متأن ومعتدل، ففي هذا العالم المنظم يوجد فقراء. وتوجد كذلك خراف بخمس أرجل، وأخوات توائم وحوادث سكة حديد: إن هذه الظواهر الشاذة ليست خطأ أحد ولا يعرف الفقراء الطيبون أن واجبهم تدريب كرامتنا، إنهم فقراء يخجلون من التسوُّل، فهم يتمسحون بالجدران، وأثب وأدس في يدهم قطعة من فئة الصولديين وأهديهم على الأخص ابتسامة رقيقة تؤمن بالمساواة. وأرى الغباء بادياً عليهم ولا أحب أن ألمسهم ولكنني أكره نفسي على ذلك، فهى تجربة، ثم من واجبهم أن يُحبوني، وهذا الحب سوف يجمل حياتهمَ وأعرف أن الضروري ينقصهم ويسرني أن أكون فائضهم. ومن جهة أخرى، أيا كان بؤسهم، فإنهم لن يتألموا أبداً بقدر ما تألم جدي. فحين كان صغيراً، كان ينهض من فراشه قبل الفجر ويرتدي ملابسه في الظلام، وفي الشتاء كان عليه أن يكسِّر الجليد في إناء الماء ليغتسل. ولكن الظروف تحسنت لحسن الحظ منذ ذلك الحين. إن جدي يؤمن بالتقدم، وأنا كذلك: فالتقدم هو هذا الطريق الطويل الوعر الذي يؤدي إليّ.

كنتُ في الفردوس، أستيقظ كل صباح مذهولاً من الفرح معجباً بالحظ المجنون الذي جعلني أولد في أكثر العائلات اتحاداً، وفي أجمل بلد في العالم. وكان المستاءون يصدمونني، فممَ يمكنهم أن يشتكوا؟ لقد كانوا عصاة. وكانت جدتي بخاصة تسبب لي أحرّ القلق: وكنتُ ألاحظ بألم أنها لم تكن تُكن لي إعجاباً كافياً. فلويز كشفتني بالفعل، إذ كانت تلومني صراحة على هذا التمثيل الردئ الذي لم تكن تجرؤ أن تؤنب عليه زوجها. كنت أراجوزاً ومهرجاً وبهلواناً وكانت تأمرني بالكف عن تصنُّعي. وكنتُ أغتاظ إلى الحد الذي يذهب بي إلى اتهامها بأنها تسخر كذلك من جدي: كانت «الروح التي تنكر على الدوام». وكنت أجاويها، وكانت تطلب أن أعتذر، ولما كنتُ واثقاً من التأييد، فكنت أرفض الاعتذار. وكان جدي يتلقف فرصة إظهار ضعفه، وكان ينضم لي ضد زوجته التي كانت تنهض، غاضبة، وتذهب إلى غرفتها وتغلق الباب عليها. وتقلق والدتي خوفاً من حقد جدتي، فتتحدث في صوت منخفض وتقول بتواضع لوالدها إنه مخطئ، فيهز كتفيه متهكماً، أو ينسحب إلى حجرة مكتبه، وكانت تتوسل إليّ أخيراً أن أذهب وأطلب الصفح. كنت أتمتع بسلطتي، كنت القديس ميخائيل وقد قمت بسحق الروح الشريرة، وفي النهاية كنتُ أذهب للاعتذار بعدم اكتراث، وفيما عدا ذلك كنت أعبدها طبعاً لأنها كانت جدتي. واقترحوا عليّ أن أناديها بمامي وأن أنادي رب العائلة باسمه الألزاسي كارل. إن جرْسَ كارل ومامي أفضل من جرس روميو وجولييت ومن فيليمون وبوسيس[1]. وكانت أمي تعيد

---

(١) في الميثولوجية الاغريقية، زوجان أسطوريان، أصبح اسمهما رمزاً للحب بين الزوجين (المترجم).

عليّ مائة مرة في اليوم عن قصد مُتعَمد: «إن كارل ومامي ينتظراننا، كارل ومامي سيكونان مسرورين، كارل ومامي..» مُذكِّرةً باتحاد هذه المقاطع الأربعة التفاهم التام بين الشخصين. ولم أكن سوى نصف أبله، وكنتُ أرتب أمري بحيث أبدو غاية في البله: أمام نفسي أولاً. وكانت الكلمة تلقي بظلها على الشيء، فخلال كارل ومامي كنت أستطيع الاحتفاظ بوحدة العائلة دون شائبة وصبِّ جانب كبير من مزايا شارل على رأس لويز. كانت جدتي شكاكة وظنانة ولذلك كانت دائماً على حافة السقوط ولكن كان يحول دون ذلك ذراع الملائكة أو قوة كلمة.

هناك أشرار حقيقيون: البروسيون الذين أخذوا منا الألزاس واللورين وكل ساعاتنا الكبيرة الدقاقة فيما عدا ساعة المرمر الأسود التي تزيِّن مدفأة جدي والتي قدمها له بالذات جماعة من التلاميذ الألمان؛ من أين سرقوها يا ترى؟ وكانوا يشترون لي كتب هانسي[1] يُرونَني صوره فلا أبُدي أي نفور من هؤلاء الرجال السمان المصنوعين من السكر الوردي الكثيري الشبه بأخوالي الألزاسيين. وكان جدي، الذي اختار العيش في فرنسا سنة ١٨٧١، يذهب من آن لآخر إلى «جنسباخ ويفافنهوفن» ليزور هؤلاء الذين ظلوا هناك. وكان يأخذني معه. وفي القطارات، حين كان يطلب مفتش ألماني تذاكره، وفي المقاهي، حين كان خادم يتأخر في أخذ الطلب، كان وجه «شارل شفايتزر» يصطبغ بحمرة الغضب الوطني، وكانت المرأتان تتعلقان بذراعيه: «شارل! هل تفكر فيما تعمل؟ سيطردوننا ولن تنال شيئاً!». وكان جدي يرفع صوته قائلاً: «أود أن أراهم يطردونني، أنا في بلدي!». وكانت المرأتان تدفعان بي بين ساقيه، وكنت أنظر إليه كمن يتوسَّل، فيهدأ. وكان يقول متنهداً وهو يحك رأسي بأصابعه «حسناً، من أجل الصغير». وكانت هذه المشاهد تكدرني منه دون أن تثير حفيظتي ضد المحتلين. ومع ذلك، كان لا يفوت شارل في جنسباخ أن يثور على زوجة أخيه؛ فعدة مرات في الأسبوع، كان يلقي بفوطته على المائدة ويترك حجرة الطعام وهو يُصفق الباب: ومع ذلك فإنها لم تكن ألمانية. وبعد تناول الطعام كنا نذهب لننوح ونتنحب عند قدميه ولكنه كان يواجهنا بنظرة قاسية. وكيف لا أنضم إلى رأي جدتي القائل: «إن الألزاس لا تناسبه، ويجب ألا يعود إليها كثيراً»! ومن جهة أخرى، فإني لا أحب الألزاسيين كثيراً لأنهم يعاملونني بغير احترام، وأنا لست متكدراً لأنهم أخذوهم منا. ويبدو أني كنت أذهب كثيراً جداً عند بدال بلافنهوفن، السيد «بلومنفلد»، كنت أزعجه بلا داع. وأبدت خالتي كارولين ملاحظاتها لأمي في هذا الشأن. فنُقلت إليّ؛ ولأول مرة كانت لويز شريكتي في الجريمة: فقد كانت تكره عائلة زوجها. وفي ستراَسبورج، سمعت من غرفة فندق حيث كنا مجتمعين، أصواتاً ضعيفة ورفيعة، فجريت إلى النافذة؛ إنه الجيش! أنا سعيد جداً برؤية بروسيا تسير على أنغام الموسيقى الصبيانية، وأصفق. وظل جدي جالساً على كرسيه وهو يدمدم؛ وجاءت أمي تهمس في أذني بأن أترك النافذة.

---

(١) رسام كاريكاتور ألزاسي ولد في سنة ١٨٧٣ وتوفي في سنة ١٩٥١ (المترجم).

فأطعت مُظهراً بعض الاستياء. أي نعم إني أكره الألمان، ولكن على غير اقتناع. فضلاً عن ذلك، فإن شارل لا يستطيع أن يسمح لنفسه إلا بقدر قليل من الوطنية المتطرفة: ففي سنة ١٩١١ تركنا (مودون) لنستقر في باريس بشارع لوجوف رقم ١؛ ولا شك أنه تقاعد وجاء يؤسس معهد اللغات الحيَّة ليقيم أودنا. وكان هذا المعهد يعلِّم الفرنسية بالطريقة المباشرة للأجانب العابرين. وكان أغلب التلاميذ يأتون من ألمانيا ويدفعون جيداً: وكان جدي يضع الجنيهات الذهبية، دون أن يعدّها قط، في جيب سترته؛ وكانت جدتي المصابة بالأرق تنسل إلى الدهليز لتقتطع عُشرها «خفية» كما كانت تقول بنفسها لابنتها. وخلاصة القول كان العدو يصرف علينا؛ وإن قامت حرب بين فرنسا وألمانيا لإعادة الألزاس لنا فسوف يفلس المعهد: كان شارل إذاً مع الرأى القائل بالمحافظة على السلام. ثم كان هناك ألمان طيبون يأتون لتناول الغداء عندنا: ومن بينهم كاتبة قصص حمراء الوجه وشعراء كانت لويز تسميها وهي تضحك ضحكة صغيرة مشوبة بالغيرة «حبيبة شارل»، وطبيب أصلع كان يسند أمي إلى الأبواب محاولاً تقبيلها؛ وحين كانت تشكوه بخجل، كان جدي ينفجر قائلاً «تفسدين بيني وبين الجميع!» ويرفع كتفيه مقرراً «إنها تهيؤات يا ابنتي» وكانت هي التي تشعر بأنها المذنبة. وكان جميع هؤلاء المدعوين يدركون أنه يجب عليهم أن يُذهلوا أمام فضائلي فيلاطفونني بوداعة: فعلى الرغم من أصولهم فلديهم فكرة غامضة عن الخير. وفي عيد تأسيس المعهد، تتم دعوة أكثر من مائة ضيف ويُقدم شراب الشامبانيا، وتعزف أمي والآنسة موتيه موسيقى باخ بأربع أيد، وكنت أرتدي ثوباً من الموسلين الأزرق، وتُنثر النجوم في شعري وتُركَّب لي أجنحة وأتنقل من مدعو إلى آخر وأنا أقدم ثمار اليوسفي في سبَت، وكانوا يصيحون: «إنه ملاك بحق!» لا، فهم ليسوا بأشرار كما نتصور، لا شك أننا لم نعدل عن الانتقام للألزاس الشهيدة: وبين العائلة وبصوت منخفض، كما كان يفعل أولاد الأصول في جنسباخ وبفافنهوفن كنا نقتل الألمان بالسخرية منهم؛ فكنا نضحك مائة مرة، الواحدة بعد الأخرى، وبدون كلل من هذه الطالبة التي كتبت منذ قليل في ترجمة إلى الفرنسية قائلة: «كانت شارلوت «كسيحة» من الآلام على قبر فرزر»، ومن هذا المعلم الشاب الذي نظر متأملاً، خلال العشاء، إلى قطعته من الشمام في غير ثقة وانتهى بأن أكلها كلها ببذروها وقشرتها. إن هذه الأخطاء الكبيرة تجعلني أميل إلى التسامح: فالألمان قوم أقل مرتبة منا ومن حسن حظهم أنهم جيراننا؛ لنعطيهم معارفنا.

إن القُبلة بدون شارب؛ كما كانوا يقولون آنئذ، كالبيضة بدون ملح، وأضيف: كالخير بدون شر، كحياتي بين ١٩٠٥ و ١٩١٤. وإن كنا لا نعرف أنفسنا إلا بالمقابلة، فقد كنت غير المعرَّف بلحمه ودمه، وإن كان الحب والكراهية هما وجه الوسام وظهره، فأني لم أكن أحب شيئاً ولا إنساناً، وهذا حسن: فلا يمكن أن نكره ونكون موضع رضا الآخرين في وقت واحد، ولا أن نكون موضع رضى ونحب.

فهل أنا نرجسي؟ ولا ذلك أيضاً: ولما كنتُ شديد الاهتمام بإغواء الناس فقد نسيت

نفسي. ومع ذلك كله، فإن صنع الفطائر والخربشة وقضاء حاجاتي الطبيعية لم تكن تسليني كثيراً؛ فلكي ترتفع قيمتها في نظري، كان لابد على الأقل أن يبدى شخص كبير إعجابه الزائد بمنتجاتي. ولحسن الحظ فإن التصفيق لم يكن ينقصني: وسواء أصغوا إلى ثرثرتي وإلى «فن المتتابعات[1]» فإن للبالغين ابتسامة التذوق الخبيثة المتواطئة نفسها؛ وهذا ما يؤكد هويتي بالفعل والتي تعني أنني ثروة ثقافية. فقد تشبعت بالثقافة وأني أردها إلى العائلة بالاشعاع، على نحو ما تُشع حرارة النهار من الغدران عند المساء.

بدأتُ حياتي كما سوف أنهيها بلا شك: بين الكتب. ففي حجرة مكتب جدي كانت الكتب في كل مكان، كان محظوراً تنفيضها إلاّ مرة واحدة في السنة، في شهر أكتوبر -قبل عودة المدارس- كنت لا أعرف القراءة بعد، ومع ذلك كنت أجلّها هذه الحجارة المرفوعة. وسواء كانت قائمة أم مائلة، متزاحمة كقطع الطوب على أرفف المكتبة، أم منفصلة بعضها عن بعض، على غرار ممرات ألمنهير(٢)، فإني كنت أشعر بأن ازدهار عائلتي موقوف عليها. كانت متشابهة كلها، وكنت ألهو في معبد غاية في الصغر، محاطاً بآثار ضخمة وقصيرة وقديمة شاهَدت مولدي وسوف تُشاهد وفاتي ويكفل لي دوامها مستقبلاً هادئاً كالماضي. كنت ألمسها خفية لأشرف يدي بغبارها، ولكن لم أكن أعرف كيف أستعملها. وكنت أحضر كل يوم احتفالات لم أكن أفهم معناها: فإن جدي - وكان أخرقاً في العادة إلى درجة تجعل أمي تزرر له قفازيه - كان يلمس هذه الأشياء الثقافية بمهارة الكهنة. وقد رأيته ألف مرة ينهض مشتت الفكر ويدور حول مائدته، ويجتاز الحجرة في خطوتين، ويأخذ مجلداً دون تردد، وبدون أن يمنح نفسه وقتاً للاختيار ويقلب صفحاته وهو عائد إلى مقعده، بحركة متناسقة بين الإبهام والسبابة، ثم ما أن يجلس يفتحه بضربة واحدة «عند الصفحة المطلوبة» وهو يطقطقه كالحذاء. وكنت أحياناً أقترب لأراقب هذه الصناديق التي كانت تنشق كالمحار وكنت أكتشف عري أعضائها الداخلية، أوراق شديدة الشحوب ومتعفنة ومنتفخة قليلاً، مغطاة بعريقات سوداء تتشرب الحبر وتنبعث منها رائحة عش الغراب.

وفي غرفة جدتي كانت الكتب في وضع مائل؛ كانت تستعيرها من مكتب للمطالعة ولم أر منها أكثر من كتابين في وقت واحد. إن هذه الأشياء التافهة كانت تذكرني بحلوى رأس السنة لأن وريقاتها الرخصة اللامعة تبدو وقد قصّت من ورق مصقول. كانت لامعة بيضاء وشبه جديدة وكانت تستخدم ذريعة لأسرار خفيفة، وفي كل يوم جمعة، كانت جدتي ترتدي ملابسها وتخرج قائلة: «أنا ذاهبة لإرجاعها»؛ وعند عودتها، بعد أن تخلع قبعتها السوداء وخمارها، كانت تخرجهما من الفروة التي تدفئ يديها وكنت أسأل نفسي مخدوعاً : «هل هما بذاتهما؟». كانت تغلفهما بعناية، وبعد أن تختار أحدهما، تجلس

---

(١) مقطوعة موسيقية من تلحين باخ (المترجم).
(٢) حجر كبير قائم يصل ارتفاعه إلى عشرين متراً، من آثار القبائل التي كانت تعيش في إقليم برتاني بفرنسا (المترجم).

بالقرب من النافذة على كرسيها الوثير ذي الوسائد الصغيرة وتضع نظارتها وتتنهد بسعادة وتعب وتسبل جفنيها بابتسامة ناعمة متلذذة، التقيت بها بعد ذلك على شفتي الجيوكندا. كانت أمي تصمت وتدعوني إلى الصمت، وكنت أفكر في صلاة القداس والموت والنوم، وأملأ نفسي بصمت مقدس. ومن وقت لآخر، كانت لويز تضحك ضحكة صغيرة، وتنادي ابنتها مشيرة بإصبعها إلى سطر، وكانت المرأتان تتبادلان نظرة محرِّضة. ومع ذلك فلم أكن أحب هذه الكتب المقصبة صغيرة الحجم المتناهية في الأناقة؛ لقد كانت دخيلة ولم يكن جدي يخفي أنها موضع إعجاب مقصور على النساء. وفي يوم الأحد كان يدخل لملء الفراغ حجرة زوجته ويقف أمامها، دون أن يجد ما يقوله لها؛ وكان الجميع ينظرون إليه وهو ينقر على الزجاج، فإذا نضب خياله، تحولَّ إلى لويز وأخذ روايتها من يديها. وكانت جدتي تصرخ غاضبة: «شارل! إنك ستفقدها الصفحة!» ولكنه كان يرفع حاجبيه ويقرأ، وفجأة يضرب الكتاب بسبابته ويصيح: «إني لا أفهم» وكانت جدتي تقول له: «ولكن كيف تريد أن تفهم وأنت تقرأ من الداخل!» وينتهي الأمر بأن يرمي بالكتاب على المائدة ويمضي رافعاً كتفيه.

كان على حق بالتأكيد لأنه ابن الصنعة نفسها. وكنت أعرف ذلك: فقد أراني على رف من المكتبة كتباً ضخمة مجلدة بالكرتون ومغطاة بنسيج بني. «تلك الكتب أيها الصغير، صنعها جدك». يالفخر! لقد كنت حفيداً لمتخَصِّص في صنع الأشياء المقدسة ومحترماً مثل صانع الأرغن وحائك ثياب رجال الأكليروس. وقد شاهدته وهو يعمل. ففي كل عام كان يُعاد طبع «المطالعة الألمانية». وأثناء العطلة الصيفية كانت العائلة كلها تنتظر تجارب المطبعة بفارغ صبر: كان شارل لا يحتمل البطالة، ويغضب للوقت الضائع وأخيراً كان ساعي البريد يحضر رزمات ضخمة رخصة. وكانت الخيوط تقص بالمقص؛ وكان جدي يفرد السلخات وينشرها على مائدة حجرة الطعام ويقطعها بخطوط حمراء؛ وأمام كل غلطة مطبعية كان يجدِّف بصوت خفيض، ولكنه لم يكن يصرخ إلا حين كانت الخادمة تبدأ في إعداد المائدة. كان السرور يعم الجميع. كنت أقف على كرسي وأنظر بإعجاب شديد إلى هذه الأسطر السوداء المضرجة بالدماء. وقد أخبرني «شارل شفايتزر» بأن له عدواً لدوداً، وهو ناشره فجدي لا يعرف المحاسبة قط: ولما كان مسرفاً عن غفلة، وأخيراً عن مباهاة، فقد انتهى به الأمر إلى أن يُصاب، بعد وقت طويل، بهذا المرض الذي يناسب الذين بلغوا الثمانين وهو البخل، نتيجة للعجز والخوف من الموت. وفي ذلك الوقت كان البخل قد ظهر في شكل ارتياب شاذ: فحين كان يتسلم حوالة قيمة حقوق التأليف، كان يرفع ذراعيه إلى السماء صارخاً بأنهم يذبحونه أو يدخل حجرة جدتي ويعلن في كآبة: «إن ناشر كتابه يسرقه كما يُسْرَقُ الناس في الغابة». واكتشفتُ مذهولاً استغلال الإنسان للإنسان. ولولا هذه الشناعة التي أوقفَت عند حدها لحسن الحظ، لكان العالم بخير؛ ومع ذلك فإن أصحاب العمل بحسب قدرتهم، يعطون العمال بحسب استحقاقهم. ولماذا يشوّه جمال هذا العالم هؤلاء الناشرون المختلسون بمصهم دماء جدي المسكين؟ لقد ازداد احترامي لهذا الرجل

القديس الذي لم يُكافأ على تفانيه. لقد تم إعدادي مبكراً لأعتبر التدريس كهنوتاً والأدب هوى.

لم أكن أعرف القراءة بعد: ولكني كنت محباً للظهور إلى الحد الذي جعلني أطالب بكتب لي. وذهب جدي إلى ناشره الخبيث وأخذ «قصص» الشاعر موريس بوشور المقتبسة من الأدب الشعبي والموضوعة في أسلوب يتناسب وذوق الطفل بقلم رجل احتفظ بعيون الطفولة كما يقول. وأردت أن أبدأ في الحال مراسم التملك. وأخذت المجلدين الصغيرين وشممتهما وجسستهما وفتحتهما بلا اكتراث «في الصفحة المطلوبة» وجعلتهما يقرقعان. ولكن عبثاً: فلم أكن أشعر بأني أملكهما. وحاولت دون تحقيق نجاح أكبر أن أعاملهما كدميتين، فأهدهدهما، وأقبلهما وأضربهما وانتهى بي الأمر، وأنا أكاد أبكي، إلى وضعهما على ركبتي أمي. فرفعت عينيها من على شغلها وقالت لي: «ماذا تريد أن أقرأ لك يا حبيبي؟ الجنيات؟» فسألتها غير مصدق: «الجنيات، هل هي داخل الكتاب؟» إن هذه القصة كانت مألوفة عندي، وكانت أمي تحكيها لي كثيراً، حين كانت تغسل لي وجهي، وتتوقف لتدلكني بماء الكولونيا أو لكي تلتقط من المغطس قطعة الصابون التي انزلقت من بين يديها. وكنت أصغي ساهياً إلى القصة التي كنت أعرفها جيداً، ولم أكن أنظر إلا للفتاة آن ماري، التي كانت تطالعني كل صباح، ولم أكن أصغي إلا لصوتها المضطرب المشوب بالعبودية. كنت أعجب بجملها غير الكاملة وبكلماتها دائمة البطء، وبثقتها الفجائية التي تنكسر بشدة وتتحولّ إلى هزيمة لتختفي في تمزق رخيم ولتعود ثانية بعد صمت. إن القصة كانت تأتي عَرَضاً باعتبارها الرباط الذي يجمع بين سلسلة مناجياتها. وطوال الوقت الذي كانت تتكلم فيه، كنا وحيدين ومختفيين بعيداً عن الناس والآلهة والكهنة، كوعلين في الغابة مع هذه الوعول الأخرى ألا وهي الجنيّات؛ ولم أكن أستطيع أن أصدق أنهم ذهبوا إلى حد تأليف كتاب كامل ليضمنوه هذا الجزء من حياتنا الدنيوية التي تنبعث منها رائحة الصابون وماء الكولونيا.

أجلستني «آن ماري» في مواجهتها، على كرسيّ الصغير، وانحنت وأسبلت جفنيها ونامت. ومن هذا الوجه الذي يشبه التمثال خرج صوت جامد. وفقدت عقلي: من كان يحكي؟ وما الذي كان يحكيه؟ ولمن كان يحكي؟ لقد تغيبت أمي: لا ابتسامة ولا إشارة تواطؤ، لقد كنت في المنفى. ثم لم أكن أعرف لغتها. من أين أخذت هذه الثقة؟ وفهمت بعد لحظة: كان الكتاب هو الذي يتكلّم، وتخرج منه جمل تخيفني: كانت حشرات أم أربع وأربعين الحقيقية وكانت تغص بالمقاطع والحروف وتمد أصواتها وتهز الحرفين الساكنين، والحروف الشادية، والأنفية، مشطورة بوقفات وتنهدات، غنية بكلمات غير معروفة، تأخذ بعضها برقاب بعض وبمنعطفاتها دون أن تبالي بي. وكانت تختفي أحياناً قبل أن أتمكن من فهمها، وأحياناً كنت أفهم مقدماً وكانت تستمر في سيرها بكرم نحو نهايتها دون أن تعفيني من فاصلة. ومن المؤكد أني لم أكن المقصود بهذا الخطاب. أما القصة فقد ارتدت ثياب العيد: فالحطّاب والحطّابة وبناتها والجنية، كل صغار القوم هؤلاء، أمثالنا، اكتسبوا

جلالة؛ فكانوا يتحدثون عن أسمالهم بعظمة، وكانت الكلمات تؤثر على الأشياء محولة الأعمال إلى طقوس والأحداث إلى احتفالات. وأخذ أحدهم يوجه أسئلة: إن ناشر مؤلفات جدي، وقد تخصص في نشر الكتب المدرسية، كان ينتهز كل فرصة لتدريب ذكاء قرائه الغض. وبدا لي أنهم يسألون طفلاً: ما الذي سوف يفعله لو أنه كان الحطاب؟ أي الأختين كان يفضّل؟ ولماذا؟ هل يقر عقاب (بابيت)؟ ولكن هذا الطفل لم يكن أنا تماماً وكنت أخشى الإجابة. ومع ذلك فُقد، وضاع صوتي الضعيف وشعرت بأني أصبحت، شخصاً آخر. وبأن «ماري» أيضاً كانت شخصاً آخر بهيئتها التي تشبه الكفيف قوي البصيرة: لقد بدا لي أنني كنت ابناً لكل الأمهات، وأنها كانت أماً لكل الأولاد. وحين كفّت عن القراءة، انتزعتُ منها الكتب وحملتها تحت ابطي دون أن أنطق بكلمة شكر.

وبمضي الوقت أصبحتُ أتلذذ بهذا الصوت الذي كان ينتزعني من نفسي، وكان موريس بوشور ينحني على الطفولة بتلك العناية الشاملة التى يبديها رؤساء الأقسام لزبائن المحال الكبرى؛ مما كان يرضيني. وأصبحت أفضل القصص المؤلفة مقدماً على القصص المرتجلة. وغدوت أتأثر بالتسلسل الدقيق للكلمات: فعند كل قراءة كانت تعود بذاتها على الدوام وبالترتيب نفسه، وكنت انتظرها. وفي حكايات آن ماري، كان الأشخاص يعيشون يوماً بيوم، كما كانت تفعل هي، وانتهى كل منهم إلى مصير. وكنت في صلاة القداس، أشهد الأسماء والأحداث وهي تتردد تردداً دائماً.

وقد غرت حينذاك من أمي وقررت أن آخذ دورها منها، واستوليت على كتاب عنوانه: «مغَامرات صيني في الصين» وحملته إلى حجرة الحوائج المستغنى عنها، وهناك وقفت على سرير بحواجز وتظاهرت بالقراءة: وكنت أتابع بعيني الأسطر السوداء دون أن أترك سطراً واحداً وأقص على نفسي قصة بصوت عال مع العناية بنطق كل المقاطع. وفاجأوني -أو جعلتهم يفاجئونني- وصاحوا متعجبين وقرروا أن الوقت قد حان لتعليمي الحروف الأبجدية. وكنت متحمساً كالموعوظ[1]؛ وذهب بي الحماس إلى حد إعطاء نفسي دروساً خاصة: كنت أتسلق سريري ذا الحاجز مع رواية «بلا عائلة» لهكتور مالو التي كنت أحفظ وأطالع في صعوبة بعضها الآخر وأقلب جميع صفحاتها، الواحدة بعد الأخرى: وعندما قلّبت آخر صفحة، كنتُ قد تعلمت القراءة.

لقد كنتُ فرحاً: إن هذه الأصوات التي جفت كالنباتات بين الصفحات هي لي، هذه الأصوات التي كان جدي يبعثها بنظرته ويسمعها ولا أسمعها أنا! لسوف أصغي إليها وسوف أملأ نفسي بخطب احتفالية وأعرف كل شيء. وتركوني أتجوّل في المكتبة وهجمت عليّ الحكمة الإنسانية، الشيء الذي كونني. وبعد ذلك سمعت مائة مرة أعداء السامية يأخذون على اليهود جهلهم لدروس الطبيعة وصمتها، وكنت أجيب: «إني في هذه الحالة أكثر يهودية منهم». وعبثاً كنت أبحث في نفسي عن الذكريات الغامضة وعن شقاوة

(١) الذي يعتنق ديناً جديداً عن اقتناع (المترجم).

أطفال الريف اللطيفة. فأنا لم أحفر الأرض قط ولم أبحث عن أعشاش، ولم أجمع النباتات من الحقول ولم أقذف الطيور بالحجارة. ولكن الكتب كانت طيوري وأعشاشي، وحيواناتي الأليفة وحظيرتي وريفي. كانت المكتبة العالم معكوساً في مرآة، كان لها سمكه اللانهائي وتنوعه وعدم القدرة على التنبؤ بما سيقع فيه من أحداث. لقد قذفتُ بنفسي في المغارات العجيبة: وكان لابد لي من تسلّق الكراسي والموائد غير مبال بالانهيارات التي تردمني تحتها. وظلت كتب الرف الأعلى بعيداً عن متناولي مدة طويلة، وأُنتُزِعَت كتبُ أخرى من يدي ما أن اكتشفتها، وغيرها من الكتب كانت مخبأة أيضاً، كنت قد أخذتها وبدأت قراءتها واعتقدت بأنني أعدتها إلى مكانها، ولكن كان لابد من أسبوع للعثور عليها. لقد التقيت بأشياء مرعبة: فكنت أفتح دفتراً للرسوم، وأصادف لوحة بالألوان، وحشرات قبيحة تتحرك تحت نظري. وكنت أقوم برحلات شاقة خلال «فونتنيل» و «أريستوفان» و «رابليه» وأنا راقد على السجادة: وكانت الجمل تقاومني على منوال الأشياء؛ كان لابد من ملاحظتها واللف حولها والتظاهر بالابتعاد والعودة بغتَة إليها لمفاجأتها بعيداً عن حراسها: وفي أغلب الأحيان، كانت تحتفظ بسرها. وكنتُ «لابيروز»[1] و «ماجلان» و«فاسكوديجاما»؛ وكنت أكتشف سكاناً أصليين غرباء: كلمة «هيوتوتنتيمور ومينوس»[2] في إحدى تراجم تيرانس[3] في قصيدة شعرية ذات اثنى عشر مقطعاً، واصطلاح «المزاج الشخصى» في كتاب يبحث في الأدب المقارن. والكلمات apocope ومعناها سقوط مقطع لفظي و chiasme ومعناها قلب العبارة و parangon ومعناها المقارنة ومائة كلمة أخرى تعصى على الفهم وتبعد عنه كانت تظهر في منحنى صفحة. وكان مجرد ظهورها يقطع أوصال الفقرة كلها. ولم أعرف معنى هذه الكلمات الصلبة السوداء إلا بعد ذلك بعشر أو خمس عشرة سنة، إنها تحتفظ حتى اليوم بعدم شفافيتها: فهي دبال ذاكرتي.

لم تكن المكتبة تحوي إلاّ كبار كلاسيكي فرنسا وألمانيا. كانت هناك أيضاً كتب قواعد وبعض الروايات المشهورة، وقصص مختارة لموباسان ومؤلفات في الفن -عن روبانس وفان ديك ودورر ورامبرانت- وكان تلاميذ جدي أهدوها لي في عيد من أعياد رأس السنة. إنه عالم هزيل. إلا أن قاموس لاروس الكبير كان كل شيء بالنسبة لي: كنت أتناول أحد الأجزاء عرضاً، خلف المكتب، على الرف قبل الأخير، من حرف a إلى كلمة bello أو من كلمة belloc إلى ch أو من ci إلى حرف d أو من كلمة mele إلى po أو من pr إلى حرف z (إن هذا التآلف بين المقاطع أصبح بالنسبة لي أسماء أعلام تشير إلى أقسام المعرفة العامة: فهناك المنطقة التي تمتد من ci إلى d ، والمنطقة التي

---

(١) ملاح فرنسي مشهور توفي سنة ١٧٨٨ (المترجم). (٢) جلاد نفسه عنوان كوميديا تأليف تيرانس قلّدها ميناندر (المترجم). (٣) شاعر كوميدي لاتيني ولد في قرطاجة في حوالي عام ١٩٠ قبل الميلاد قلد الشعراء اليونانيين (المترجم).

تمتد من pr إلى z بحيواناتها ونباتاتها ومدنها ورجالها العظام ومعاركها)؛ كنت أضعه بصعوبة على القرطاس الذي يضعه جدي تحت يديه على المكتب للكتابة عليه، وأفتحه وأخرج منه الطيور الحقيقية واصطاد فيه الفراشات الحقيقية التي تحط على أزهار حقيقية. وكان الناس والحيوانات بذاتها هناك: وكانت الصور المطبوعة هي أجسامها والنص هو روحها وجوهرها الفريد؛ وتلتقي خارج الأسوار برسوم ناقصة مبهمة تقترب بعض الشيء من النماذج ولكن دون أن تصل إلى كمالها: ففي حديقة الحيوان كانت القردة أقل من القردة، وفي حديقة اللكسمبورج كان الناس أقل من الناس. ولما كنت أفلاطونياً من حيث الوضع، فكنت أبدأ بالمعرفة وأنتهي بموضوعها؛ وأجد الفكرة أكثر واقعية من الشيء، لأنها كانت تعطي نفسها لي أولاً ولأنها كانت نفسها كشيء. ففي الكتب التقيت بالكون: متمثلاً ومصنفاً ومعنوناً ومتأملاً فيه ومرهوباً أيضاً؛ وقد خلطت فوضى تجاربي المكتبية بالمجرى الخطر للأحداث الواقعية. ومن هناك جاءت هذه المثالية التي أنفقت ثلاثين سنة للتخلص منها.

كانت الحياة اليومية رائعة: فكنا نعاشر أشخاص رصينين يتكلمون بصوت عالٍ وبوضوح ويؤسسون يقينهم على مبادئ سليمة، على حكمة الأمم ولم يكونوا يتفضلون بتمييز أنفسهم عن العامة إلا ببعض التكلُّف في الروح كنت قد اعتدته تماماً. وما أن يُدلوا بآرائهم حتى أقتنع بها ببداهة شفافة وساذجة. فإذا أرادوا أن يبرروا سلوكهم قدموا أسباباً مملة إلى الحد الذي لا يمكن إلا أن تكون حقيقية. وإن وساوسهم التي يعرضونها برضاء كامل كانت تقتعني أكثر مما تكدرني، وكانت هذه المشكلات منازعات زائفة تم حلُّها من قبل؛ وهي دائماً المشكلات نفسها، وحين كانوا يعترفون بأخطائهم فإن ذلك لم يكن يثقل ضمائرهم كثيراً: إن العجلة الشديدة، هذا الهيجان الشرعي المبالغ فيه بلا شك قد حرفت حكمهم؛ ولكنهم انتبهوا إليها في الوقت المناسب لحسن الحظ. وإن أخطاء الغائبين الأكبر من أخطائهم كانت قابلة دائماً لأن تغفر: فلا اغتياب عندنا. إنها عيوب في السلوك كانت تلاحظ بأسى. وكنتُ أصغي، وأفهم وأوافق، وأجد هذه الأحاديث مطمئنة، ولم أكن مخطئاً بما أنها كانت تهدف إلى الطمأنينة: لا داء بلا دواء وفي الواقع لا شيء، وإن الاضطرابات السطحية غيرالمجدية يجب ألا تخفي علينا الهدوء الذي هو نصيبنا.

كان زوارنا يستأذنون في الرحيل، فأظل وحيداً أهرب من هذه المقبرة العادية وكنت أذهب للحاق بالحياة وبالجنون في الكتب. وكان يكفيني أن أفتح كتاباً منها لأكتشف فيه هذه الفكرة اللاإنسانية القلقة، التي تجاوز أبهتها وظلماتها إدراكي والتي تقفز من فكرة إلى أخرى بسرعة تجعلني أتراخى مائة مرة عند كل صفحة وأتركها تفلت وأنا مذهول ضائع. وكنت أحضر أحداثاً كان جدي يعتبرها بالتأكيد بعيدة التصديق ومع ذلك فقد كانت تتسم بالصدق الساطع للأشياء المكتوبة. وكانت الأشخاص تبرز دون استئذان وتتحاب وتتخاصم وتتقاتل، وكان الباقي على قيد الحياة يذبل كمداً ويلحق في القبر بالصديق وبالخليلة الحنون التي اغتالها منذ قليل، ما الذي كان ينبغي لي أن أفعله؟ هل كنت

مدعواً أسوة بالأشخاص الكبار لألوم وأهنئ وأغفر؟ ولكن هؤلاء الشواذ لم يكن يبدو عليهم أنهم يسيرون وفق مبادئنا. وحتى عندما كانوا يقدمون دوافعهم فإنني لم أكن أدركها فبروتس يقتل ابنه وكذلك يفعل «ماتيو فالكونيه»[1]. فهذه العادة كانت مألوفة بقدر كاف. ومع ذلك فإن أحداً من حولي لم يلجأ إليها. لقد اختلف جدي حين كنا في (مودون) مع خالي إميل وسمعتهما يتصايحان في الحديقة. ولكنه لم يكن يبدو أنه فكر في قتله. كيف كان جدي يدين الآباء الذين يقتلون أولادهم؟ أما أنا فكنتُ أمتنع عن الإدلاء برأيي: فحياتي لم تكن في خطر لأني كنت يتيماً وهذه الاغتيالات كانت تسليني بعض الشيء، ولكن في القصص التي كانوا يؤلفونها عن الاغتيالات، كنت أشعر بموافقة محيِّرة. وبالنسبة لهوارس كنت مضطراً إلى مقاومة نفسي كي أبصق على الصورة التي تظهره لابساً خوذته، شاهراً سيفه، جارياً خلف كامي المسكينة وكان كارل يدندن أحياناً:

ليس هناك أقرب

من الأخ والأخت طبعاً... .

كان ذلك يقلقني: ولو أن الحظ أعطاني أختاً، لكان من الممكن أن تكون أقرب إليّ من «آن ماري»؟ ومن «كارليمامي»؟ ولأضحت حبيبتي إذاً، و «حبيبتي» لم تكن بعد إلا كلمة غامضة كانت تصادفني كثيراً في مآسي «كورني». أحباء يقبلون بعضهم بعضاً ويتواعدون أن يناموا في السرير نفسه (عادة غريبة: ولمَ لا ينامون في سريرين متشابهين كما أفعل أنا وأمي؟). لم أكن أعرف أكثر من ذلك، ولكن السطح المضئ للفكرة، كنت أستشعر كتلة مشعرة، لو كنت أخاً لغدوت ابن سفاح على أي حال. كنت أحلم بذلك. ولكن هل هو هروب أم إخفاء لشعور ممنوع؟ قد يكون ذلك. كانت لي أخت أكبر مني، وهي أمي، وكنت أتمنى أن تكون لي أخت أصغر وحتى اليوم -١٩٦٣- أرى أنه الرباط العائلي الوحيد الذي يحرك شجوني[2]. لقد اقترفت الخطأ الكبير بأن بحثت كثيراً بين النساء عن تلك الأخت التي لم تكن: وقد صدر حكم بعدم صحة دعواي ويدفع المصاريف. وهذا لا يمنع أنني، وأنا أخط هذه الأسطر، أحيي الغضب الذي انتابني على قاتل كامي، إن غضاضتها الزائدة وحيوتها الفائقة جعلتاني أسائل نفسي عما إذا كانت جريمة هوارس إحدى أسباب عداوتي للعسكرية: إن العسكريين يقتلون أخواتهم. ولو كنتُ حاضراً لأذقته

(١) بطل إحدى قصص الأديب الفرنسي بروسبير ميريمي (المترجم).

(٢) عندما كنت في حوالي العاشرة من عمري كنتُ أتلذذ بقراءة «عابرات المحيطات»: حيث نجد أمريكياً صغيراً وأخته المتناهية البراءة. كنت أتجسد الصبي وأحب خلاله «بيدي» الفتاة الصغيرة. وقد فكرت طويلاً في كتابة قصة عن طفلين يزنيان مع بعضهما سراً. وتوجد في كتاباتي آثار هذه الرؤية: أوريست والكترا في «الذباب»، بوريس وايفيش في «طريق الحرية»، وفرانتز وليني في «سجناء التونة» وهما وحدهما اللذان انتقلا إلى الفعل. إن ما كان يغويني في هذا الرباط العائلي هو تحريم المضاجعة أكثر منه اغواء الحب: نار وجليد، لذة ممزوجة بالحرمان، وكان غِشيان المحارم يروق لي إذا ما ظل عذرياً (المترجم).

المر هذا الجندي الفظ الغليظ. وأول ما أفعله هو ربطه إلى عمود وأفرغ في جسمه اثنتي عشرة رصاصة! وأدرتُ الصفحة؛ إن حروفاً مطبعية تبرهن لي على خطئي: فلابد لي من إطلاق سراح قاتل أخته. ولبضع دقائق أخذت أنفخ وأضرب الأرض بقدمي كالثور المخدوع. وكنت أسرع بعد ذلك إلى إلقاء الرماد على غضبي. هكذا ما كان يحدث؟ وكان عليّ أن أذعن فقد كنت حينئذ صغيراً جداً وفهمت كل شيء بالمقلوب وضرورة هذه التبرئة كانت موجودة بالذات في الأبيات الكثيرة التي ظلت أمامي مغلقة أو التي تركتها لنفاد صبري. كنت أحب هذا الشك وأحب أن تفلت مني القصة من كل جهة: كان ذلك يحيِّرني. لقد أعدت قراءة الصفحات الأخيرة من رواية «مدام بوڤاري» عشرين مرة؛ وفي نهاية الأمر كنت قد حفظت عن ظهر قلب صفحات كاملة دون أن يكون سلوك الأرمل المسكين أكثر وضوحاً لي: لقد وجد خطابات، ولكن هل ذلك سبب تركه لحيته تنمو؟ إنه يلقي نظرة غامضة على رودولف، فهو يحقد عليه إذاً – ولماذا يحقد عليه بالفعل؟ ولماذا قال له: «إني لا أحقد عليك». ولماذا كان رودولف يجده «مضحكاً ودنياً بعض الشيء»؟ ثم يموت «شارل بوڤاري»: فهل يموت حزناً؟ هل يموت من المرض؟ ولماذا يشرحه الطبيب وقد انتهى كل شيء؟ كنت أحب هذه المقاومة الصلبة التي لم أتمكن قط من القضاء عليها؛ ولما كنتُ مخدوعاً وعاجزاً، فقد تذوقت لذة الفهم دون فهم، هذه اللذة الغامضة: إنها بطء فهم الناس. إن القلب الإنساني الذي كان جدي يتكلم عنه بطيبة خاطر مع العائلة كنت أجده فارغاً وبلا طعم في كل مكان ما عدا في الكتب. إن أسماء مصدعة كانت تكيِّف أمزجتي وتُلقي بي في جو من الرعب أو من الحزن لا أعرف أسبابه. كنتُ أقول «شار بوڤاري»[1] ولم أكن أرى في أي مكان رجلاً طويل القامة ذا لحية يتنزه في أسماله داخل حظيرة. ولم يكن ذلك محتملاً. كان يوجد في مصدر هذه اللذة القلقة مزيج من خوفين متناقضين. كنت أخشى أن أسقط على رأسي في عالم خرافي وأن أتوه فيه على الدوام، بمصاحبة هوارس و «شار بوڤاري»، دون أمل في أن أعثر على شارع لوجوف وعلى كارليمامي ولا على أمي. ومن جهة أخرى، فقد اكتشفت أن هذه الجمل المتتابعة تقدم للقراء البالغين معاني تتوارى عني. ومن خلال عيني كنت أدخل في رأسي كلمات مسمومة، أغنى كثيراً مما كنت أعلم؛ إن قوة غريبة كانت تعيد تكوين حزن هائل في نفسي هو حطام حياة، وذلك بكلام عن قصص هائجين لا علاقة لها بي: ألن أفسد نفسي وأموت مسموماً؟ ولما كنت أمتص الكلمة وتمتصني الصورة، فإني لم أكن أنقذ نفسي أخيراً إلاَّ بتناقض هذين الخطرين المتزامنين. وعندما يميل النهار، وأنا تائه في غابة من الكلام، أرتعد لأدنى صوت وتبدو لي طقطقة الأرضية الخشبية كأنها أصوات تَعَجُّب؛ كنت أعتقد بأني اكتشفت اللغة في حالتها الطبيعية، بدون الناس. وبأي عزاء جبان وبأية خيبة أمل أجد الابتذال العائلي حين تدخل أمي وتضئ الغرفة وهي تصيح: «يا حبيبي المسكين إنك تقلع عينيك!» وكنت أقفز على

(١) بدلاً من شارل بوڤاري (المترجم).

قدمي، شارداً، وأصيح وأعدو، وأهرج. ولكن حتى في هذه الطفولة المستعادة، كانت هذه الأسئلة تقلقني: عمَ تتحدث الكتب؟ من الذي يكتبها ولماذا؟ بُحت بقلقي إلى جدي الذي رأى - بعد تفكير - أن الوقت قد حان لتحريري، وقد قام بهذه المهمة على أحسن وجه، الشيء الذي طبعني بطابعه.

كان يهدهدني طويلاً على ساقه الممدودة وهو يغني: «أنا راكب جوادي الصغير وحين يخب يضرط» وكنت أضحك للفضيحة، وكفَّ عن الغناء: وأجلسني على ركبتيه ونظر إلي في أعماق عيني وكرر جهاراً «أنا إنسان، وكل ما هو إنساني ليس غريباً عليَّ» وكان يغالي كثيراً: وكما فعل أفلاطون مع الشاعر، فقد طرد كارل من جمهوريته المهندس والتاجر كما طرد الضابط على الأرجح. كانت المصانع تشوهُ المناظر الطبيعية ولم يكن يتذوق من العلوم البحتة سوى نقاوتها. وفي «جرينبي» حيث كنا نقضي النصف الثاني من شهر يوليو، كان خالي جورج يصحبنا لزيارة المسابك: كان الجو حاراً وكان رجال غلاظ في ملابس رثة يدفعوننا؛ وكنت أموت خوفاً ومللاً وقد أصمَّت أذني أصوات هائلة، وكان جدي ينظر إلى المعدن المنصهر وهو يصفِّر تأدباً ولكن عينه كانت كالميتة. ولكن في (الأوفرني)، في شهر أغسطس، كان يتجوَّل باحثاً خلال القرى وكان يقف أمام الأبنية القديمة ويضرب الطوب بطرف عصاه ويقول لي بحرارة: «إن ما تراه هنا يا صغيري هو حائط غالي - روماني» كذلك كان يقدر الفن المعماري الديني وعلى الرغم من مقته لأتباع البابا، فلم يكن يفوته قط دخول الكنائس إن كانت من الطراز القوطي أو طراز القرنين الحادي عشر والثاني عشر: كان ذلك موقوفاً على مزاجه. لقد انقطع عن الذهاب إلى حفلات الكونسير بعد أن كان يحضرها: فقد كان يحب بتهوڤن وأبهته وأوركستراه الكبيرة، وكان يحب باخ أيضاً ولكن بدون اندفاع ويقترب أحياناً من البيانو ويوقع بأصابعه اليابسة بعض التوافقات الموسيقية وهو واقف: وكانت جدتي تقول بابتسامة مكتومة:«إن شارل يؤلف» وكان ولداه - وجورج بخاصة، قد أصبحا عازفين جيدين يكرهان بتهوڤن ويفضلان موسيقى الحجرة، ولم يكن يتضايق من هذا الاختلاف في وجهات النظر؛ وكان يقول بلهجة تنم عن طيبة: «إن عائلة شفايتزر ولدت موسيقية». وبعد ثمانية أيام من مولدي حين بدا عليَّ أنني مسرور بقرع ملعقة، قرر أن لدي أذناً موسيقية.

إن نوافذ الكنائس المزخرفة بالزجاج الملون والأقواس والأبواب المنحوتة والأناشيد ومناظر صلب المسيح المنحوتة في الخشب أو الحجر والتأملات الشعرية والأنغام الشاعرية، كل هذه الانسانيات كانت تعيدنا رأساً إلى الالهي، وفضلاً عن ذلك كان لابد من إضافة مناظر الجمال الطبيعي. إن نفثة واحدة كانت تشكل أعمال الله والأعمال البشرية العظيمة. إن قوس قزح كان يلمع في زبد مساقط المياه ويبرق بين سطور فلوبير ويضيئ في لوحات رمبرانت متدرجة الأضواء: إنه العقل، العقل الذي يحدِّث البشر عن الله ويجلو لهم وجوده. كان جدي يرى في الجمال الوجود المادي للحقيقة ومصدراً لأعلى سمو. وفي بعض الأحوال الاستثنائية حين كانت تنفجر عاصفة في الجبل، وحين كان يُلهم ڤيكتور هوجو -

كنا نستطيع الوصول إلى السمو حيث تختلط الحقيقة والجمال والخير بعضها ببعض.

لقد وجدت دیانتي، وليس هناك ما يبدو لي أهم من الكتاب: كنت أجد في المكتبة معبداً، ولما كنت حفيد قسيس فكنت أعيش على سقف العالم، الطابق السادس جاثم على أعلى فرع من الشجرة المركزية: وجذعها، هو قفص المصعد. وكنت أروح وأغدو على الشرفة وأرمي المارة بنظرة عمودية، وأحيي من خلال القضبان «لوسيت مورو»، جارتي، التي كانت في مثل سني وشعرها كشعري الأشقر المجعد وأنوثتها كأنوثتي الصغيرة. وكنت أدخل إلى القاعة الوسطى من المعبد أو بهوه ولم أكن أنزل قط بشخصي: وحين كانت أمي تأخذني إلى حديقة لوكسمبورج - أي يومياً - كنت أعير ثوبي الرث للأنحاء السفلى، ولكن جسدي المجيد لم يكن يترك مجثمه وأعتقد أنه لا يزال هناك. فلكل إنسان مكانه الطبيعي، لا الكبرياء ولا القيمة هما اللتان تحددان ارتفاعه: إن الطفولة هي التي تقرر. ومكاني هو طابق سادس في باريس يطل عل أسطح المنازل. لقد اختنقت زمناً طويلاً في الوديان وأثقلت السهول كاهلي: وكنت أجر رجلي على كوكب المريخ وكان الثقل يسحقني ويكفيني أن أتسلق إحدى الروابي ليعاودني السرور، وكنت أعود إلى طابقي السادس الرمزي، واستنشق فيه من جديد هواء الآداب النادر، وكان الكون يتدرج عند قدمي وكل شيء كان يطلب بتواضع اسماً، وإعطاؤه اياه كان يعني خلقه وأخذه في وقت معاً. ولولا هذا الوهم الأساسي لما كتبت أبداً.

واليوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٦٣ أصحح هذا المخطوط في الطابق العاشر من منزل جديد: ومن نافذة مفتوحة أرى مقبرة، وباريس وتلال سان كلو الزرقاء، مما يدل على إصراري. ومع ذلك فكل شيء قد تغيَّر فهل كنت أريد، وأنا طفل، أن أكون جديراً بهذا المركز العالي، لابد أن في حبي لأبراج الحمام أثرا للطموح والزهو وتعويضاً لقصر قامتي. ولكن لم يكن الأمر هو مجرد أن أتسلق على شجرتي المقدسة، فقد كنت فوقها وأرفض النزول، ولم يكن الأمر يقتضي أن أضع نفسي فوق الناس: كنت أريد أن أعيش وسط الأثير، بين الأشباح الهوائية للأشياء. وبعد ذلك، وبدون أن أتشبث بمناطيد، بذلت كل همتي في الغوص: وكان لابد من ارتداء نعال من رصاص. وحدث لي أحياناً أن مسست بالصدفة، على رمال جرداء، أنواعاً في قاع البحار، وكان على أن أبتكر لها أسماء. وفي مرات أخرى، بلا فائدة: كانت خفة لا تقهر تمسكني عند السطح. وفي النهاية، انكسر ميزان ارتفاع عندي، فأنا تارة بهلوان وتارة غطّاس، وكثيراً ما أكون كليهما كما هو لائق في جهتنا: وأسكن الهواء بحكم العادة وأتدخل في شئون الدنيا دون أمل كبير.

ولكن لابد له أن يحدثني عن المؤلفين. لقد فعل جدي ذلك بفطنة ولكن بدون حرارة. لقد علمني أسماء هؤلاء الرجال العظام، وكنت أتلو قائمتهم وحدي من «هسيود»[1] إلى «هوجو» دون أن أخطئ مرة واحدة: وكان هؤلاء الرجال العظام هم القديسين والأنبياء.

---

(١) شاعر اغريقي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد (المترجم).

وكان «شارل شفايتزر» يقول إنه يخصهم بنوع من العبادة. ولكنهم كانوا يضايقونه: فإن وجودهم المزعج كان يمنعه من أن يسند إلى الروح القُدُس مباشرة أعمال الإنسان. لذا كان يفضِّل سراً المجهولين والبنائين الذين تواروا متواضعين خلف كاتدرائياتهم والعدد الذي لا يُحصى من مؤلفي الأغاني الشعبية. ولم يكره «شكسبير» الذي لم تكن شخصيته قد ثبتت، وللسبب نفسه لم يكن يكره «هوميروس» ولا بعض المؤلفين الآخرين الذين لم يتأكد وجودهم تماماً. وكان يلتمس الأعذار لهؤلاء الذين لم يشاءوا أو لم يعرفوا مسح آثار حياتهم، شريطة أن يكونوا قد ماتوا. ولكنه كان يدين معاصريه بالجملة مستثنياً «أناتول فرانس» و «كورتلين» الذي كان يبهجه. وكان «شارل شفايتزر» يتمتع فخوراً بالاحترام الذي كان الناس يكنونه لسنه الكبير ولثقافته ووسامته وفضائله. إن هذا اللوثيري لم يكن يمنع نفسه من التفكير، حسب التوراة، في أن الله قد بارك بيته. وعلى المائدة، كان يستغرق في التأمل أحياناً ويلقي على حياته نظرة فيها بعض التعجرف ويختتم قائلاً: «كم هو جميل يا أولادي، ألا نجد ما نأخذه على أنفسنا». وإن احتداده وعظمته وكبرياءه وحبه لكل ما هو سام كان يخفي خجلاً عقلياً يرجع إلى دينه وعصره ووسطه. ولهذا السبب كان يكن كراهية سرية للغيلان المقدسة الموجودة في مكتبته، هؤلاء الأشرار الذين يعتبر كتبهم مجوناً في قرارة نفسه. وكنت مخطئاً في ذلك: فالتحفظ الذي كان يظهر من خلال حماس متكلف، كنت آخذه على أنه قسوة قاض: إن كهنوته كان يرفعه فوقهم وكان رجل الدين يهمس في أذني أن العبقرية ليست على أي حال سوى قرض لابد من استحقاقه بكبير عناء وبتجارب تُجتاز بتواضع وثبات؛ وينتهي بنا الأمر بأن نسمع أصواتاً ويُملى علينا ما نكتبه. وبين الثورة الروسية الأولى والنزاع العالمي الأول وبعد وفاة «مالارميه»[1] بخمس عشرة سنة وفي الوقت الذي كان «دى فونتانان» يكتشف «الأغذية الأرضية»[2] كان رجل من القرن التاسع عشر يفرض على حفيده الأفكار التي سادت في عصر الملك لويس فيليب. وهكذا تفسر العادات الريفية، كما يقولون؛ فالآباء يذهبون إلى الحقول تاركين أولادهم في أيدى الأجداد. لقد انطلقت متأخراً ثمانين سنة. هل يتعيَّن عليَّ أن أشكو من ذلك؟ لست أدري: إن في مجتمعاتنا المتحركة ما يعطى التأخير أحياناً بعض التقدم. ومهما يكن من أمر، لقد ألقوا لي بهذه العَظْمة لأقرضها وقرضتُها جيداً بحيث أصبحت أرى الضوء من خلالها. وكان جدي يتمنى سراً أن يجعلني أكره الكُتَّاب، هؤلاء الوسطاء، ولكنه حصل على عكس النتيجة: فقد خلطت بين الموهبة والاستحقاق. إن هؤلاء الناس الطيبين كانوا يشبهونني: حين كنت عاقلاً جداً وحين كنت أتحمل الآمي بشجاعة، وكنت أستحق أن أتوج بأغصان الغار أو الحصول على مكافأة؛ ولكن تلك كانت الطفولة. وكان «كارل شفايتزر» يريني أطفالاً آخرين، روقبوا مثلي، ومرّوا بمحن وكوفئوا، وعرفوا

---

(١) من أهم شعراء المدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي، توفي ١٨٩٨ (المترجم).
(٢) رواية من تأليف أندريه جيد (المترجم).

كيف يحتفظون طول حياتهم بسني. ولما كنت بلا أخ ولا أخت ولا أصحاب، فقد جعلتُ منهم أصدقائي الأول. فقد أحبوا وتعذبوا عذاباً مريراً، مثل أبطال رواياتهم وانتهوا بخاصة نهاية طيبة؛ كنت أتذكر الآمهم بشفقة تشوبها بعض البهجة: كم كان سرور هؤلاء الأتراب حين كانوا يشعرون بشدة تعاستهم: «يا للحظ! إن بيتاً من الشعر جديداً سوف يولد!».

إنهم في نظري لم يموتوا، أو لم يموتوا تماماً، لقد تحولوا إلى كتب. إن «كورني» كان ضخماً، أحمر الوجه، خشناً ظهره من جلد تنبعث منه رائحة الصمغ. إن هذا الشخص غير المريح والقاسي ذا الكلام الصعب كانت له أركان تدمي فخذي حين كنت أقوم بنقله، ولكن ما أن أفتحه حتى يقدم لي صوره المظلمة الرقيقة كأنها اعترافات. وكان «فلوبير» صغيراً مبطناً بقماش، لا رائحة له، ومنقطاً ببقع نخالة. و «ڤكتور هوجو» المتعدد الأجزاء كان معششاً على كل الأرفف معاً. ذلك بالنسبة للأجساد؛ أما بالنسبة للأرواح، فقد كانت تتردد على المؤلفات: وكانت الصفحات بمثابة نوافذ، ومن الخارج كان ثمة وجه ملتصق بالزجاج، إن أحداً يرقبني؛ وكنت أتظاهر بأني لا ألاحظ شيئاً واستمر في قراءتي، وقد تعلقت عيناي بالكلمات تحت نظرة المرحوم «شاتوبريان» الثابتة. إن هذا القلق لم يكن مستمراً: وباقي الوقت كنت أعيد رفقائي في اللعب. لقد وضعتهم فوق كل شيء، وقد رووا لي دون أن أتعجب أن «شارل الخامس» التقط فرشاة «تزيانو»[1]: وما الغرابة في ذلك! أليس هذا هو عمل الأمير؟ ومع ذلك فلم أكن أحترمهم: ولماذا إذاً أمدحهم لأنهم عظام؟ إنهم لم يقوموا إلا بواجبهم. كنت ألوم الآخرين لأنهم صغار. وبالاختصار لقد فهمت كل شيء بالعكس واتخذت من الاستثناء قاعدة: لقد أصبح النوع الإنساني لجنة محدودة محاطة بحيوانات ودودة لا سيما وأن جدي كان يعاملهم معاملة سيئة للغاية كي آخذهم على محمل الجد تماماً. لقد كفَّ عن القراءة منذ وفاة «ڤكتور هوجو»؛ وعندما لم يكن لديه عمل آخر كان يعاود القراءة. ولكن مهمته كانت الترجمة. ففي قرارة نفسه كان مؤلف «المطالعة الألمانية» يعتبر الآداب العالمية مادته. وكان يرتب بازدراء المؤلفين حسب استحقاقهم، ولكن هذا التدرج الظاهري كان يخفي بشكل رديء هذا التفضيل النفعي: فموباسان كان يقدم للتلاميذ الألمان أفضل نصوص الترجمة. و «جوته» المتفوق على «جوتفريد كيلر» بعض الشيء لا يبارى بالنسبة للنصوص الألمانية المطلوب ترجمتها إلى الفرنسية: ولما كان جدي إنسانياً فإنه كان قليل التقدير للروايات: ولكونه مدرساً فإنه كان يقدرها بشدة من أجل المفردات. وانتهى به الأمر إلى أن أصبح لا يحتمل إلا المقطوعات المنتخبة. ورأيته بعد بضع سنوات يتلذذ بنبذة من «مدام بوڤاري» اقتطعها «ميرونو» لكتابه «المطالعات» في حين كان «فلوبير» كاملاً ينتظر ارادته المستبدة. وكنت أشعر بأنه كان يعيش على الأموات مما كان يعقد صلاتي بهم: فبحجة أنه يحترمهم إلى حد العبادة، كان يكبلهم بسلاسله ولم يكن يمنع نفسه من تقطيعهم إلى شرائح لينقلهم من لغة إلى

(١) مصور ايطالي توفي سنة ١٥٧٦ (المترجم).

أخرى بطريقة أسهل. واكتشفت في الوقت نفسه عظمتهم وبؤسهم. ولسوء حظ «ميريميه» أنه كان يناسب الفصول المتوسطة؛ وكان يعيش لذلك حياتين: في الطابق الرابع من المكتبة، كانت «كولومبا»[1] حمامة غضة بمائة جناح، باردة ومعروضة ولكنها مجهولة بانتظام، لم تنتهكها أية نظرة قط. ولكن على الرف السفلي كانت هذه العذراء نفسها محبوسة في كتاب صغير قذر بني اللون، كريه الرائحة؛ لم تتغير لا القصة ولا اللغة، ولكن كانت فيها شروح وقاموس بالألمانية؛ وفضلاً عن ذلك فقد علمت أنه نُشر في برلين، وهي فضيحة لا تعدلها فضيحة منذ اغتصاب الألزاس واللورين. وكان جدي يضع هذا الكتاب مرتين في الأسبوع في حقيبة كتبه، لقد غطاه بالبقع والخطوط الحمراء وبالحروف وكنت أكرهه: إنه «ميريميه» مُهانا. وكنت أموت من الملل بمجرد فتحه: إن كل مقطع كان ينفصل تحت نظري، كما كان يحدث في فم جدي بالمعهد. ما هي هذه الإشارات المعروفة والتي تُعرف بجهد، المطبوعة في ألمانيا ليقرأها ألمان، سوى تقليد لكلمات فرنسية؟ إنها قضية جاسوسية أخرى: كان يكفي أن نكحت لنكتشف خلف تنكرها الغالي[2] ألفاظاً جرمانية كامنة وانتهى الأمر بي إلى سؤال نفسي عما إذا لم يكن هناك «كولومبتان»، واحدة متوحشة وحقيقية وأخرى منحولة وتعليمية كما توجد يزولتان[3].

إن شقاوة أصحابي الصغار أقنعتني بأني ندهم. لم تكن لي مواهبهم ولا أفضالهم ولم أكن قد شرعت بعد في الكتابة، ولكن لما كنت حفيد قسيس، فقد كنت متفوقاً عليهم بمولدي؛ لا شك أني كنت مكرساً لا لاستشهادهم الفاضح بعض الشيء وعلى الدوام، ولكني كنت مكرساً لبعض الكهانة؛ سأكون ديدبان الثقافة كشارل شفايتزر. ثم كنت أنا حيًّا وشديد النشاط: لم أكن أعرف بعد تصنيف الأموات، ولكني كنت أفرض عليهم نزواتي: كنت آخذهم على ذراعي وأحملهم وأضعهم على الأرضية الخشب وأفتحهم وأغلقهم، كنت أسميهم من العدم لأعيد غمسهم فيه: لقد كانوا دمياتي، هؤلاء الناس الناقصون، وكنت مشفقاً على هذا الخلود البائس المشلول الذي يسمونه خلودهم. كان جدي يشجع هذه الألفة: إن كل الأطفال ملهمون ولا يستطيعون أن يحسدوا الشعراء على شيء ذلك أنهم بكل بساطة أطفال. وكنتُ مولعاً بكورتلين[4]، وألاحق الطاهية في مطبخها لأقول لها بصوت عال: «تيودور هاتي كبريتاً» وقد سرّهم ولعي هذا وطوّرته عنايتهم الزائدة به وجعلوا منه هوى معلناً. وذات يوم قال لي جدّي بعدم أكتراث: «لابد أن يكون كورتلين رجلاً طيباً. لماذا لا تكتب له إذا، ما دمت تحبه بهذا المقدار؟» وكتبتُ. ووجه «شارل شفايتزر» قلمي وقرر أن يترك عدة أخطاء إملائية في خطابي. لقد أعادت بعض

---

(١) إحدى قصص ميريميه (المترجم). (٢) نسبة إلى بلاد الغال، فرنسا القديمة (المترجم).
(٣) في قصة «تريستان وايزولت» من قصص العصور الوسطى الفرنسية توجد ايزولت التي يحبها تريستان، وايزولت ذات اليدين البيضاوين خطيبة تريستان وهي تحبه وهو لا يحبها (المترجم).
(٤) مؤلف تمثيليات مضحكة، توفي سنة ١٩٢٩ (المترجم).

الصحف نشر هذا الخطاب منذ بضع سنوات وقرأته من جديد متضايقاً. لقد أنهيت الخطاب بهذه الكلمات «صديقك مستقبلاً» وكانت تبدو طبيعية جداً: كانت لي دالة على «فولتير» و«كورني»: فكيف يرفض كاتب علي «قيد الحياة» صداقتي؟ لقد رفض «كورتلين» هذه الصداقة وحسناً فعل: فلو أنه أجاب الحفيد لوقع على الجد. وفي ذلك الوقت حكمنا على سكوته حكماً قاسياً. قال شارل: «إني أفهم أن يكون لديه عمل كثير، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، كان لابد من الرد على طفل».

واليوم أيضاً، ما زالت عندي نقيصة التآلف هذه. إني أعامل هؤلاء الراحلين المشهورين وكأنهم زملائي في المدرسة وأعبر عن ذاتي بلا مواربة عند الكلام عن «بودلير» و «فلوبير»، وحين ألام على ذلك، أود دائماً أن أجيب: «لا تتدخلوا في شئوننا. إن عبقريَيكم كانا ملكي، لقد أمسكتهما في يدي وأحببتهما عن هوى وبكل عدم احترام. فهل أعاملهما بمداراة؟» ولكن إنسانية كارل، إنسانية الحَبْر هذه، لقد تخلصت منها منذ اليوم الذي فهمت فيه أن كل إنسان هو الإنسان بكليته. كم هي حزينة حالات الشفاء: إن اللغة تخلّص من الأوهام؛ وأبطال القلم، أترابي القدماء، قد عادوا إلى الصف مجردين من امتيازاتهم: وألبس الحداد عليهم مرتين.

إن ما كتبته منذ قليل لخطأ. إنه صح. لا هو صح ولا خطأ ككل ما يكتب عن المجانين، عن الناس. لقد أتيت بالوقائع بالدقة التي أتيحت لذاكرتي. ولكن إلى أي حد أصدق هذياني؟ إنها المسألة الرئيسية ومع ذلك، فإني لا أقرر شيئاً فيها. ورأيت بعد ذلك أنه في الاستطاعة معرفة كل شيء عن عواطفنا عدا قوتها، أي صدقها. إن الأعمال نفسها لن تستخدم معياراً إلا إذا ثبت أنها ليست حركات. وهو أمر ليس سهلاً على الدوام. أنظروا بالأحرى: كنت بالغاً مُصعّداً وحدي بين البالغين، كانت قراءاتي قراءات بالغين؛ وذلك يؤذي السمع، لأنني في اللحظة ذاتها ظللت طفلاً. لا أدعي أني كنت مذنباً: لقد كان الأمر كذلك، وهذا هو كل ما في الأمر، ولا يمنع أن اكتشافاتي وصيدي كانت جزءاً من الملهاة العائلية، كانوا يفرحون بذلك، وكنت أعلم، نعم كنت أعلم، ففي كل يوم كان طفل عجيب يوقظ كتب السحر التي لم يعد جدُّه يقرأها. كنت أعيش فوق سني كما يعيش المرء فوق طاقته المالية: بهمة وبتعب وبثمن غالٍ من أجل المظهر. وما أن أدفع باب المكتبة حتى أجد نفسي في بطن عجوز لا يتحرك: المكتب الكبير ومرفقة الورق، بقع الحبر الحمراء والسوداء على النشافة وردية اللون، المسطرة، إناء الصمغ، الرائحة النتنة للطباق، وفي الشتاء، الوميض الأحمر للسمندر وقعقعة الميكا، إنه «كارل» بنفسه وقد تحوّل إلى شيء: لم تكن الحاجة تستدعي لأكثر من ذلك لكي أكون في حالة نعمة، كنت أجري إلى الكتب. هل كنت أفعل ذلك بخلوص نية؟ ما معنى ذلك؟ كيف أستطيع أن أعيِّن – وبخاصة بعد هذا العدد من السنين – الحد المتحرك المستحيل إدراكه والذي يفصل التملك عن التهريج؟ كنت استلقي على بطني، في مواجهة النوافذ وأمامي كتاب مفتوح وكوب ماء محمَّر إلى يميني، وإلى يساري قطعة خبز بالمربى موضوعة في طبق. حتى في العزلة كنت في عرض

مسرحي: لقد قلّب «آن ماري» و «كارليمامي» هذه الصفحات قبل أن أولد بوقت طويل، إن معرفتهم هي التي تنبسط أمامي؛ وفي المساء، كانوا يسألونني: «ما الذي قرأته، وما الذي فهمته؟» كنت أعرف، كنت في حالة وضع وسوف ألد كلمة طفل؟ إن الهرب من الأشخاص الكبار إلى القراءة لأفضل وسيلة للاتحاد معهم؛ وفي غيابهم كانت نظرتهم المستقبلة تدخل فيَّ من خلف وتخرج من الحدقتين وتحدد في مستوى الأرض هذه الجمل التي قُرئت مائة مرة والتي كنت أقرأها لأول مرة. ولما كنت مرئياً كنت أرى نفسي: كنت أرى نفسي وأنا أقرأ كما يصغي المرء لنفسه وهو يتكلم. هل تغيرتُ كثيراً منذ الوقت الذي كنت أتظاهر فيه بأنني أفك «الخط الصيني في الصين» قبل أن أعرف الحروف الأبجدية؟ كلا: فاللعبة مستمرة. كان الباب يُفتح خلفي، ويأتون ليروا «ماذا كنت أصنع»: كيف ألفق، فأنهض بسرعة وأعيد الشاعر «موسيه» إلى مكانه وأذهب في الحال، وقد وقفت على أطراف أصابعي، رافعاً ذراعي لآخذ كتاب «كورني» الضخم، وكانوا يقيسون هواي حسب مجهوداتي، وكنت أسمع خلفي صوتاً مفتوناً يهمس: «لأنه يحب كورني!» لم أكن أحبُّه؛ فالأبيات ذات الإثني عشر مقطعاً كانت تثبط همتي. ولحسن الحظ لم يكن الناشر قد طبع إلا أشهر مآسي هذا الشاعر بنصها الكامل؛ مكتفياً بإعطاء عنوان المآسي الأخرى وملخصها التحليلي: وهذا ما كان يهمني: «إن رودلاند زوجة برتاريت، ملك اللومبارديين الذي انتصر عليه جريموالد، يستعجلها أونولف لتقبل الأمير الأجنبي زوجاً لها». لقد عرفت رودوجون وتيودور واجيسيلاس قبل «السيد» وقبل «سينا»[1] كنت أملأ فمي بأسماء رنانة وأملأ قلبي بمشاعر نبيلة وأهتم بألا أتوه في روابط القرابة. وكانوا يقولون أيضاً: «إن في هذا الصغير ظمأً إلى العلم؛ فهو يلتهم «قاموس لاروس!»» وكنت أتركهم يقولون. ولكني قلما كنت أتعلم: لقد اكتشفت أن بالقاموس ملخصات للتمثيليات والروايات كنت أتلذذ بها.

كنت أحب الترضية وأريد أن آخذ حمامات ثقافة: وكنت أعيد ملء نفسي كل يوم بما هو مقدّس. وعن سهو أحياناً، كان يكفي أن أسجد وأدير الصفحات؛ وكثيراً ما استخدمت مؤلفات أصدقائي الصغار طواحين للصلاة. وكان ينتابني في وقت معاً خوف وسرور حقيقيان وكان يحدث أن أنسى دوري وأسير بلا احتراس وقد خطفني حوت مجنون ما هو إلا العالم. حاولوا أن تستخلصوا النتيجة! وعلى أي حال فكانت نظرتي تعالج الكلمات: وكان لابد من تجربتها والبت في معناها؛ إن كوميديا الثقافة قد ثقفتني على مر الأيام.

وكنت مع ذلك أقرأ قراءات حقيقية: خارج المعبد في غرفتنا أو تحت مائدة غرفة الطعام. كنت لا أتحدث عن هذه القراءات مع أحد، ولا أحد كان يحدثني عنها سوى أمي.

---

(١) كل هؤلاء هم أبطال في مآسي كورني المؤلف المسرحي الفرنسي الذي عاش في القرن السابع عشر. (المترجم).

وحملت «آن ماري» حماسي المزوّر على محمل الجد. وكشفت لجدتي عن قلقها، وكانت جدتي حليفة يوثق فيها وقالت: «إن شارل ليس معقولاً. إنه هو الذي يدفع الصغير، لقد رأيته يفعل ذلك. ما الذي نجنيه حين يهزل هذا الطفل؟» وذكرت المرأتان كذلك الإرهاق والحمى المخية الشوكية. إن من الخطورة والعبث مهاجمة جدي وجهاً لوجه، لابد إذاً من مداورته. وخلال إحدى نزهاتنا، وقفت «آن ماري»، كما لو كان الأمر حدث بالصدفة، أمام كشك الجرائد الذي لا يزال على ناصية جادة سان ميشيل وشارع سوفلو: لقد رأيتُ صوراً عجيبة، سحرتني ألوانها الزاهية فطلبتها وحصلت عليها؛ وانطلت الحيلة وقد أردت الحصول كل أسبوع على مجلات «كرى كرى»، و «المدهش» و «العطلة» و «أبناء الكشافة الثلاثة» لجان دي لاهير و «حول العالم بالطائرة» لأرنوجالوبان، وكانت تصدر في ملازم كل يوم خميس. ومن خميس إلى خميس كنت أفكر في «نسر جبال الأنديز» وفي مارسيل دونو الملاكم ذى القبضتين الحديدتين وفي «كريستيان الطيَّار» أكثر كثيراً مما كنت أفكر بصديقيٍّ رابليه وڤينيي. وأخذت أمي تبحث عن كتب تعيدني إلى طفولتي: كانت في البداية «الكتب الوردية» الصغيرة، وهي كتب شهرية تحوى قصص الجنيات ثم شيئاً فشيئاً، حل دور «أبناء القبطان جرانت» و «آخر قبيلة الموهيكان» و «نيقولا نيكلبى» و«صولديات لافاريد الخمسة» وفضلت هوس «پول ديفوا» على اتزان «چول فرن» الزائد. ولكن أياً كان المؤلف، فكنتُ أعبد كتب مجموعة هتزل، وهي عبارة عن تمثيليات صغيرة تصورُ السِتار أغلفتها الحمراء ذات الشراريب الذهبية: وكان غبار الشمس على حافة الكتب يصور أضواء المسرح الأمامية. إنى أدين لهذه الصناديق السحرية - لا لجمل شاتوبريان المتوازنة - لقاءاتي الأولى بالجمال. وكنت أنسى كل شيء عندما أفتحها: أكانت هذه قراءة؟ لا، ولكنها كانت نشوة غاية في الشدة: ومن إلغاء وجودي سرعان ما كان يولد وطنيون مسلحون بالحراب وحشائش استوائية ومستكشف على رأسه خوذة بيضاء. لقد كنت رؤيا وكنت أغمر بالضوء خدي «عودة» الأسمرين الجميلين وسالفى فيلياس فوج[1]. إن الأعجوبة الصغيرة وقد تخلصت من ذاتها أخيراً، كانت تترك نفسها لتصبح إعجاباً خالصاً. وعلى ارتفاع خمسين سنتيمتراً من الأرضية الخشبية كانت تولد سعادة كاملة بلا سيِّد ولا طوق. وكان العالم الجديد يبدو بداية أشد اقلاقاً من القديم: فالنهب والقتل قائمان فيه؛ والدم يجرى أنهراً. إن هنوداً وهندوساً وموهيكان وهوتنتو يخطفون الفتاة ويقيدون أباها العجوز ويتواعدون على إزهاق روحه بتعذيبه تعذيباً يشيب لهوله الولدان. كان الشر خالصاً ولكنه لم يظهر إلا ليخشع أمام الخير: وفي الفصل التالي يعود كل شيء إلى حاله. إن رجالاً بيضاً شجعاناً يذبحون مئات المتوحشين ويقطعون قيود الأب الذي يلقي بنفسه بين ذراعي ابنته. فالأشرار هم وحدهم الذين يموتون - وكذلك بعض الأخيار الثانويين الذين يأتي موتهم بين الأحداث غير المتوقعة من القصة. وفضلاً عن ذلك كان الموت مطهراً فقد

---

(١) بطل رواية «حول العالم في ثمانين يوماً» للكاتب الفرنسي چول فرن (المترجم).

كانوا يسقطون مبوسطي الذراعين وتحت الثدي الأيسر ثقب صغير أو - إذا كانت البندقية لم تخترع بعد - كان المذنبون «يموتون بحد السيف». وكنت أحب هذا التركيب الجميل: وأتخيل هذا البرق المستقيم الأبيض، هذا النصل وهو ينغرز كما لو كان في زبد ويخرج ثانية من ظهر الخارج على القانون الذي يسقط دون أن يفقد نقطة دم واحدة - وكانت المنية تذهب أحياناً إلى حد الإضحاك: مثل هذا العربي الذي في قصة «ربيبة رولان» على ما أذكر، هجم بجواده على جواد أحد الصليبيين؛ فضربه الفارس الفرنسي على رأسه بالسيف ضربة قوية شطرته من أعلى إلى أسفل؛ وتصف هذه الحادثة صورة لجوستاف دوريه. وكم كان المنظر مضحكاً! إن نصفى الجسم المشطورين كانا آخذين في السقوط ويرسم كل منهما نصف دائرة حول الركاب؛ وقد شب الجواد مندهشاً [١]. وظللتُ عدة سنوات لا أنظر إلى هذه الصورة إلا وأضحك ملء شدقي. وكنت أدرك أخيراً ما أنا في حاجة إليه: العدو المكروه غير المؤذى آخر الأمر، فمشروعاته لم تكن تصل إلى غرضها، وحتى على الرغم من جهوده ودهائه الشيطاني كانت تخدم قضية الخير؛ وكنت ألاحظ فعلاً أن العودة إلى النظام كانت مصحوبة على الدوام بالتقدم: وكان الأبطال يُكافأون ويُكرمون ويعجب بهم ويتلقون المال؛ وبفضل جسارتهم كان يتم غزو إقليم وانتزاع تحفة فنية من أبناء البلاد الأصليين ونقلها إلى متاحفنا. وكانت الفتاة تقع في حب المستكشف الذي أنقذ حياتها، وكل شيء كان ينتهي بالزواج. لقد استخلصت من هذه المجلات ومن هذه الكتب خيالي المستقر في أعماقي ألا وهو التفاؤل.

وظلّت هذه القراءات سرية زمناً طويلاً؛ ولم تكن «آن ماري» في حاجة إلى تنبيهي: ولما كنت مدركاً شناعة فعلتهما، فلم أتفوه بأي كلمة عنها لجدي. كنت أعاشر السفلة وأمنح نفسي بعض الاستقلال، وأمضي عطلات في بيوت الدعارة ولكن لم أنس قط أن حقيقتي ظلت في المعبد. فما جدوى الإساءة إلى الكاهن بقصة ضلالي؟ وانتهى الأمر بكارل أن فاجأني؛ وغضب من المرأتين اللتين انتهزتا لحظة توقفه ليستريح لتلقيا عليَّ كل الوزر: لقد رأيت المجلات وقصص المغامرات واشتهيتها وطلبتها، فهل كان في إمكانهما أن ترفضا لي هذا الطلب؟ إن هذه الأكذوبة البارعة أحرجت جدي: لقد كنت أنا، أنا وحدي الذي يخدع كولومبا مع تلك العاهرات اللواتي بالغن في طلاء وجوههن بالمساحيق. أنا الطفل النبوي وبيتوليس[٢] الشابة والياسين[٣] الأدب وكنت أظهر ميلاً مجنوناً للعار. وعليه أن يختار بين أن أكف عن التنبؤ وبين أن يحترموا ميولي دون أن يحاولوا فهمها. لو كان «شارل شفايتزر» أباً لأحرق كل شيء؛ ولكنه كان جداً فاختار التسامح المشوب بالحزن. ولم أكن

---

(١) كان الفرنسيون وغيرهم من الشعوب الغربية يقصون على أولادهم قصصاً في نفوسهم كراهية الشعوب الشرقية ويلاحظ أن سارتر يسخر من طرف خفي من هذه القصص (المترجم). (٢) إمرأة عند الاغريق لها القدرة على التنبؤ (المترجم). (٣) أحد أشخاص مأساة أتالي لراسين. إن الياسين هو الاسم الذي أعطي لجواس الأمير الذي رباه سراً «جواد» كبير الكهنة ليحميه من غضب أتالي (المترجم).

أطلب أكثر من ذلك وأكملت حياتي المزدوجة بسلام ولم تنقطع أبداً: وإلى اليوم أفضل قراءة كتب «السلسلة السوداء»[1] على كتب وتجنشتين[2].

كنت الأول، عديم المثال في جزيرتي الهوائية وتقهقرت إلى الصف الأخير عندما طبقوا عليَّ القواعد العامة.

وقرر جدي أن يلحقني بليسيه مونتني، وذات صباح، صحبني إلى المدير وأشاد بفضائلي ولم يكن لي عيب سوى أني كنت غاية في التقدم بالنسبة لسني. وسلّم المدير بكل شيء: وأدخلوني في الصف الثامن وهكذا استطعت أن أعتقد أني سأعاشر الأولاد الذين في سني. ولكن لا: فبعد تمرين الإملاء الأول، أسرعت الإدارة إلى استدعاء جدي؛ وعاد غاضباً كل الغضب وأخرج من حقيبة كتبه ورقة رديئة مكتوبة بخط غير مقروء وقد امتلأت بالبقع وقذف بها إلى المائدة: كانت الورقة التي قدمتها. كانوا قد لفتوا نظره إلى الأخطاء الإملائية – «الأرنب البرى يحبو الزعترا[3]»، وحاولوا أن يفهموه أن مكاني في الفصل العاشر التحضيري. وأمام «الأرنب البرري» أغرقت أمي في الضحك؛ وأوقفها جدي بنظرة رهيبة. وبدأ يتهمني بسوء النية ويتبكيتي لأول مرة في حياتي، ثم أعلن أنهم أنكروا صفاتي؛ وأخرجني في اليوم التالي من الليسيه وغضب من المدير.

لم أفهم شيئاً من هذا الموضوع ففشلي لم يؤثر فيَّ: كنت طفلاً من نوادر الزمن لا يعرف الإملاء. ذلك كل ما في الأمر. ثم استرددت عزلتي بلا ضجر: كنت أحب عيبي. لقد فقدت، دون أن أنتبه إلى ذلك، فرصة أن أصبح حقيقة: كلّف جدي السيد ليڤان، وهو معلّم من باريس أن يعطيني دروساً خصوصية؛ كان يأتي كل يوم تقريباً. وكان جدي قد اشترى لي مكتباً صغيراً لاستعمالي الشخصي، عبارة عن مقعد وقمطر مصنوعين من الخشب الأبيض. وكنت أجلس على المقعد وكان السيد ليڤان يروح ويغدو وهو يمليني. وكان يشبه فانسان أوريول[4] وكان جدي يدعي أنه ماسوني ويقول لنا باشمئزاز الرجل الشريف الخائف المعرض لمحاولات شخص شاذ جنسياً: «إنه يرسم بإبهامه المثلث الماسوني على راحة يدي». وكنت أكرهه لأنه كان ينسى أن يدللني: وأعتقد أنه كان يعتبرني، لسبب ما، طفلاً متأخراً. لقد اختفى ولا أعرف السبب: ربما يكون قد كشف لأحد عن رأيه فيَّ.

وقضينا بعض الوقت في أركشون وألحقت بمدرستها العامة: فقد كانت مبادئ جدي الديمقراطية تقتضي ذلك. ولكنه كان يرى أيضاً أن أبْعَد عن العامة. وأوصى المعلم بي بالعبارات التالية: «يا زميلي العزيز أني أعهد اليك بأغلى ما عندي». وكان السيد بارو يربي لحية صغيرة ويضع على عينيه نظارة من التي تُثَبَّت في الأنف: وجاء ليشرب نبيذ

---

(١) روايات بوليسية (المترجم). (٢) فيلسوف نمساوي ولد في فيينا سنة ١٨٨٩ وتوفي في كمبردج ١٩٥١. قام بالتدريس بجامعة كمبردج. كتب بحثاً في المنطق الفلسفي وغيره من البحوث.

(٣) الأرنب البري يحب الزعتر. (٤) رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٤ (المترجم).

موسكات في فيلتنا وأعلن عن إغتباطه بالثقة التي أولاه إياها أحد أعضاء التعليم الثانوي. وكان يجلسني إلى قمطر خاص بجانب كرسي المعلم. وأثناء الفسح كان يبقيني إلى جانبه. كانت هذه المعاملة الخاصة تبدو لي عادلة؛ أما رأي «أولاد الشعب» زملائي في ذلك، فكنت أجهله. وأعتقد أنهم كانوا لا يبالون بذلك. كان طيشهم يتعبني وكنت أرى من النجابة أن أتضايق وأنا بجانب السيد بارو وهم يتسابقون.

كنت أحترم معلمي لسببين: فهو يريد الخير لي ورائحة فمه كريهة. والأشخاص الكبار ينبغي أن يكونوا دميمين ومتغضنين ومتعبين، وحين كانوا يأخذونني بين ذراعيهم لم يكن يضايقني أن أتغلب على تقزز خفيف: مما يدل على أن الفضيلة ليست سهلة. وثمة مباهج بسيطة ومبتذلة: الجري، القفز، أكل الحلوى، تقبيل بشرة أمي الناعمة العطرة، ولكني كنت أقدر أكثر المباهج الدراسية والمتشابكة التي كنت أشعر بها وأنا أصاحب الرجال الناضجين: إن النفور الذي كانوا يوحون به إليّ أصبح جزءاً من سحرهم: كنت أخلط التقزز بروح الجد. وكنت مولعاً بالتنفج. وحين كان السيد بارو ينحني عليّ، كان نَفَسه يفرض عليّ ضيقاً لذيذاً، وكنت أستنشق بحماس الرائحة الكريهة لفضائله. وذات يوم أكتشفتُ كتابة جديدة جداً على جدار المدرسة، فاقتربت منها وقرأت: «الأب بارو فَرْج[1]». وخفق قلبي حتى كاد ينفطر وسمّرتني الدهشة في مكاني. كنت خائفاً: «فَرْج»، لا يمكن أن تكون إلا إحدى هذه «الكلمات البذيئة» التي تكثر في أحط ألفاظ اللغة والتي لا يصادفها قط طفل مهذب. ولما كانت قصيرة وفظة فقد كانت لها شناعة الحيوانات البدائية. وكان كثيراً عليّ أن أقرأها: لقد متعت نفسي من النطق بها حتى بصوت منخفض. إن هذا الصرصار المعلق إلى الجدار، كنت لا أريد أن يقفز إلى فمي ليتحول داخل حلقي إلى بوق أسود. ولو تظاهرت بعدم ملاحظتي له ربما دخل في ثقب الحائط. ولكن كلما أشحت ببصري وقعت على التسمية الشائنة: «الأب بارو» وكان ما يرعبني أكثر هو كلمة «فَرْج»، وعلى كل، فأنا لم أكن أفعل أكثر من تخمين معناها؛ ولكن كنت أعرف جيداً من كان يُسمى «بالأب[2] فلان» في عائلتي: إنهم البستانيون وسعاة البريد وأبو الخادمة وبالاختصار كبار السن من الفقراء. هل كان أحد يرى السيِّد بارو، المعلم، زميل جدي في هيئة عجوز فقير؟ كانت تجول هذه الفكرة المريضة المجرمة في مكان ما، في رأسي. في أي رأس؟ ربما في رأسي. ألا يكفي أن يقرأ المرء الكتابة التجديفية ليكون شريكاً في الدنس؟ لقد بدا لي أن مجنوناً قاسياً، كان، في وقت ما، يسخر من أدبي ومن احترامي ومن حماستي، من البهجة التي كانت تدخل نفسي كل صباح وأنا أرفع قبعتي وأقول «صباح الخير يا أستاذ» وأني كنت هذا المجنون وأن الكلمات والأفكار البذيئة تملأ قلبي. ما الذي يمنعني مثلاً من الصراخ ملء صوتي: «إن هذا القرد العجوز تفوح رائحته كالخنزير».

(١) هذا الأسم له معنيان بالفرنسية الأول «فَرْجُ» المرأة والثاني «مغفل» ويبدو أن سارتر الطفل لم يكن على علم بالمعنيين (المترجم). (٢) نحن في مصر نقول «العم فلان» لا «الأب فلان» المترجم.

وتمتمت: «الأب بارو تفوح رائحته» وأخذ كل شيء يدور من حولي: وهربت وأنا أبكي. ومنذ اليوم التالي وجدت من جديد احترامي للسيِّد بارو، بسبب ياقته المُنشاة وعقدة رباط عنقه التي على شكل فراشة. ولكن حين كان ينحني على كراستي، كنت أدير رأسي وأكتم نفسي.

وفي الخريف التالي، قرّ رأي أمي على ادخالي مؤسسة بوبون. وكان عليّ أن أصعد سلماً خشبياً وأن أدخل قاعة بالطابق الأول؛ وكان الأطفال يتجمعون في نصف دائرة صامتين: والأمهات تراقبن المعلم وقد جلسْن مستقيمات في آخر القاعة وظهورهن إلى الحائط. وكان أول واجبات الفتيات المسكينات اللواتي كن يعلمننا هو أن يوزعن بالعدل والقسطاس كلمات المديح والدرجات التشجيعية لمجمعنا الذي يتألف من عجائب الزمان. وإذا صدر من إحداهن حركة تنم عن الملل وأظهرت رضاها التام عن إجابة صحيحة، فقدت آنسات بوبون بعض تلاميذهن وفقدت صاحبتنا بالتالي مكانها. كنّا ثلاثين أكاديمياً بالتمام، ولم يكن لدينا أي وقت لكي نتحدث فيما بيننا. وعند الخروج كانت كل أم تستولي على ولدها بعنف وتمضي به دون تحية. وفي نهاية نصف العام أخرجتني أمي من المدرسة. إن العمل فيها كان قليلاً ثم أن الأمر قد انتهى بها إلى السأم لشعورها بأن جاراتها كن يلتهمنها بنظراتهن عندما يحل دوري لتلّقي عبارات التهنئة. وقبلت الآنسة «ماري لويز» -وهي فتاة شقراء، تضع نظارة على عينيها وتعمل ثماني ساعات في اليوم في مدرسة بوبون بأجر لا يكاد يقيم أودها، قبلت أن تعطيني دروساً خصوصية في المنزل دون علم المديرات. وكانت تقطع أحياناً تمرينات الإملاء لتخفف عن قلبها بتنهدات عميقة: وتقول لي إنها تعبة حتى الموت وإنها تعيش في وحدة قاتلة وإنها تعطي كل شيء في سبيل الحصول على زوج، أي زوج، وانتهى بها الأمر، هي الأخرى، إلى الاختفاء: فقد ادعوا أنها لم تعلمني شيئاً، ولكن أعتقد بخاصة أن جدي كان يجدها شؤماً. إن هذا الرجل العادل لم يكن يرفض التخفيف عن البؤساء، ولكنه كان يكره دعوتهم تحت سقف بيته. لقد حان الوقت: إن الآنسة ماري لويز كانت تثبط من عزيمتي. وكنت أعتقد أن الأجور تتناسب مع الاستحقاق وكانوا يقولون لي أنها مستحقة: فلمَ يدفعون لها هذا الأجر المزري؟ وعندما يمارس المرء مهنة، فإنه يكون جديراً وفخوراً بها وسعيداً بالعمل: وبما أن الحظ أسعدها بالعمل ثماني ساعات في اليوم، فلم تتحدث عن حياتها كأنها مرض مستعص؟ وحين كنت أنقل شكواها كان جدي يأخذ في الضحك: إنها دميمة إلى الحد الذي لا يمكن لرجل أن يقبلها. كنت لا أضحك: فقد يولد المرء محكوماً عليه؟ وفي هذه الحالة يكونون قد كذبوا عليّ: إن نظام العالم يخفي فوضى غير محتملة. وبمجرد إزاحتها زال قلقي فقد وجد لي «شارل شفايتزر» معلمين أليق. فقد كانوا أليق إلى حد جعلني أنساهم جميعاً. وظللت وحيداً بين رجل مسن وامرأتين حتى العاشرة من عمري.

إن حقيقتي وخلقي واسمي كانوا في أيدي الكبار؛ فقد تعلمت أن أرى نفسي بعيونهم؛ كنت طفلاً، هذا المسخ الذي يصنعونه بتحسرهم، فإذا ما غابوا تركوا خلفهم

نظرتهم الممزوجة بالضوء؛ كنت أجري وأقفز خلال هذه النظرة التي كانت تحافظ لي على طبيعة الحفيد النموذجي والتي كانت تستمر في إهدائي لعبي والكون. وفي قمقمي الجميل، في روحي، كانت أفكاري تدور، كان كل واحد يستطيع أن يتابع حيلها: فلا يوجد فيها ركن مظلم واحد. ومع ذلك، فبلا كلمات ولا شكل ولا ثبات، كان ثمة يقين شفاف ممزوج في هذه الشفافية البريئة، يفسد كل شيء: كنت دجالاً، فكيف أتصنع دون أن أعرف التصنُّع؟ إن الظواهر الواضحة المشمسة المكوِّنة لشخصيتي كانت تشي إحداها بالأخرى: بنقص في الوجود لا أستطيع أن أفهمه كلياً ولا أن أكف عن الشعور به. كنت ألتفت إلى الأشخاص الكبار وكنت أطلب منهم أن يكفلوا قيمي: كان ذلك إمعاناً مني في الدجل. ولما كان محكوماً عليَّ بأن أرضي الناس، فقد أضفيت على نفسي ملاحة كانت تذبل في الحال: كنت أجُرُّ في كل مكان سذاجتي الزائفة وأهميتي الفارغة مترقباً فرصة جديدة: كنت أعتقد بأنني أمسكت بها وألقي بنفسي في وضع أجدُ فيه الميوعة التي كنت أريد الهرب منها. كان جدي يغفو وقد التف بحرامه، وكنت ألمح تحت شاربه الأشعث عرية شفتيه الورديتين، كان ذلك غير محتمل: ولحسنَ الحظ كانت نظارته تنزلق وكنت أسرع في التقاطها. وكان يستيقظ ويرفعني بذراعيه ونقوم بتمثيل دور الحب الكبير: لم يعد ذلك ما كنت أريد. وما الذي كنت أريده؟ كنت أنسى كل شيء، وكنت أبني عشي في أعشاب لحيته الكثة. كنت أدخل المطبخ وأعلن أني أريد خضخضة السَلَطة ، وكانت صيحات وضحكات عالية: «لا يا حبيبي ليس هكذا! اضغط بيدك الصغيرة: هكذا! ساعديه يا ماري! إنه رائع». كنت طفلاً وهمياً، وكنت أمسك بسلة سلطة وهمية، وكنت أشعر بأن أفعالي تتحولّ إلى إشارات. وكانت المهزلة تخفي عني العالم والناس: كنت لا أرى إلا أدواراً وأدوات، ولما كنت أخدم بتهريج مشروعات الكبار فكيف آخذ همومهم على محمل الجد؟ كنت أقبل مقاصدهم بتحمس شجاع يمنعني من مشاطرتهم نتائجها. ولما كنت غريباً عن حاجات البشر وآمالهم ومباهجهم فكنتُ أبدر ذاتي بلا انفعال لأضللهم. وكان البشر جمهوري يفصلني عنه صف من الأنوار ويلقي بي في منفى صليف لا يلبث أن يتحولّ إلى ضيق.

والأدهى أني كنتُ أتهم الكبار بأنهم يمثلون. إن الكلمات التي كانوا يوجهونها لي هي المُلبِّس؛ ولكنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بلهجة مختلفة تماماً. ثم يحدث أن يحطموا عقوداً مقدسة: وكنت أمطُّ شفتي على أجمل ما يمكن، بالطريقة التي أثق فيها كل الثقة، وكانوا يقولون لي بصوت حقيقي: «إلعب بعيداً، يا صغير، إننا نتكلم». وكنت في أحيان أخرى أشعر بأنهم يستخدمونني. وكانت أمي تصحبني إلى حديقة اللوكسمبورج، وكان خالي «إميل» المختلف مع العائلة كلها يظهر فجأة، وينظر إلى أخته نظرة حزينة ويقول لها بجفاء: «أنا لست هنا من أجلك: بل كي أرى الصغير». وكان يردف حينئذ أنني البريء الوحيد في العائلة، الوحيد الذي لم يهنه قط عن قصد ولم يدنه بناء على وشايات فاسدة. وكنت أبتسم متضايقاً من قدرتي ومن الحب الذي أشعلته في قلب هذا الرجل المُغتَم. ولكن

لا يلبث الأخ والأخت أن يتناقشا في شئونهما ويعددا شكاواهما المتبادلة؛ وكان «إميل» يحتّد على «شارل»، وكانت «آن ماري» تدافع عنه في شيء من التسليم، وكانا ينتقلان في حديثهما إلى «لويز»، وكنت أمكث بين كرسيهما الحديدين منسياً وعلى استعداد لأن أقبل - لو كنتُ فقط في السن التي يُسمح لي بفهمها - كل مبادئ اليمين التي يعلمها لي بسلوكه رجل مسن من اليسار وهي: أن الحقيقة والخرافة شيء واحد وأنه - يجب أن نمثل الهوى لنشعر به وأن الإنسان كائن متكلّف. لقد أقنعوني باننا خلقنا لكي نمثّل على أنفسنا؛ إنني أقبل التمثيل ولكن أطالب بأن أكون الشخصية الرئيسية: ولكن في لحظات سريعة كانت تتركني محطماً. كنت ألاحظ أنني أمثل «دوراً جميلاً زائفاً» بنص وبحضور وفير، ولكن بدون مسرح «لي»؛ وبالاختصار كان دوري في الحوار صغيراً بالنسبة لدور الكبار. وكان «شارل» يطريني ليتملق موته؛ وفي احتدادي كانت «لويز» تجد تبريراً لإظهار استيائها؛ وكانت «آن ماري» تجد تبريراً لخضوعها. ومع ذلك، فلولاي لقام أهل أمي بإيوائها ولأسلمتها رقتها لمامي بلا حماية، وبدوني لأظهرت «لويز» استياءها، ولأبدى «شارل» إعجابه بجبل سرفان[1] أو بالنيازك أو بأولاد الآخرين. كنت السبب العرضي لاختلافاتهم ولمصالحاتهم، كانت الأسباب العميقة في مكان آخر في ماكون وجنسباخ وتيڤيبيه، في قلب عجوز موحل في ماض يعود إلى ما قبل مولدي بوقت طويل. كنت أعكس لهم وحدة العائلة ومتناقضاتها القديمة؛ وكانوا يستخدمون طفولتي البريئة كي يصبحوا ما كانوه. عشت في القلق: في الوقت الذي كانت احتفالاتهم تقنعني بأن لا شيء يوجد بلا سبب وأن لكل إنسان، من الأكبر إلى الأصغر مكانه المعلوم في الكون، أما سبب وجودي أنا فكان يتوارى، لقد اكتشفت فجأة أنني لا أدخل في الحساب وأخجل من وجودي الشاذ في هذا العالم المنظم.

لو كان لي أب لأثقلني بعناده الدائم؛ وجعل من أمزجته مبادئ ومن جهله علمي ومن ضغائنه كبريائي ومن عاداته المستهجنة قانوني ولسكن فيَّ؛ لو هذا المستأجر المحترم قد أعطاني احترامي لنفسي. ولأسست على الاحترام حقي في الحياة. ولقرر من وهبني الحياة مستقبلي: ولو كنت مهندساً بالولادة لنعمت بالأ مدى الحياة. ولكن لو فرض وعرف «جان باتيست سارتر» مصيري لحمل سرّه معه، إن أمي تذكر فقط أنه قال: «إن ابني لن يدخل البحرية» ولعدم وجود معلومات أدق، لم يكن أحد يعرف ابتداءً مني ما الذي جئت أفعله على الأرض. لو كان ترك لي مالاً لتغيّرت طفولتي، لما كنت كتبت، لأنني كنت سأصبح إنساناً آخر. إن الحقول والمنزل تعكس للوارث الشاب صورة ثابتة عن نفسه. إنه يلمس نفسه على حصبائه وعلى زجاج شرفته ذي الشكل المعيّن ويجعل من سكونها الجوهر الخالد لنفسه. فمنذ بضعة أيام سمعت وأنا في المطعم أن صاحبه، وهو طفل في السابعة من عمره، يصيح في أمينة الخزينة: «حين لا يكون والدي هنا أكون أنا السيد».

(١) أحد جبال الألب (المترجم).

ذاك هو رجل! فعندما كنت في سنه لم أكن سيِّد أحد ولم أكن أملك شيئاً . في لحظات طيشي النادرة كانت أمي تهمس لي: «انتبه! إننا لسنا في منزلنا!» ، ولم نكن قط في منزلنا: لا في شارع «لوجوف» ولا بعد ذلك، حين تزوجت أمي للمرة الثانية. لم أتألم لذلك لأنهم كانوا يعطونني كل شيء، ولكن ظللت عويص الفهم. إن أموال هذا العالم تعكس للمالك ماهيته، وكانت تعلّمني ما لم أكنه: لم أكن متماسكاً ولا مستدعياً، لم أكن ذلك الذي يكمل عمل والده، لم أكن ضرورياً لانتاج الصلب: وباختصار لم تكن لي روح.

لو أنني عشت في وفاق مع جسمي لكان ذلك عظيماً. ولكني كنت أؤلف معه زوجاً غريباً. ففي البؤس لا يسأل الطفل نفسه: إن حالته التي ابتليت جسمانياً بالحاجات والأمراض، هذه الحاجة التي لا مبرر لها تبرر وجوده، إنها الجوع، إنها خطر الموت الدائم اللذان يؤسسان حقه في الحياة: إنه يعيش كي لا يموت. أما أنا، فلم أكن غنياً بما فيه الكفاية لأعتقد أنني موعود ولا فقيراً بما فيه الكفاية لأشعر بشهواتي كأنها احتياجات. كنت أؤدي واجباتي الغذائية وكان الله يرسل لي في بعض الأحيان - نادراً - هذه النعمة التي تسمح لي بالأكل دون تقزز - ألا وهي الشهية. وكنت أتنفس وأهضم وأخرج بلا مبالاة، وأعيش لأني بدأت الحياة. وكنت أجهل عنف مطالب جسدي المتوحشة: هذا الجسد الذي كان يعرِّف نفسه بسلسة من الاضطرابات الخفيفة التي تسترعي كثيراً اهتمام الكبار. ففي ذلك العهد وجب أن يكون في العائلة الكريمة طفل واحد رقيق على الأقل. وكنت ذلك الطفل فقد فكرتُ في الموت عند مولدي. وكانوا يراقبونني ويقيسون نبضي وحرارتي، ويضطرونني إلى إخراج لساني: ألا ترى أنه شاحب بعض الشيء؟ «إنه الضوء.» «أؤكد لك أنه نحل!». «ولكننا وزناه أمس يا أبي». كنت أشعر وأنا تحت النظرات الفاحصة، بأنني أصبحت شيئاً، أصبحت زهرة في أصيص. وكان الأمر ينتهي بوضعي. وكنت أختنق من الحرارة وأحترق تحت الأغطية فأخلط بين جسمي واضطرابه: فلا أعود أعرف أيهما غير المرغوب فيه.

كان السيد سيمونو مساعد جدي يتناول الغداء معنا يوم الخميس. وكنت أحسد هذا الخمسيني بخديه اللتين تشبهان خدود البنات. كان يلمّع شاربه ويصبغ شعره: وحين كانت «ماري» تسأله، لتطيل الحديث، إن كان يحب «باخ» ويعجب بالبحر والجبل، وإن كان يحتفظ بذكرى طيبة عن مسقط رأسه، كان يفكر طويلاً ويوجه نظرته الداخلية إلى كتلة ميوله الجرانيتية. وحين كان يصل إلى البيان المطلوب كان ينهيه إلى أمي بصوت موضوعي وهو يومئ محيياً برأسه. يا له من رجل سعيد! لقد تصورته يستيقظ كل صباح في حبور ويحصي، من أحد المواقع العالية، شعبه وقممه ووديانه ثم يتمطأ بتلذذ وهو يقول: «ها أنا ذا حقاً: أنا السيد سيمونو بكليته» بيد أني كنت قادراً، حينما أسأل، على الإدلاء بأشيائي المفضلة لا بل وتأكيدها، ولكن، وحيداً كنت أنساها: ولما كنت غير متثبت منها، كان لابد من الإمساك بها ودفعها وأن أنفث فيها الحياة؛ حتى أني لم أكن متأكداً بعد من تفضيلي لحم فتيلة الثور على لحم العجل المشوي. كنت على استعداد لأن

أعطي الكثير في مقابل أن يضعوا فيّ منظراً طبيعياً قلقاً، ومعاندات منتصبة كصخور البحر العالية. وعندما كانت السيدة بيكار تقول عن جدي مستخدمة بحصافة مفردات اللغة المطابقة لذوق العصر: «إن شارل لكائن جذّاب»، أو «أننا لا نعرف الكائنات» كنت أشعر بإدانتي بلا نقص. إن حصى حديقة اللوكسمبورج والسيد سيمونو وأشجار الكستناء وكاريلمامي هم كائنات، أما أنا فلا. فلم يكن لدي لا الجمود ولا العمق ولا المناعة. كنت لا شيء: شفافية لا تنمحي. ولم يعد لغيرتي حدود يوم علمت أن السيد سيمونو، هذا التمثال، هذه الكتلة الحجرية الواحدة، كان فوق ذلك ضرورياً للكون.

كان ثمة عيد. وفي معهد اللغات الحيّة، كان الجمع يصفق تحت اللهب المتحرك لمصباح أور[1] الغازي. وكانت أمي تعزف موسيقى «شوبان» والجميع يتحدثون بالفرنسية بناء على أمر جدي. فرنسية بطيئة تخرج من الحلق وبطلاقة ذابلة وبأبهة لحن موسيقي ديني حزين وكنت أطير من يد إلى يد دون أن ألمس الأرض، وأختنق على صدر روائية ألمانية حين أسقط جدي من عليائه حكماً أثّر فيّ: «إن شخصاً ينقصنا هنا. إنه سيمونو». لقد أفلتُّ من بين ذراعي الروائية والتجأتُ إلى ركن، واختفى المدعوون. وفي وسط حلقة مضطربة رأيت عموداً. إنه السيد سيمونو بذاته، وقد غاب بلحمه وعظمه. لقد غيّر هذا الغياب العجيب هيئته. كان عدد الغائبين كبيراً ليكتمل عدد من في المعهد. كان بعض التلاميذ مرضى في حين اعتذر آخرون؛ لكن الأمر هنا لا يتعلق إلا بأحداث عارضة يمكن التغاضي عنها. فالسيد سيمونو هو وحده الغائب. إن مجرد لفظ اسمه كان كافياً لينغرس الفراغ كسكين في هذه القاعة الغاصة بالناس. لقد تعجبت من أن يخلى مكان لانسان. ومكانه هو العدم الذي حفره الانتظار العام، بطن لا مرئي بدا فجأة أنه يمكن معاودة الولادة منه. ومع ذلك، فلو أنه خرج من الأرض، وسط الهتافات وحتى لو أن النساء ألقين بأنفسهن على يده ليقبلنها، لأفقت من سكرتي: إن الوجود الجسدي يعتبر شيئاً زائداً على الدوام. ولما كان بكراً تحوّل إلى طهارة جوهر سلبي فقد احتفظ بشفافة الماس غير القابلة للضغط، ولما كان من نصيبي أن أكون في كل لحظة موجوداً بين بعض الأشخاص، في مكان ما من الأرض وأن أعرف أنني زائد عليها، أردتُ أن أُشعِر سائر الناس في كل الأمكنة بحاجتهم لي إلى مثل حاجتهم إلى الماء والخبز والهواء.

لقد عادت هذه الأمنية كل يوم على شفتي. كان «شارل شفايتزر» يضع الضرورة في كل مكان ليغطي حزناً لم أتبينه قط، طالما كان على قيد الحياة وقد بدأت الآن أن أكشفه. كان كل زملائه يحملون السماء. وكانوا يُحسبون في عداد أطالسة[2] النحويين وفقهاء اللغة وعلمائها والسيد «ليون كاين» ومدير «المجلة التربوية». كان يتحدث عنهم

(١) اسم مخترع هذا النوع من الاضاءة وهو كيميائي نمساوي (المترجم).

(٢) إله اغريقي حكم عليه الإله زوس بأن يحمل على كتفيه قبة السماء (المترجم).

بوقار ليحثنا على تقدير أهميتهم: «إن ليون كاين يعرف مادته. إن المعهد مكانه»، أو كذلك: «إن الشيخوخة تزحف على شورر؛ آمل ألا يرتكبوا حماقة إحالته على المعاش: «إن الكلية لا تعرف ما سوف تفقد». ولما كنت محاطاً بشيوخ لا يستطيع أحد أن يحل محلهم، ولما كانت وفاتهم القريبة ستغمر أوروبا حزناً وربما أردتها في البربرية، كنت أعطيت الكثير لأسمع صوتاً أسطورياً يحمل حكماً إلى قلبي يقول: «إن هذا السارتر الصغير يعرف مادته، وإن توفي، فإن فرنسا لن تعرف ماذا تفقد!» إن الطفولة البورجوازية تعيش في أزلية اللحظة، أي في الجمود: كنت أريد أن أكون أطلس في الحال، وعلى الدوام ومنذ القدم، وكذلك لم أكن أفهم أن في استطاعة المرء أن يعمل ليصبح أطلساً؛ كان لابد لي من محكمة عليا، من مرسوم يعيد إليَّ حقوقي. ولكن أين القضاة؟ إن قضاتي الطبيعيين فقدوا اعتبارهم بتمثيلهم الرديء؛ لقد قمت بردهم، ولكني لا أجد غيرهم.

ولما كنت حشرة طفيلية مشدوهة، بلا إيمان وبلا قانون وبلا عقل ولا مصير، فقد هربت إلى المهزلة العائلية فأدور وأجري وأطير من خدعة إلى خدعة. كنت أهرب من جسمي الذي لا مبرر له ومن نجواه الضعيفة؛ ومثل النحلة التي تصطدم بعقبة فتتوقف، فإن الممثل الصغير الشارد كان يسقط في الذهول الحيواني. وقالت بعض الصديقات الطيبات لأمي إنني حزين وانهن فاجأنني وأنا أحلم، فضمتني أمي إليها وهي تضحك وقالت لي: أنت المرح الذي يغنِّي دوماً إلى هذا الحد! ممَ تشكو ؟ فلديك كل ما تريد». وكانت على حق: فالطفل المدلل لا يكون حزيناً، إنه يضَجر كالملك. كالكلب.

أنا كلب: إني أتثاءب، والدموع تسيل، وأشعر بها وهي تسيل. أنا شجرة والريح تتعلق بأغصاني وتهزها بغموض. أنا ذبابة، أتسلق زجاج النافذة وأتدحرج وأعاود التسلق وأشعر أحياناً بملامسة الزمن الذي يمضي، وأشعر أحياناً أخرى – وهي الأكثر – بأنه لا يمضي. إن دقائق مرتجفة تسقط وتبتلعني ولا تكف عن الاحتضار، ويتم كنسها حين تركد على الرغم من أنها لا تزال حيَّة. وتحل محلها دقائق أخرى أكثر جدة ولكنها فارغة مثلها؛ إن هذه التقززات اسمها السعادة؛ وأمي تعيد وتكرر عليَّ أنني أسعد الصبية. كيف لا أصدقها وهي تقول الحق؟ إني لا أفكر قط في عزلتي، إذ لا توجد أولاً كلمة لتسميتها، ثم إني لا أراها: فهم لا يكفون عن الإحاطة بي. إنها لُحمة حياتي ونسيج أفراحي ولحم أفكاري.

لقد رأيت الموت. كان يترصدني وأنا في الخامسة؛ وفي المساء كان يطوف على الشرفة ويلصق خطمه على الزجاج، كنت أراه ولكني لم أكن أجرؤ على الكلام. وقابلناه مرة عند «كي ڤولتير[1]». كان سيدة عجوزاً طويلة القامة ومجنونة ترتدي ملابس سوداء، وهمهمت حين مرّت بي: «هذا الطفل سأضعه في جيبي». اتخذ الموت، مرة أخرى شكل حفرة: كان ذلك في أركشون، وكان كارليمامي وأمي يزورون السيدة دوبون وابنها جبرييل

(١) شارع في باريس يحاذي نهر السين (المترجم).

المؤلف الموسيقي. كنت ألعب في حديقة الفيلا، وأنا في خوف لأنهم كانوا قد قالوا لي إن جبرييل مريض وإنه سيموت. وقلدت الحصان، بدون حماس، وجلت حول المنزل. وفجأة لمحت حفرة ظلمات: كان القبو مفتوحاً، ولا أعرف تماماً أي عزلة وهول واضحين أعشيا بصري. وبحركة «خلفادُر» هربت وأنا أغني بأعلى صوتي. كنت، في تلك الحقبة، على موعد معه في سريري، كل ليلة. وكان طقساً من الطقوس: كان عليَّ أن أنام على الجهة اليسرى وأنفي مُتّجه إلى الحائط. كنت أنتظر وجسمي كله يرتعش ويظهر لي، هيكل عظمي تقليدي بمنجل، ويأذن لي حينئذ أن أتقلب على الجهة اليمنى، وكان يذهب وكنت أستطيع أن أنام هادئاً. وفي النهار كنت أعرفه وهو متنكر بملابس مختلفة تمام الاختلاف: وإن حدث وغنّت أمي أغنية «ملك الأولن» كنت أسد أذني، ولأنني قرأت «السكير وامرأته» فقد مكثت ستة أشهر دون أن أفتح «أمثولات لافونتين». ولكن هذا الصعلوك لم يكن يبالي به؛ إنه يختفي في قصة ميريميه «فينوس إيل» وينتظر أن أقرأها لينقض عليّ. إن الجنازات والمقابر لا تقلقني؛ وحوالي ذلك الوقت مرضت جدتي لأبي وماتت، ووصلنا أنا وأمي إلى «تيفيبيه» وقد استُدعينا ببرقية، وكانت لا تزال حية. وفضّلوا إبعادي عن المكان الذي كان فيه هذا الوجود الطويل التعس قد انتهى من التخلص من نفسه؛ واهتم بعض الأصدقاء بي فآووني، وليشغلوني أعطوني ألعاباً مناسبة، ألعاباً تعليمية مفعمة بحزن ممل. ولعبت وقرأت واجتهدت في التظاهر بالتأمل المثالي، ولكني لم أشعر بشيء. وكذلك لم أشعر بشيء حين سرنا خلف عربة الموتى إلى المقابر . كان الموت يلمع بغيابه: فالوفاة ليست هي الموت، ولم أستقبح تحوّل هذه العجوز إلى بلاطة جنائزية، كان في هذه الوفاة تحوّل ووصول إلى الوجود، وبالاختصار كان كل شيء يحدث كما لو كنت تحوّلت بأبهة إلى السيد سيمونو. ولهذا السبب، أحببت دائماً، ولا أزال أحب المقابر الإيطالية: فالحجر فيها حزين، إنه إنسان كامل غريب يُرصّع بنوط يحيط بصورة شمسية تذكّر بالمرحوم في حالته الأولى. وحين كنت في السابعة من عمري كنت ألتقي بالموت الحقيقي، بالزميل في كل مكان، ولكن لم ألتق به هنا قط. ما هو الموت إذاً؟ كان شخصاً وتهديداً. كان الشخص مجنوناً، أما التهديد فها هو ذا: أفواه مظلمة يمكن أن تنفتح في كل مكان، في رابعة النهار، تحت أسطع شمس، وتلتهمني وكان للأشياء ظهر فظيع. وحين نفقد صوابنا، كنّا نراه، فالموت هو التطرف في الجنون والغرق فيه. لقد عشت في رعب، كان مرضاً عصبياً حقيقياً. وإن بحثت عن سببه تبيّن لي ما يأتي: لما كنت طفلاً مدللاً، هبة العناية، كان عمق عدم فائدتي يشتد وضوحاً طالما بدت لي الطقوس العائلية ذات ضرورة مصطنعة. كنت أشعر بأني زائد عن الحاجة ولابد لي أن أختفي، كنتُ تفتحاً باهتاً وقد أقيمت عليّ دوماً دعوى الإلغاء. وبمعنى آخر، كنت محكوماً عليّ، وكان في استطاعتهم تنفيذ الحكم من لحظة إلى أخرى. ولكني كنت أرفضه بكل قواي، لا لأن وجودي كان عزيزاً عليّ، ولكن لأني لم أكن أحفل به: فالحياة أكثر لا معقولية والموت أقل احتمالاً.

لكأن الله قد خفف عني الألم: ولكنتُ أصبحتُ تحفة موقعاً عليها[1]، ولما كنتُ متأكداً من أني أملأ مكاني في المجتمع العالمي، فقد انتظرت في صبر أن يُكشف لي عن مقاصده وضرورتي. كنت أستشعر بالدين وكان موضع أملي لأنه الدواء. ولو أنهم رفضوا إعطائي إياه لقمت باختراعه وبنفسي. ولكنهم لم يرفضوا: ولما كنت تربيت على الإيمان الكاثوليكي فقد تعلمت أن القادر على كل شيء قد خلقني لمجده: كانا ذلك أكثر مما كنت أجرؤ على أن أحلم به. ولكن، فيما بعد، لم أتعرف في الله الأنيق إياه على الذي كانت تنتظره روحي: كنت في حاجة إلى خالق فأعطوني رب عمل كبير، وكان كلاهما واحداً الأمر الذي كنت أجهله؛ كنت أخدم بلا حرارة الوثن المتظاهر بالتقوى وجعلني الدين الرسمي أكره البحث عن إيماني الحقيقي. يا للحظ! إن الثقة والحزن جعلا من روحي أرضاً طيبة لبذر بذور السماء. ولولا سوء التفاهم هذا لكنت أصبحت راهباً. ولكن عائلتي كانت قد مُسّت بحركة الإلحاد التي ظهرت عند البورجوازية الڤولتيرية العليا والتي استغرقت قرناً لتشمل كل طبقات المجتمع، ولولا هذا الضعف العام في الإيمان لزاد صدوف «لويز جيمان»، الآنسة الكاثوليكية، التي تعيش في الأقاليم، عن الزواج بأحد أتباع لوثر[2]. وبالطبع كان جميع أفراد العائلة مؤمنين ولكن عن حذر. وبعد سبع أو ثماني سنوات من وزارة كومب[3]. كان الكفر المعلن يلزم العنف ووقاحة الانفعال، وكان الكافر يُعتبر شاذاً ومجنوناً ولا يدعى إلى العشاء مخافة أن يتفوّه بكلمة «خارجة»، كان يُعتبر متعصباً، مثقلاً بعبارات التحريم، وهو يرفض حق الركوع في الكنائس وتزويج بناته فيها والبكاء بلذة ويفرض على نفسه إثبات حقيقة دينه بطهارة أخلاقه، وهو يثور على نفسه وعلى سعادته إلى حد أنه يجرد نفسه من الوسيلة التي تجعله يموت متعزياً، إنه مهووس بالله يشاهد غيابه في كل مكان، ولا يستطيع أن يفتح فاهاً دون أن يلفظ اسمه، وبالاختصار هو سيِّد يملك براهين دينية مقنعة. ولم تكن للمؤمن هذه البراهين: فمنذ ألفي سنة كان لدى اليقين المسيحي الوقت الذي يثبتُ فيه قيمته وكان هذا اليقين ملكاً للجميع، كان يُطلب إليه أن يلمع في نظرة قسيس، في ضوء الكنيسة الخافت وأن يضيئ النفوس، ولكن لا أحداً كان في حاجة إلى أخذه لحسابه، لقد كان تراثاً مشتركاً. إن المجتمع الصالح كان يؤمن بالله كي لا يتكلم عنه، وكم كان الدين يبدو متسامحاً وكم كان مريحاً: كان في استطاعة المسيحي ألا يرضى بالقُداس وأن يزوج أولاده زواجاً دينياً وأن يبتسم للتقوى الزائدة عن حدها في كنيسة سان سولبيس وأن يذرف الدمع وهو يصغي إلى «نشيد الزفاف» للوهنجرين؛ لم يكن يُطلب منه أن يحيي حياة مثالية ولا أن يموت من اليأس، لا بل ولا يطالب بحرق جثته. وفي وسطنا وفي أسرتنا لم يكن الإيمان سوى اسم استعراضي للحرية

---

(١) أي تحفة ذات قيمة (المترجم). (٢) هو مارتان لوثر الذي أنشأ المذهب البروتستانتي (المترجم).

(٣) هو إميل كومب، تولى رئاسة الوزارة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ ونادى بفصل الدين عن الدولة (المترجم).

الفرنسية الحلوة، لقد عمدوني كما عُمِّد كثيرون غيري، ليحافظوا على استقلالي: فبرفضهم تعميدي كانوا يخشون أن يغضبوا روحي، وبتسجيلي كاثوليكياً كنت حراً وكنت عادياً كانوا يقولون: «ليفعل ما يشاء بعد ذلك». كانوا يرون في ذلك الوقت أن ربح الإيمان أصعب بكثير من فقدانه.

كان «شارل شفايتزر» ممثلاً أكثر مما يجب بحيث لا يحتاج إلى متفرج كبير. ولكنه قلّما كان يفكر في الله في الأوقات الحرجة؛ ولما كان على ثقة من الالتقاء به ساعة الموت فكان يبعده عن حياته. وفي حياته الخاصة. وإخلاصاً لإقليمَينا[1] اللذين فقدناهما ولكي يبتهج كل البهجة أعداء البابوية، إخوانه، لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يسخر من الكاثوليكية: إن أحاديثه على المائدة كانت شبيهة بأحاديث لوثر. وعن «لورد»[2]، لم يكن معينه ينضب: لقد رأت برناديت[3] «امرأة طيبة كانت تقوم بتغيير قميصها»؛ لقد غطّسوا مشلولاً في الحوض وحين انتشلوه «كان يرى بعينيه الاثنتين». كان يحكي قصة القديس «لابر»، المقمّل، وقصة القديسة «ماري ألاكوك» التي كانت تلتقط براز المرضى بلسانها. لقد قدمت لي هذه الأكاذيب خدمة: وكنت أميل إلى الترفع عن خيرات هذا العالم بقدر ما كنت لا أملك منها شيئاً ولوجدت بلا تعب دعوتي في إملاقي المريح؛ إن التصوف يناسب الأشخاص المعزولين والأطفال الزائد عددهم عن الحد: كي ألقي بنفسي فيه، كان يكفي أن أقدم لنفسي المشكلة من طرفها الآخر؛ كنت أعرض نفسي لخطر الوقوع فريسة للقداسة. لقد جعلني جدي أكرهها إلى الأبد: رأيتها بعينيه، وهذا الجنون القاسي جعلني أتقزز لتفاهة أعمال الخطف التي تقوم به وأرهبني باحتقاره السادي للجسد؛ إن شذوذ القديسين نادراً ما يكون له معنى كالإنجليزي الذي غطس في البحر وهو مُرتد البدلة الاسموكنج[4] وكانت جدتي تتظاهر بالغضب وهي تصغي إلى هذه القصص، وكانت تسمي زوجها كافراً، و «بروتستانتياً» وكانت تضربه ضربات خفيفة على أصابعه، ولكن سماحة ابتسامتها كانت لا تلبث أن تردني إلى صوابي؛ لم تكن تؤمن بشيء وكان شكلها وحده هو الذي يحول بينها وبين الكفر. وكانت تحرص على عدم التدخل؛ فقد كان «لها ربها» ولم تكن تطلب منه إلا أن يعزيها في السر. وكانت المناقشة تستمر في رأسي المنهك: شخص غيري أخي الأسود كان يعترض بفتور على كل بنود إيماني؛ كنت كاثوليكياً وبروتستانتياً، كنت أجمع بين روح النقد وروح الخضوع. والواقع أن ذلك كله كان يقتلني: لقد انسقت إلى عدم الإيمان، لا بسبب تنازع العقائد ولكن بسبب لا مبالاة جدي. ومع ذلك فكنت أومن: مرتدياً قميصاً وجاثياً على ركبتي فوق السرير ويدي مضمومتين، كنت أؤدي صلاتي كل يوم، ولكن تفكيري في الله كان يتناقص. كانت أمي تصحبني يوم

---

(١) يقصد اقليمي الألزاس واللورين اللذين فقدتهما فرنسا بعد أن هزمتها المانيا في حرب السبعين (المترجم). (٢) يقصد معجزات عذراء مدينة لورد الفرنسية (المترجم). (٣) الفتاة التي ظهرت لها العذراء مريم في لورد (المترجم). (٤) بدلة ترتدى في المناسبات الرسمية (المترجم).

الخميس إلى معهد الأب «ديبلدوس» لأتلقى فيه دروساً في الدين وسط أطفال لا أعرفهم. ولقد كان مجهود جدي في هذه الناحية قوياً إلى الدرجة التي جعلتني أرى القساوسة وكأنهم حيوانات غريبة؛ وعلى الرغم من كونهم كهنة دیانتي فقد كانوا بالنسبة لي أغرب من الرعاة البروتستانت بسبب جُبّتهم وبقائهم عزّاباً. كان «شارل شفايتزر» يحترم الأب ديبلدوس - «إنه رجل فاضل!» - كان يعرفه شخصياً، ولكن عداءه للكهنة كان صارخاً لدرجة جعلتني أجتاز الباب الكبير وأنا شاعر بأني أدخل أرض الأعداء. أما أنا فلم أكن أكره الكهنة: فحين يكلمونني كانوا يرسمون على وجوههم سيماء العطف، تلك الوجوه المدلكة بالروحانية، والتي يبدو عليها مظهر التلطف المندهش وتلك النظرة اللانهائية التي كنت أقدرها على الخصوص عند السيدة «بيكار» وعند غيرها من صديقات أمي الموسيقيات؛ وكان جدي هو الذي يكرههم خلالي - كما أنه أول من فكر بأن يعهد بي إلى صديقه الكاهن، ولكنه كان يتفرس بقلق وجه الكاثوليكي الصغير الذي كانوا يعيدونه إليه مساء الخميس، كان يبحث في عيني عن تقدم البابوية ولا يحرم نفسه من التهكم عليَّ. ولكن هذا الوضع المزيف لم يستمر أكثر من ستة أشهر. وذات يوم أعطيت المعلم موضوع انشاء باللغة الفرنسية عن «الآلام»؛ لقد أسعد هذا الموضوع عائلتي وقامت بتبييضه بنفسها. ولكنه لم ينل سوى الميدالية الفضية. وقد أوغلت بي هذه الصدمة في الكفر. وحال مرض انتابني والعطلة الصيفية دون عودتي إلى معهد ديبلدوس؛ وعند بداية العام الدراسي طالبت بعدم العودة إلى هذا المعهد وخلال عدة سنوات أخرى أقمت علاقات عامة مع الكليِّ القدرة؛ أما في حياتي الخاصة فقد كففت عن معاشرته. وانتابني مرة واحدة شعور بأنه موجود. ولقد لعبتُ بأعواد الثقاب وأحرقت سجادة صغيرة، وبينما كنت منهمكاً في إخفاء جريمتي رآني الله فجأة، وأحسست بنظرته داخل رأسي وعلى يدي، ودُرت مراراً في الحمام، بادياً بكل وضوح وكأنني هدف حي. لقد أنقذني الغضب: وهجت على هذا الطفل المتناهي في السماجة، وجدفت، وهمست كما يفعل جدي: «يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي» وكفَّ بعد ذلك عن النظر إليَّ.

لقد رويتُ الساعة قصة دعوة ربانية لم يُكتب لها النجاح: فقد كنتُ في حاجة إلى الله فأعطوني إياه، وقبلته دون أن أفهم أنني أبحث عنه. ولأنه لم يتأصل في قلبي، فقد عاش فيَّ بعض الوقت ثم مات. واليوم حينما يحدثونني عنه، أقول في شرود بلا أسف لشيخ وسيم يقابل عجوزاً جميلة: «منذ خمسين سنة، لولا سوء التفاهم هذا، ولولا هذا الاحتقار، ولولا الحادث الذي فصلنا بعضنا عن بعض لكان في الإمكان أن يحدث شيء بيننا».

ولكن لم يحدث شيء. ومع ذلك فإن أموري كانت تزداد سوءاً. كان جدي يتضايق من شعري الطويل ويقول لأمي: «إنه صبي وستجعلين منه بنتاً؛ إني لا أريد أن يصبح حفيدي جباناً!» وصمدت «آن ماري»؛ وإني أعتقد أنها كانت تفضل أن أكون بنتاً بحق؛ فبأي سعادة كانت قد أغدقت النعم على طفولتها الحزينة المنبعثة. ولما كانت السماء لم

تستجب لها، فقد رتبت أمرها: سوف يكون لي جنس الملائكة، جنس غير محدد ولكنه مؤنث قليلاً. ولما كانت حنونة فقد علمتني الحنان، وقد قامت عزلتي بالباقي فأبعدتني عن الألعاب العنيفة. وذات يوم - وكنتُ في السابعة - لم يستطع جدي أن يصبر: لقد أخذني من يدي معلناً أنه ذاهب بي إلى نزهة. ولكن ما أن وصلنا إلى ناصية الشارع واستدرنا حتي دفعني إلى الحلاق وهو يقول لي: «سوف نفاجئ أمك». وكنت أعشق المفاجآت، وكانت كثيرة عندنا. كتمان للسر بغرض اللهو أو عن فضيلة، وهدايا منتظرة، وكشف سر مسرحي يتبعه عناق: كانت تلك وتيرة حياتنا. وحين أستأصلوا لي الزائدة الدودية لم تقل أمي شيئاً لكارل لتكفيه مؤونة القلق الذي لم يكن يشعر به على أي حال. لقد قدم خالي «أوجست» المال: وبعودتنا خفية من أركشون أختبأنا في إحدي المستشفيات الخاصة في «كوربفوا» وبعد غد العملية، جاء «أوجست» لزيارة جدي وقال له: «سأعلن لك خبراً ساراً.» وخُدع «كارل» برسمية هذا الصوت الباش: «هل تتزوج ثانية!» فأجاب خالي ميتسماً: «لا، ولكن كل شيء سار على ما يرام». «ماذا تقصد بكل شيء؟» إلخ..إلخ. وبالاختصار كانت المفاجآت المسرحية صلاتي اليومية الصغرى. ونظرت بحسن التفات إلى شَعري المجعد وهو يتدحرج على طول الفوطة البيضاء الضاغطة على رقبتي ويسقط على الأرضية الخشب وقد فقد جلاءه بلا سبب؛ وعدت فخوراً ومقصوصاً.

وكان صراخاً لا عناقاً وأغلقت أمي باب غرفتها عليها لتبكي: لقد بادلوا بنتها الصغيرة بصبي صغير. وحدث ما هو أنكى: فطالما كان شعري المجعد يرفرف حول أذنيَّ، فإن جدائلي الجميلة سَمحَ لها أن ترفض وضوح دمامتي. وها هي ذي عيني اليمنى تدخل في الغسق. وكان لابد لها أن ترضخ للحقيقة. وبدا على جدي أنه حائر تمام الحيرة؛ لقد عهدوا إليه بأعجوبته الصغيرة، فردها ضفدعاً: وذلك يعني أجتثاث دهشاته المستقبلة من جذورها. ونظرت إليه جدتي بسخرية، ولَم تقل أكثر من: «إن كارل ليس فخوراً؛ إنه خجلان».

وتكرّمت «آن ماري» فأخفت عني سبب حزنها. ولم أعرف هذا السبب إلا حين بلغتُ الثانية عشرة من عمري، وبعنف. ولكني كنت أشعر بضيق وأنا في جلدي. فأصدقاء عائلتي كانوا يلقون عليَّ نظرات قلقة أو حائرة، كثيراً ما كنت ألمحها فجأة. إن جمهوري كان يزداد تصعباً يوماً عن يوم؛ وكان لابد أن أبذل نفسي، لقد غاليت في التأثير فأسأت التمثيل. وعرفت أهوال الممثلة التي بدأت تشيخ: وعلمت أن غيري يستطيع أن يكون موضع رضى. إني أحتفظ بواقعتين حدثتا بعد ذلك بقليل ولكنهما دامغتان.

كنت في التاسعة من عمري، وكانت السماء تمطر، وفي قصر «نواريتابل» كنّا عشرة أطفال، عشر قطط في كيس واحد؛ وقبل جدي ليلهينا أن يكتب ويخرج تمثيلية وطنية بعشر شخصيات. ولعب برنار، أكبر الجماعة، دور الأب ستروتوف، محسن فظ. وكنت ألزاسياً شاباً: وكان والدي قد اختار فرنسا وعبرت الحدود سراً لألحق به. وقد أعدت لي حوارات شجاعة: ومددت ذراعي اليمنى وأحنيت رأسي وهمست مخفياً خدي الحبري في

تجويف كتفي: «وداعاً، وداعاً يا ألزاسنا العزيزة». وفي أثناء التجارب المسرحية كانوا يقولون إني كنت غاية في الظرف؛ الشيء الذي لم يدهشني. وتم العرض في الحديقة؛ وكان يحد المسرح مجموعة من شجيرات المضاض وجدار القصر، وأجلس الآباء والأمهات على كراسٍ من الخيزران. وكان الأطفال يلهون كالمجانين إلا أنا. ولما كنت مقتنعاً بأن مصير التمثيلية في يدي، فقد أجتهدت في أن أرضي، متفانياً للقضية المشتركة، وكنت أعتقد أن العيون كلها مثبتة عليّ. وقد بالغت، وحاز برنار رضى الحضور لأنه كان أقل تصنعاً مني. هل فهمت ذلك؟ وفي آخر العرض أخذ يجمع المديح: وتسللت خلفه وشددت لحيته فظلت في يدي. كان ذلك مزاحاً بين نجوم مسرح من أجل الاضحاك فقط؛ وكنت أشعر بنفسي أني غاية في الظرف وأخذت أقفز بقدمي على الأخرى ملوحاً بغنيمتي. ولم يضحك أحد. وسحبتني أمي من يدي وأبعدتني بشدة: سألتني حزينة: «ما الذي دهاك؟ هل اللحية جميلة إلى هذه الحد! لقد اندهش الجميع من هذه الرعونة». ولحقت بنا جدتي تحمل آخر الأخبار: لقد عزتها أم برنار إلى الغيرة: «أترى ما الذي ربحته من إظهار نفسك!» وهربت، وجريت إلى غرفتنا، ووقفت أمام الخزانة ذات المرآة وأخذت أقطّب وجهي طويلاً.

كان من رأي السيدة بيكار أن الطفل يستطيع أن يقرأ كل شيء: إن الكتاب لا يضر قط حين يكون مكتوباً كتابة جيدة». وكنت في حضورها قد طلبت فيما مضى الإذن بأن أقرأ «مدام بوڤاري» وقالت أمي بصوتها الموسيقى المفرط «لو أن ابني العزيز قرأ هذا النوع من الكتب في هذه السن فما الذي سوف يقرؤه عندما يكبر؟» - «لسوف أعيش هذه الكتب!» وعرفت هذه الإجابة أصرح نجاح وأطوله، وكانت السيدة بيكار تلمح إليها كلما جاءت تزورنا، وكانت أمي تصيح مؤنبة معجبة: «بلانش! أرجو أن تسكتي، لسوف تفسدينه!» كنت أحب وأكره هذه المرأة العجوز الكالحة السمينة وكنت أعدها خير جمهور لي؛ وحين كنتُ أعلم بقدمها، كنت أشعر بعبقريتي، وأحلم أنها فقدت تنورتها وأني أرى ردفيها، الشيء الذي كان نوعاً من تقديم الاحترام لروحها. وفي نوفمبر ١٩١٥ أهدتني دفتراً من الجلد الأحمر، مذهب الحوافي. وكنا جالسين في مكتب جدي أثناء غيابه، وكانت النساء يتكلمن بحيوية ولكن بصوت أكثر انخفاضاً مما كان في سنة ١٩١٤، وذلك بسبب الحرب. إن ضباباً قذراً أصفر كان ملتصقاً بالنوافذ، كانت تفوح رائحة الطباق البارد. وفتحت الدفتر الصغير، وخاب ظني في البداية: فقد كنت أتوقع رواية أو قصصاً؛ وعلى وريقات متعددة الألوان قرأت عشرين مرة مجموعة من الأسئلة ذاتها. قالت لي: «املأ إحدى هذه الوريقات واجعل أصدقاءك الصغار يملأون الوريقات الأخرى، فسوف تعد لنفسك ذكريات حلوة». وفهمت أن المعروض عليّ فرصة أن أكون مدهشاً. وصممت على الإجابة في الحال، وجلست إلى مكتب جدي ووضعت الدفتر على ورقة نشاف سميكة، وأخذت مقبض ريشته المصنوع من الغاب وغمستها في زجاجة الحبر الأحمر، وأخذت أكتب في حين كان الكبار يتبادلون نظرات تنم عن سرورهم. وبقفزة حَطّتْ أعلى من روحي

لأصطاد «الإجابات التي هي أكبر من سني». ولكن مجموعة الأسئلة لم تكن تساعد على ذلك مع الأسف. كانوا يسألونني عمّا أحب وأكره: وعن اللون الذي أفضله وعطري المُفضّل؟ كنت أخترع بلا حماس أشياء مفضلة، حين حانت فرصة التألق: «ما أغلى أمنياتك؟» وأجبت دون تردد: «أن أكون جندياً وأن أثأر للموتى». ولما كنتُ منفعلاً أكثر مما يجب لأستطيع أن أستمر في الإجابة فقد قفزت إلى الأرض وحملت عملي إلى الكبار. وشُحذت الأنظار، وأحكمت السيدة بيكار وضع نظارتها وانحنت أمي على كتفها؛ ومطت كلتاهما شفتيها بخبث، وارتفع الرأسان معاً، وتوردت وجنتا أمي، وأعادت السيدة بيكار الدفتر إليَّ: «أتعلم يا صديقي الصغير، إن ذلك لا يكون جديراً بالاهتمام إلا إذا كان صادقاً؟» وخلتُ أني أموت. إن خطأي ظاهر للعيان، وكانوا يطالبون بالطفل المعجزة فكنت الطفل السامي. ولسوء الحظ لم يكن لهؤلاء السيدات أحد على جبهة القتال: فغدا السمو العسكري بلا أثر على أرواحهن المعتدلة. واختفيت ورُحتُ أقطب وجهي أمام مرآة. وعندما أتذكر هذه «التقطيبات» اليوم، أفهم أنها كانت تؤمّن حمايتي من انطلاقات الخجل الشديدة، كنت أدافع عن نفسي بحصار عضلي. ثم بتحميلها مصيبتي إلى أقصى حدها - كانت تخلصني منها. كنت أندفع إلى التواضع لأتفادى المهانة، وكنت أخلع عن نفسي وسائل الفوز بإعجاب الناس لأنسى أني كنت أملكها وأسأت استخدامها، وكانت المرآة عوناً كبيراً لي: كنت أكلفها بأن تخبرني بأني مسخ كبير، فإن نجحت في ذلك كان ندمي الكبير يتحوّل إلى شفقة، ولكن، وعلى الأخص، لما كان الفشل قد كشف لي مذلتي، كنت أبشّع نفسي لأجعل هذه المذلة مستحيلة ولأنكر الناس ولينكروني. إن ملهاة الشر كانت تُمثّل ضد ملهاة الخير؛ وقد أخذ «الياسان[1]» دور «كوازيمودو[2]». وبتنسيق بين الالتواء والتغضين كنت أفك وجهي: كنت أسكب عليه الحمض الكاوي لأمسح ابتساماتي القديمة.

كان الدواء أسوأ من الداء: فمن المجد والعار، حاولت أن ألجأ إلى حقيقتي المنعزلة، ولكن لم تكن لي حقيقة، ولم أجد في نفسي إلا تفاهة دَهشة. وعلى مرأى مني كان «مدوس[3]» يصطدم بزجاج حويض الأسماك ويُقطّب باستِرخاء طوقه وينسلّ في الظلمات. هبط الليل وتشعشعت سحب من الحبر في المرآة دافنة تجسدي الأخير. ولما كنت محروماً مما يثبت براءتي فقد استرخيت على نفسي. وفي الظلام كنت أتنبأ بتردد غير محدد، حفيف، ضربات، حيوان حي بأكمله، الأكثر إرعاباً والوحيد الذي لا أستطيع أن أخافه. وهربت ذاهباً لاستعادة دوري في الضوء، دور الملاك فاقد الرونق. وعبثاً فعلت. لقد أعلمتني المرآة ما كنت أعرفه دائماً: كنت طبيعياً بشدة. ولم أبرأ من ذلك أبداً.

---

(١) ملك يهودا الثامن عشر، الأخ البكر لجواشاز وخليفته، عاش بين ٦٠٩ و ٥٩٧ قبل الميلاد.

(٢) إحدى شخصيات رواية «أحدب نوتردام» للأديب الفرنسي فيكتور هوجو. كان كوازيمودو يدق أجراس كنيسة نوتردام. وكان على الرغم من دمامته، ذا أحاسيس سامية (المترجم).

(٣) حيوان هلامي بحري يضئ بالليل.

ولما كنت معبوداً من الجميع، فقد كنت شخصاً غير مرغوب فيه، ولم يكن لي من معين وأنا في السابعة سواي، هذا الشخص الذي لم يكن موجوداً بعد، قصر من مرايا مهجور كان مطلع القرن ينظر فيها إلى ضجره، ولم أكن أعرف حتى ذاك الوقت إلا غرور كلب الصالونات، ولما كنتُ مدفوعاً إلى الكبرياء فقد أصبحتُ المتكبر. ولأن أحداً من الناس لم يطالب بي بجدية، فقد رفعت ادعائي إلى حد الاعتقاد بأنني ضروري للكون. فأي شيء أروع من ذلك؟ وأي شيء أغبى؟ حقيقة لم يكن لي حرية الاختيار. ولما كنت مسافراً متسللاً فقد نمت على المقعد وهزني المفتش قائلاً لي: «تذكرتك!» وكان لا مفر لي أن أعترف بأني لا أحمل تذكرة، ولا نقوداً لأدفع في الحال أجر الرحلة. وبدأت أترافع على أساس الاعتراف بالجريمة: كنت نسيت في بيتي بطاقتي الشخصية. لم أكن أتذكر كيف غافلت العامل المكلف بثقب التذاكر، ولكني اعترفت بأني دخلت العربة بالخداع. ولم أعترض على سلطة المفتش، بل أعلنتُ جهاراً احترامي لوظيفته وخضوعي مقدماً لقراره. وعند هذا الحد الأقصى من التذلل، لم أكن أستطيع أن أنقذ نفسي إلا بقلب الوضع : فقد أعلنت أن أسباباً مهمة وسرية استدعتني إلى ديجون، وهذه الأسباب تهم فرنسا وربما الإنسانية كلها. وإن أخذت المسائل من هذه الزاوية الجديدة، فلن يكون هناك شخص في كل القطار له الحق في شغل مكان فيه بقدر حقي. وبالطبع فإننا بصدد قانون أعلى يخالف القاعدة ولكن، لو أخذ المفتش على مسئوليته قطع رحلتي، لتسبب في تعقيدات خطيرة تقع نتائجها على رأسه؛ توسلتُ إليه أن يفكّر: فهل من المعقول أن نعرض البشر كلهم للفوضى بحجة المحافظة على النظام في قطار؟ تلك هي الكبرياء: مرافقة التعساء. إن للمسافرين حاملي التذاكر وحدهم الحق في أن يكونوا متواضعين. لم أكن أعرف أبداً إن كنت قد ربحت دعواي. فقد لزم المفتش الصمت؛ وكررت الشرح عليه، وطالما كنت أتكلم، كنت واثقاً من أنه لن يجبرني على النزول وجلسنا الواحد في مواجهة الآخر، أحدنا صامت والآخر لا ينضب معينه، في القطار الذي ينقلنا إلى ديجون. فقد كنت القطار والمفتش والمذنب: كنت كذلك شخصاً رابعاً وهذا الشخص – وهو المنظم – لم تكن لديه إلا رغبة واحدة وهي أن يخدع نفسه، ولو لدقيقة، أن ينسى أنه هو الذي أعدّ كل شيء. لقد خدمتني التمثيليات العائلية: فقد كانوا يسمونني هبة من السماء، كان ذلك مزاحاً وكنت لا أجهله، ولما كنت متخماً بالحنان، فقد كان دمعي سهلاً وقلبي قاسياً: كنت أريد أن أصبح هدية مفيدة تبحث عن الأشخاص الذين خصصت لهم، لقد قدمت نفسي لفرنسا وللعالم. كنت لا أعبأ بالناس، ولكن بما أنه لابد من المرور بهم، فإن دموع فرحهم سوف تُعلمني أن الكون يستقبلني بعرفان جميل. ولسوف يُعتقد بأني كثير الزهو؛ كلا، لقد كنت يتيم الأب. ولما لم أكن ابناً لأحد، فقد كنت سببَ نفسه، منتهى الكبرياء والتعاسة، لقد وُلدتُ بالاندفاع الذي رفعني إلى الخير. إن التسلسل يبدو واضحاً: لما كان حنان أمي قد أنّثني، ولما كان غياب موسى الفظ الذي خلّفني قد مسخني، ولما كانت عبادة جدي لي قد فتنتني، فقد كنت شيئاً خالصاً حائراً إلى أعلى مراتب المازوكية، لو أنني استطعت فقط

تصديق التمثيلية العائلية. ولكن كلا، إن هذه التمثيلية لم تكن تحركني إلا سطحياً، في حين أن القاع ظل بارداً بلا مبرر؛ لقد أرعبني هذا النظام وكرهت الإغماءات السعيدة، النسيان، هذا الجسم الذي بولغ في تدليله والعناية به، لقد عَثَرتُ على نفسي وأنا أعارضها وألقيت بنفسي في الكبرياء والسادية، أو بمعنى آخر في الكرم. وهذا الكرم، كالبخل أو العنصرية، ليس إلا بلسماً معصوراً يشفي جروحنا الداخلية وينتهي أمره بتسميمنا: ولكي أهرب من إهمال المخلوق، فقد هيأت نفسي لأكثر العزلات البورجوازية بعداً عن الشفاء: ألا وهي عزلة الخالق، ولن تخلط هذه الضربة المدوِّخة بثورة حقيقية: فالمرء يثور على الجلاد ولم يكن لي إلا محسنون. لقد ظللت شريكه مدة طويلة. ومع ذلك فهم الذين أسموني هبة العناية الإلهية: ولم أقم إلا باستخدام الأدوات التي تحت تصرفي لأغراض أخرى.

كل ذلك حدث في رأسي، ولما كنت طفلاً خيالياً، فقد دافعت عن نفسي بالخيال. وعندما أرى حياتي ثانية، من السادسة إلى التاسعة، أتعجب لاستمرار تمريناتي الروحية. لقد تغيَّرت كثيراً من حيث المحتوى لكن البرنامج لم يتغيَّر؛ كان دخولي خطأ، فانسحبت خلف حجاب وبدأت ولادتي من جديد، في الوقت المعيَّن، في الدقيقة نفسها التي كان الكون يطلبني فيها بصمت.

لم تكن قصصي الأولى سوى إعادة لقصة «العصفور الأزرق» وقصة «القطة لابسة الحذاء» وقصص «موريس بوشور» كانت تتبادل الأحاديث وحدها خلف جبهتي، بين أقواس حاجبي وتجرأت بعد ذلك فجمّلتها وأعطيت نفسي دوراً. لقد غيّرت طبيعة تلك القصص، فلم أكن أحب الجنيات، فقد كان حولي الكثير منها: وحلّت البطولات محل السحر. وأصبحت بطلاً؛ وتركت سحري؛ فلم تعد مسألة إرضاء الغير، ولكن مسألة فرض النفس. لقد تخليت عن عائلتي: إن «كارليمامي» و «آن ماري» أخرجوا من تخيلاتي. ولما كنت شبعت إشارات وأوضاعاً فقد قمت بأفعال حقيقية في الحلم. واخترعت كوناً صعباً وفانياً - كَوْن «كرى- كرى» و «المدهش» و «بول ديفوا[1] »، - ومكان الحاجة والعمل اللذين كنتُ أجهلهما وصنعت الخطر . ولم أكن في يوم من الأيام أبعد من الاعتراض على النظام القائم مما أنا عليه اليوم: ولما كنت متأكداً من أني أسكن خير العوالم، فقد أوجبت على نفسي تنظيفه من وحوشه، ولما كنتُ شرطياً ومنفذ أحكام، فقد كنت أُضحِّي في كل مساء بعصابة من قطاع الطرق. لم أخض قط حرباً وقائية ولا قمت بحملة تأديبية؛ كنت أقتل بلا لذة ولا غضب لأنتزع فتيات من الموت. إن هذه المخلوقات الضعيفة كانت ضرورية لي: كانت تطلبني. بيد أنها لم يكن في استطاعتها أن تعتمد على مساعدتي لأنها لم تكن تعرفني. ولكني كنت ألقي بها في أشد الأخطار إلى الحد الذي لا يمكن لأحد أن يخرجها منها سواي. وحين كانت الجنود الانكشارية تلوِّح بسيوفها العريضة المعقوفة كان أنين

(١) أسماء أبطال قصص الأطفال التي كان المؤلف يقرأها في مجلات الأطفال وكتبهم (المترجم).

يتردد في الصحراء وكانت الصخور تقول للرمال: «إن شخصاً ينقصنا هنا: إنه سارتر».
وفي لحظة كنت أبعد الحاجز وأطيِّر الرؤوس تحت ضربات السيف، كنت أولد في بحر من دم.
إنها سعادة من الصلب! لقد كنت في مكاني.

كنت أولد لأموت: وكانت الطفلة بعد إنقاذها ترقي في أحضان أبيها الأمير الألماني
وكنت أبتعد، إذا كان لابد أن أصبح غير ضروري من جديد أو أبحث عن سفاحين جدد.
وكنت أجدهم. ولما كنت بطل النظام القائم، فقد وضعت سبب وجودي في فوضى دائمة؛ كنت أختنق الشر في ذراعي كنت أموت موته وأبعث بعثه، لقد كنت فوضوياً يمينياً. ولم يُذع شيء من هذه الأعمال العنيفة الطيبة، فقد ظللت خدوماً وذا غيرة: فالمرء لا يفقد بسهولة عادة الفضيلة؛ ولكن، كنت أنتظر كل مساء، بفارغ صبر نهاية الهزل اليومي، كنت أجري إلى سريري، وأتلو صلاتي بسرعة وأدخل بين أغطيتي، فقد كنت متشوقاً للقاء جرأتي الجنونية، وكنت أشيخ في الظلمات، وأصبحت بالغاً وحيداً بلا أب أو أم، بلا نار ولا مكان، وأكاد أكون بلا أسم. كنت أمشي على سطح مشتعل، حاملاً على ذراعي امرأة مغمى عليها؛ وتحتي كان الجمهور يصرخ: كان واضحاً أن العمارة ستنهار. وفي هذه اللحظة أنطق بالكلمات كاشفة الغيب: «البقية في العدد القادم» - وكانت أمي تسألني «ماذا تقول؟» وكنت أجيبها بحذر: «إني أترك نفسي معلقاً». والواقع أني كنت أنام وسط الأخطار في خوف لذيذ. وفي مساء الغد، محترماً الموعد: كنت أجد سطحي والنيران وموتاً أكيداً.
وفجأة لمحت مزراباً لم أكن قد لاحظته البارحة. لقد أنقذنا يا إلهي! ولكن كيف أتعلق به دون أن أترك حملي الغالي؟ ولحسن الحظ تستعيد المرأة الشابة حواسها وأحملها على ظهري وتشبك ذراعيها حول عنقي ولكن كلا، فبعد تفكير أفقدتها وعيها من جديد: فمهما تضعف فرصتها في عملية انقاذها، فإن ذلك سيقلل من فضلي. ولحسن الحظ، كان هناك هذا الحبل عند قدمي: فربطت الضحية بمنقذها ربطاً محكماً، أما الباقي فكان أمراً بسيطاً. واحتضنني السادة - العمدة ورئيس الشرطة ورئيس المطافئ - وعانقوني وأعطوني نيشاناً وفقدت ثقتي بنفسي، فلم أعد أعرف ما أفعله بنفسي: إن عناق هذه الشخصيات الكبيرة كان يشبه كثيراً عناق جدي. ومسحت كل شيء وبدأت من جديد: كان الوقت ليلاً وفتاة تطلب النجدة وألقيت نفسي في المعركة.. «البقية في العدد القادم».
كنت أخاطر بحياتي من أجل اللحظة السامية التي تغيِّر حيواناً أوجدته الصدفة إلى أحد المارة بعثته العناية الإلهية ولكن كنت أشعر بأني لن أعيش بعد انتصاري وكنت سعيداً كل السعادة بتأجيلي هذا الانتصار إلى الغد.

ومن الغريب أن يجد المرء أحلام المغامرة هذه عند تلميذ صغير صائر إلى الاكليركية[1]؛ قلق الطفولة قلق ميتافيزيقي، ولتهدئته لا حاجة أبداً لإسالة الدماء. ألم

---

(١) الخدمة الكنسية (المترجم).

أتمنى في يوم من الأيام أن أكون طبيباً بطلاً وأن أنقذ مواطنيّ من الطاعون الرملي أو من الكوليرا؟ أعترف بأن ذلك لم يحدث قط ومع ذلك فلم أكن مفترساً ولا محارباً، وليس ذنبي أن يجعل مني هذا القرن الطالع ملحمياً. إن فرنسا المهزومة كانت تمتلئ بأبطال خياليين تضمد أعمالهم الباهرة اعتزازها بنفسها. وقبل مولدي بثماني سنوات «انفجر سيرانو دي برجيراك[1] كجوقة موسيقية نحاسية ترتدي السراويل الحمراء». وبعد قليل كان على النسر الصغير[2] الفخور، المجروح أن يظهر ليمحو عار «فاشودة[3]». وكنت، في سنة ١٩١٢ أجهل كل شيء عن هذه الشخصيات العظيمة، ولكني كنت على علاقة دائمة بخلفائها: كنت أعبد «سيرانو دى لا بجر» و «أرسين لوبان[4]»، دون أن أعلم أنه مدين بقوته الخارقة وشجاعته الساخرة وذكائه الفرنسي الأصيل لهزيمتنا في سنة ١٨٧٠. فالعدوانية وروح الأخذ بالثأر حولتا جميع الأطفال إلى منتقمين. وأصبحت منتقماً مثل الجميع: ولما كانت السخرية والمجد، هذان العيبان غير المحتملين عند المنهزمين قد أغوياني، فكنت أسخر من الأشرار قبل أن أحطمهم. ولكن الحروب كانت تضايقني، فقد كنت أحب الألمان اللطاف الذين كانوا يترددون على منزل جدي، ولم أكن أهتم إلا بالظلم الشخصي، وفي قلبي المجرد من الكراهية تحولت القوى الجماعية: فقد كنت استخدمها في تغذية بطولتي الفردية. ومهما يكن الأمر، فقد وُسمتُ، وإن كنتُ قد اقترفت في قرن من حديد الغلطة الجنونية بأن آخذ الحياة على أنها ملحَمة فذلك لأني حفيد الهزيمة. ولما كنت مادياً عن اقتناع، فإن مثاليتي الملحمية سوف تعوّض حتى موتي إهانة لم تنلني وعاراً لم أتألم منه، ألا وهما فقدان مقاطعتين عادتا إلينا منذ زمن طويل.

إن بورجوازيي القرن الماضي لم ينسوا قط أمسيتهم الأولى التي قضوها في المسرح وقد تولى كتابهم رواية ظروفها. وعندما ارتفع الستار خال الأطفال أنفسهم في البلاط الملكي. فالذهب والأقمشة الأرجوانية والأضواء والمساحيق والفخفخة والخدع كانت تضع القداسة حتى في الجريمة؛ وعلى المسرح رأوا طبقة النبلاء التي قتلها أجدادهم تُبعث حية. وفي الاستراحات كان تَدَرّج مقصورات المشاهدين يقدم لهم صورة المجتمع، لقد عرضوا عليهم في المقصورات أكتافاً عارية ونبلاء أحياء وعادوا إلى بيوتهم مشدوهين – وقد أعدوا بحيلة لأقدار عظيمة، ليصبحوا «چول فافر[5]» و «چول فري[6]» و «چول

(١) مسرحية شعرية من خمسة فصول لادمون روستان تم عرضها على المسرح سنة ١٨٩٧ (المترجم).
(٢) دراما شعرية من ستة فصول لادمون روستان تم عرضها سنة ١٩٠٠ (المترجم).
(٣) موقع في السودان على النيل بالقرب من بحر الغزال احتلته حملة فرنسية بقيادة مارشان سنة ١٨٩٨ ولكنه أضطر للانسحاب منها وتركها للانجليز بقيادة كتشنر (المترجم).
(٤) بطلا قصص بوليسية (المترجم).
(٥) محام وسياسي فرنسي، ولد في ليون ١٨٠٩ وتوفي في ١٨٨٨. أقترح في سنة ١٨٧٠ خلع نابليون الثالث عن العرش. كان عضواً في حكومة الدفاع الوطني وأشترك في المفاوضات التي سبقت معاهدة فرانكفورت (المترجم).
(٦) رجل دولة فرنسي. ولد سنة ١٨٣٢ وتوفي سنة ١٨٩٣، اشترك في إعادة تنظيم التعليم الابتدائي وتوسع فرنسا الاستعماري باحتلال تونس وتونكين وإقامة القوات الفرنسية في الكونغو. (المترجم).

جريفي[1]». إنني أتحدى معاصري في أن يذكروا لي تاريخ التقائهم الأول بالسينما. كنا ندخل ونحن نتحسس طريقنا في قرن بلا تقاليد، سوف يختلف اختلافاً كلياً عن القرون الأخرى بسوء سلوكه وبالفن الجديد، الفن الشعبي الذي جسّد لنا مقدماً بربريتنا. لقد ولد في مغارة لصوص ووضعته الإدارة الحكومية في عداد ملاهي الموالد وكانت له أساليب شعبية تصدم شعور الأشخاص الوقورين، كان تسلية النساء والأطفال، كنا نعبده أنا وأمي، ولكن قلما كنا نفكر فيه ولم نكن نتكلم عنه قط: فهل يتكلم الناس عن الخبز إن كان متوفراً؟ وعندما تنبهنا لوجوده كان قد أصبح حاجتنا الأساسية منذ وقت طويل.

وفي الأيام المطرة، كانت «آن ماري» تسألني عما أتمنى عمله، وكنا نتردد طويلاً بين السيرك والشاتليه[2] والبيت الكهربائي ومتحف جريفان[3]، وفي آخر لحظة وباهمال محسوب نقرر دخول قاعة عرض سينمائي. وكان جدي يظهر على باب مكتبه ونحن نفتح باب الشقة؛ وكان يسأل «إلى أين أنتم ذاهبون يا أولاد؟» – وكانت أمي تجيب «إلى السينما». فيقطب حاجبيه وتردف أمي بسرعة: «إلى سينما البانتيون، إنها قريبة جداً، ليس أمامنا إلا عبور شارع سوفلو». كان يتركنا نذهب وهو يهز كتفيه؛ وفي الخميس التالي كان يقول للسيد سيمونو: «قل لي يا سيمنو، أنت الرجل الرزين أتفهم هذا؟ إن ابنتي تصحب حفيدي إلى السينما» وكان السيد سيمونو يجيب بصوت ميال للتسامح: «إنني لم أذهب قط إلى السينما، ولكن زوجتي تذهب أحياناً».

وكان العرض قد بدأ. كنا نتبع العاملة المكلفة بإجلاس المشاهدين في أماكنهم ونحن نتعثر، كنت أشعر بأني أعمل في الخفاء؛ وفوق رؤوسنا كانت حزمة من الضوء الأبيض تجتاز القاعة، وكان يتراقص فيها الغبار والدخان؛ وكان بيانو يحمحم وثمار كمثرى بنفسجية تلمع على الحائط ورائحة مطهر فائحة تُمسك بخناقي. كانت رائحة هذه الليلة المسكونة وثمارها تختلط فيّ: كنت آكل «مصابيح النجدة» وأملأ نفسي بطعمها الحمضي. كنت أحك ظهري على رُكب، وكنت أجلس على مقعد له صرير، وكانت أمي تضع غطاء مطوياً تحت إليتيّ لترفعني: وأخيراً كنت أنظر إلى الشاشة، وكنت أكتشف طباشيراً متشععاً، ومناظر وامضة مخططة بوابل من الأمطار؛ وكان المطر يهطل دائماً حتى في الشمس الساطعة وحتى عند الشفق؛ ويحدث أنّ نيزكاً مشتعلاً يجتاز حجرة استقبال بارونة دون أن تبدي تعجبها. كنت أحب هذا المطر، هذا القلق الدائب الذي كان يعالج الحائط. وكان عازف البيانو يستهل افتتاحية «كهف فنجال[4]» فيفهم الجميع أن المجرم سيظهر: وجُنّت البارونة خوفاً. ولكن وجهها الجميل الفاحم كان يترك مكانه لإعلان بنفسجي مكتوب عليه: «نهاية الجزء الأول» ويأتي الضوء بمثابة التطهير الفجائي. أين كنت؟ هل كنت في مدرسة؟ هل كنت في مصلحة حكومية لم يكن هناك أية زخرفة:

---

(١) محام وسياسي فرنسي ولد في ١٨٠٧ وتوفي في ١٨٩١. رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٨٧٩ إلى ١٨٨٧ (المترجم). (٢) يقصد مسرح الشاتليه (المترجم). (٣) متحف الشمع (المترجم).
(٤) للموسيقي مندلسون الألماني ١٨٠٩ – ١٨٤٧ (المترجم).

صفوف من الكراسي بقواعد متحركة تُظْهر زنبركاتها من تحتها، وجدران مدهونة كما أتفق باللون الأصفر الباهت، وأرضية من الخشب تغطيها أعقاب السجائر والبصاق. وتمتلئ القاعة بضجيج مبهم، إنهم يخترعون اللغة من جديد، وكانت العاملة المكلفة بإجلاس المشاهدين تنادي على الملبّس الانجليزي وكانت أمي تشترى لي منه، وكنت أضعه في فمي وأمتص «مصابيح النجدة». وكان الناس يفركون عيونهم ويكتشف كل واحد منهم جيرانه. فكان هناك جنود وخادمات الحي، وشيخ بارزة عظامه يمضغ التبغ وعاملات مكشوفات الشعر يضحكن بأعلى صوت: إنّ هذا العالم كله لم يكن عالمنا؛ ولحسن الحظ ثمة قبعات كبيرة خافقة موضوعة هنا وهناك على هذه الأرضية من الرؤوس تطمئن النفس.

إن التدرج الاجتماعي للمسرح غرس في والدي رحمه الله وجدي، وقد اعتادوا الجلوس في الشرفة الثانية، حب الرسميات: وعندما يجتمع عدد كبير من الناس في مكان واحد فلابد من فصلهم بعضهم عن بعض بطقوس والا ذبحوا بعضهم بعضاً. وأثبتت السينما عكس ذلك: فإن هذا الجمهور المختلط يبدو أن كارثة جمعته بدلاً من عيد؛ وبموت قواعد الآداب انكشف أخيراً رباط الناس الحقيقي إلا وهو الالتحام. وكرهتُ الاحتفالات وعبدتُ الجماهير؛ لقد رأيت جميع أشكالها ولكن لم أر هذا العري.. هذا الحضور دون تراجع من كل فرد نحو الجميع.. هذا الحلم اليقظ.. هذا الوعي الغامض لخطر كوننا بشراً - إلا في سنة ١٩٤٠ في ستالاج[1] ١٢ د.

وتجاسرت أمي إلى حد مصاحبتي إلى دور السينما في الشارع الرئيسي: إلى «الكينيراما»، و «الفولي دراماتيك» و «الڤودڤيل» و «الجومون پالاس»، وكانت تسمى آنئذ بـ «الهيبودروم». وشاهدت «زيجومار» و «فانتوماس»، و «مغامرات ماسست» و«أسرار نيويورك»: ولكن المذهبات كانت تفسد لذتي ولم يكن الڤودڤيل - ذلك المسرح الذي تحوّل إلى سينما - يريد أن يتنازل عن عظمته السالفة. وحتى آخر دقيقة كانت ستارة حمراء بطرز ذهبية تغطي الشاشة، وكانوا يدقون ثلاث دقات للاعلان عن بداية العرض، وكانت الغرفة الموسيقية تعزف إحدى الافتتاحيات، وكان الستار يرتفع والمصابيح تنطفئ. وكانت تضايقني هذه الرسميات غير اللائقة وهذه الأبهة المعبرة اللتان لا نتيجة لهما إلاّ إبعاد الشخصيات؛ ففي الشرفة وفي أعلى المسرح، وكان آباؤنا المذهولون بالثريات وصور السقف، لا يستطيعون ولا يريدون أن يصدقوا أن المسرح ملكهم: إنهم كانوا يُستقبلون فيه، أما أنا، فكنت أريد أن أرى الفيلم من أقرب مكان ممكن. ففي عدم الراحة الذي يسوّي بين الجميع في دور السينما الموجودة في الأحياء علمتُ أن هذا الفن الجديد هو لي كما هو للجميع. كنا في العمر العقلي نفسه: كنت في السابعة وأعرف القراءة وكان[2] في الثانية عشرة ولا يعرف الكلام. كانوا يقولون إنه في أوائل عهده وإن هناك تقدماً

---

(١) اسم أطلق على المعسكرات الألمانية خلال حرب ١٩٤٠ - ١٩٤٥ حيث كان يعتقل أسرى الحرب من غير الضباط (المترجم).
(٢) يقصد الفن السينمائي (المترجم).

سوف يحققه؛ كنتُ أعتقد أننا سنكبر معاً. لم أنس طفولتنا المشتركة: فعندما يقدمون لي «ملبسة» الجليزية وعندما تقوم امرأة بالقرب مني بتلميع أظافرها وعندما استنشق – في مراحيض فندق من فنادق الأقاليم – رائحة مطهِّر، وفي قطار من قطارات الليل حين أنظر في السقف إلى السهَّارة البنفسجية – فإني أجد في عينيَّ وفي خياشيمي وعلى لساني أضواء ورائحة هذه القاعات التي اختفت. ومنذ أربع سنوات سمعت وأنا في البحر عند كهوف «فنجال» صوت بيانو يعلو وسط الريح، في جو عاصف.

ولما كانت القداسة لا تجد سبيلها إليَّ فقد عبدت السحر: فالسينما كانت ظاهرة مريبة كنت أحبها بضلال بسبب ما كان يزال ينقصها. إن هذا الجريان كان كل شيء.. ولم يكن شيئاً.. كان كل شيء وقد تحوَّل إلى عدم. كنت أحضر هذيان حائط؛ لقد خلَّصوا الجوامد من ضخامة كانت تزحمني حتى جسدي وكانت مثاليتي الشابة قد تَغَذَّت بهذا التقلُّص اللانهائي؛ وفيما بعد فإن الحركات الانتقالية للمثلثات ودورانها ذكرتني بانزلاق الأشكال على الشاشة. لقد أحببت السينما حتى هندسة السطوح. ومن الأسود والأبيض كنت أضع ألواناً سامية كانت تختصر داخلها سائر الألوان الأخرى، ولم تكن تكشف عنها إلا للمطَّلع عليها . كنت سعيداً برؤية اللامرئي. وفوق كل ذلك كنت أُحبُّ بُكْم أبطالي الذي لا علاج له. ولكن كلا: لم يكونوا بُكماً لأنهم كانوا يعرفون كيف يجعلون الناس يفهمونهم. كنا نتواصل عن طريق الموسيقى، صوت حياتهم الداخلية. إن البراءة المضطهدة كانت تفعل خيراً مما تقول أو مما تُظهر من ألم، كانت تشبعني به بواسطة تلك الأنغام التي تنبعث منها. كنت أقرأ الأحاديث، ولكن كنتُ أسمع الأمل والمرارة. كنت أفاجئ بأذني الألم المتكبر الذي لا ينكشف. كنتُ محرجاً؛ لم أكن أنا، تلك الأرملة الشابة التي كانت تبكي على الشاشة – ومع ذلك لم يكن لدينا أنا وهي إلا روح واحدة: اللحن الجنائزي لشوبان. لم تكن ثمة حاجة إلى أكثر من ذلك كي يبلل بكاؤها عينيَّ. كنت أشعر بأني نبي دون أن أستطيع بشيء التنبؤ وحتى قبل أن يخون الخائن، كان جرمه يدخل فيَّ؛ وحين كان يبدو أن كل شيء هادئ في القصر، كانت أنغام مشئومة تعلن عن وجود القاتل. وكم كانوا سعداء رعاة البقر هؤلاء، وأولئك الفرسان والشرطة: إن مستقبلهم كان هناك، في هذه الموسيقى المخدرة وكان هذا المستقبل يحكم الحاضر. إنَّ غناءاً غير منقطع كان يختلط بحياتهم ويقودهم نحو النصر أو نحو الموت وهو يتقدم نحو نهايته. وكان في انتظارهم الفتاة التي في خطر، واللواء، والخائن المترصد في الغابة، والزميل المقيَّد بالقرب من برميل بارود ينظر بحزن إلى اللهب الذي يسري في الفتيل. إن سريان هذا اللهب،وكفاح العذراء المستميت ضد مختطفها، وركض البطل وسط الأحراش، وتشابك كل هذه الصور وكل هذه السرعات، ومن تحت ذلك الحركة الجهنمية «للسباق إلى الهاوية» تلك القطعة الأوركسترالية المأخوذة من أوبرا «لعنة فاوست» والمقتبسة للبيانو – كل ذلك لم يكن إلاَّ واحداً: ألا وهو «القدر». كان البطل يترجل ويطفئ الفتيلة، ويلقي الخائن بنفسه عليه وتبدأ مبارزة بالسكاكين ولكن مفاجآت هذه المبارزة كانت تسهم بنفسها في عنف التطور الموسيقي:

كانت مفاجآت مزورة لا تكاد تخفي النظام الكوني، ويا للفرح حيث توافق آخر طعنة سكين آخر نغمة في اللحن! كنت أسعد ما يكون المرء! فقد وجدت العالم الذي أريد أن أعيش فيه، ولمست المطلق. ويا له من ضيق أيضاً حين تعاد إضاءة المصابيح: لقد تمزقت بهؤلاء الأشخاص الذين اختفوا حاملين عالمهم معهم؛ شعرت بانتصارهم في عظامي، ومع ذلك فكان انتصارهم لا انتصاري. وفي الشارع، كنت أجد نفسي زائداً عن العدد المقرر.

وقررت أن أفقد القدرة على الكلام وأن أعيش في الموسيقى. وكانت لدي هذه الفرصة كل مساء حوالي الساعة الخامسة. كان جدي يعطي دروسه في معهد اللغات الحيّة؛ وكانت جدتي تنسحب إلى حجرتها وتقرأ شيئاً من (جيب)[1]؛ وكانت أمي قد قدمت لي أكلة العصر وأخذت في إعداد العشاء وإعطاء الخادمة آخر النصائح؛ كانت تجلس إلى البيانو وتعزف عليه قصائد شوبان وسوناتا شومان والمنوّعات السيمفونية لفرانك وأحياناً - بناء على طلبي - كانت تعزف افتتاحية «كهوف فنجال». كنت أتسرب إلى المكتب؛ والظلام قد ساد، وعلى البيانو شمعتان تحترقان. كان الضوء الخافت يخدمني، كنت أمسك بمسطرة جدي، وكانت سيفي الطويل، وقاطعة الأوراق، وكانت خنجري. كنت أتحوّل في الحال إلى صورة مسطحة لفارس. وكان الوحي يتأخر أحياناً وكسباً للوقت كنت أقرر - أنا الذي اشتهرت في المبارزة بالسيف - أن مسألة مهمة تضطرني إلى إخفاء شخصيتي! كان يجب أن أتلقى الطعنات دون أن أردها وأن أستخدم شجاعتي في التظاهر بالجبن. كنت أدور في الحجرة مهدداً بعيني، خافضاً رأسي، مجرجراً قدمي كنت أعبُرُ بقفزة فجائية بين أن وآخر عن أنني صُفِعْتُ أو أنني رُكلتُ في مؤخرتي، ولكني كنتُ حريصاً على عدم الرد. كنت أسجل اسم مَن يهينني. وأخيراً كانت الموسيقى تعمل عملها فأتناولها بجرعات كبيرة، كطبلة زنجية، كان البيانو يفرض عليَّ ايقاعه. وكان الخيال المُرتجل يحل محل روحي، كان يسكنني ويعطيني ماضياً مجهولاً، ومستقبلاً لامعاً ومميتاً. كنتُ ممسوساً. لقد أمسك بي الشيطان وهزني كشجرة البرقوق. وعلى جوادي كنت فرساً أصيلة وفارساً؛ راكباً ومركوباً، كنت أجتاز بسرعة خاطفة أراض بور وأراض محروثة والمكتب من الباب إلى النافذة!! وكانت أمي تقول لي دون أن تكف عن العزف «إنك كثير الضوضاء، لسوف يشتكي الجيران». ولم أكن أجيبها فقد كنت أبكم. وأُحذر الدوق وأترجل وأعلمه بحركات صامتة من شفتي أني أعتبره دعيًا. فيثير عليَّ جنوده المرتزقة، ولكن ضربات سيفي تقف سداً من الصلب أمامي. ومن وقت لآخر كنتُ أطعن صدراً طعنة نافذة. وفي الحال كنت أدور على عقبي وأصبح السائق المطعون، وكنت أسقط وأموت على السجادة، ثم أنسحب في الخفاء من الجثة وأنهض واقفاً واستعيد دور الفارس الشارد، وكنت أحرك كل الأشخاص: فارساً كنت أصفع الدوق وأدور على نفسي؛ ودوقاً كنت أتلقى الصفعة.

---

(١) اسم أدبي مستعار للكاتبة الفرنسية «سيبيل جاربيل ماري آنتوانيت» حفيدة ميرابو (١٨٤٩-١٩٣٢)، المترجم.

ولكني لم أكن أتجسد الأشرار طويلاً، فقد كنتُ أتعجل دائماً العودة إلى الدور الأول الكبير.. إلى نفسي ولما كنت لا أقهر، فقد كنت أنتصر على الجميع، ولكن، كما في حكاياتي الليلية كنت أؤجل انتصاري إلى ما لا نهاية، لأني كنت أخاف من الركود الذي سيتبعه.

إني أحمي كونتيسة شابة من شقيق الملك: يا لها من مجزرة! ولكن أمي أدارت الصفحة؛ وها هو ذا اللحن السريع البهيج يترك مكانه للحن بطيء حنون؛ فأنهي المذبحة على عجل، وأبتسم للسيدة التي في حمايتي. إنها تحبني؛ ذلك ما تقوله الموسيقى. وقد أكون أنا أيضاً قد أحببتها: ويستقر فيّ ببطء قلب محب. ما الذي يفعله الإنسان حينما يحب؟ لقد أخذتها من ذراعها ونزّهتها في مرح: ولكن ذلك لا يمكن أن يكفي. ودُعيَ قطاع الطرق والمرتزقة على عجل فأخرجوني من ورطتي: لقد هجموا علينا، مائة ضد واحد؛ فقتلت تسعين وقام العشرة الباقون باختطاف الكونتيسة.

حان وقت دخولي في سنواتي التعسة: فالمرأة التي تحبني أسيرة، وجميع شرطة المملكة يجدون في أثري، فأنا خارج على القانون، ومطارد وتعس. لم يبق لي سوى ضميري وسيفي. كنت أذرع المكتب وقد بدا عليّ الانهاك، كنت أملأ نفسي بحزن شوبان الهائم. كنت أحياناً أقلب صفحات حياتي، وكنت أتجاوز سنتين أو ثلاث سنوات لأتأكد من أن كل شيء سينتهي على خير وجه. وأن ألقابي وأراضيّ ستعاد إليّ وكذلك خطيبتي شبه سليمة، وأن الملك سوف يطلب مني الصفح. ولكنى كنت أقفز حالاً إلى خلف وأعود لأستقر - قبل ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات - في التاسعة. كانت هذه اللحظة تسحرني، كان الخيال يختلط بالحقيقة. وفي تشردي وحزني الشديد سعياً وراء العدالة، كنت أشبه شبهاً حميماً طفلاً متسكعاً لا يدري ماذا يصنع بنفسه، يبحث عن سبب لحياته، ويطوف على نغمات الموسيقى في مكتب جده. ودون أن أتخلى عن دوري، كنت أستفيد من الشبه لأمزج بين مصيرينا. ولما كنت متأكداً من النصر الأخير فكنت أرى في هذه الضجة طريقي المأمون للوصول إليه. وخلال زلتي كنت ألمح مجد المستقبل الذي كان سببها الحقيقي. إن سوناتا شومان تنتهي باقتناعي بأني كنت المخلوق الذى ييأس والله الذي أنقذه منذ بداية العالم. يا لفرحة أن نستطيع أن نأسف صورياً! كان من حقي أن أظهر استيائي للكون. ولما كنت تعباً من النجاح الذي حصلت عليه بسهولة بالغة فكنت أستطيب لذة الحزن، ومرارة بهجة الحقد. ولما كنت هدفاً للاهتمامات الأكثر حناناً ومتخماً وبلا رغبات كنت أندفع إلى عوز خيالى. إن ثماني سنوات من السعادة لم تؤد إلاّ لأن تنفث في نفسي حب الاستشهاد. كنت أحل محل قضاتي العادين الميالين كلهم لمحاباتي - محكمة عبوسة مستعدة لإدانتي دون أن تسمعني. لسوف أنتزع منها البراءة والتهاني ومكافأة نموذجية. كنت قد قرأت عشرين مرة وبشغف قصة «جريزيلديس[1]»، ولكني لم أكن أحب المعاناة،

(١) بطلة أسطورية كانت نموذجاً للفضائل الزوجية. ويقال إن هذه السيدة عاشت في القرن الحادى عشر وقد أستوحى قصتها بترارك وبوكاشيو وبيرو (المترجم).

ورغباتي الأولى كانت قاسية. إن المدافع عن هذا العدد من الأميرات لم يكن يضايقه أن يضرب على الإليتين، في الخيال، جارته الصغيرة التي تسكن في الطابق نفسه. إن ما كان يعجبني في هذه القصة غير الجديرة بالاحترام هو سادية الضحية وهذه الفضيلة الصلبة التي كان ينتهي بها الأمر إلى أن تلقي بالزوج الجلاد جاثياً على ركبتيه. ذلك ما كنت أريده لنفسي: أن أقسر القضاة على الركوع وأن أجيرهم على احترامي لأعاقبهم على موقفهم المسبق مني ولكني كنتُ أؤجل البراءة كل يوم إلى الغد؛ ولما كنت على الدوام بطل المستقبل، فقد كنت أتحرق شوقاً لإقرار كنت أؤجله باستمرار.

إن هذا الحزن المزدوج الذي كنتُ أُحس به وأمثله كان، على ما أعتقد، يعبِّر عن خيبة أملي، إن مآثرى الموضوعة متلاصقة الأطراف، لم تكن إلا مسبحة من الصدف؛ وحين كانت أمي تعزف آخر ألحان «الخيال المرتجل»، كنت أسقط ثانياً في الزمن، بدون ذاكرة اليتامى المحرومين من الأب، والفرسان الشاردين المحرومين من اليتامى؛ سواء كنت بطلاً أو تلميذاً، كاتباً ومعيداً تمارين الاملاء نفسها، والانتصارات نفسها، كنت أظل محبوساً في هذه الزنزانة: ألا وهي التكرار. ولكن المستقبل كان موجوداً. لقد كشفته السينما لي: كنت أحلم بأن لي مصيراً. إن استياءات «جريزيلديس» أضجرتني آخر الأمر: عبثاً جاهدت لتأجيل لحظة تمجيدي التاريخية إلى ما لا نهاية، فلم أكن أجعل منها مستقبلاً حقيقياً.. ولم تكن إلا حاضراً مؤجلاً.

وفي حوالي تلك الفترة - ١٩١٢ أو ١٩١٣ - قرأت رواية «ميشيل ستروجوف». لقد بكيتُ من الفرح: يا لها من حياة مثالية. لم يكن هذا الضابط ليظهر شجاعته في حاجة لأن ينتظر ارادة قطّاع الطرق المطلقة. إن أمراً صادراً من أعلى قد جذبه من الظلام. كان يحيا ليطيعه ويموت بانتصاره لأن هذا المجد كان موتاً. وعند تقليب آخر صفحة من الكتاب، كان ميشيل يحبس نفسه حياً في تابوته الصغير المذهب الحواف. لا قلق.. لقد كان مسوَّغاً منذ ظهوره الأول، لا لأدنى صدفة. صحيح أنه كان يتنقّل باستمرار، ولكن مصالح عظيمة وشجاعته، وتيقظ العدو وطبيعة الأرض، ووسائل المواصلات، وعشرين عاملاً آخر أعطيت كلها مقدماً - كانت تتيح في كل لحظة تحديد مكانه على الخريطة، لم يكن هناك تكرار: كل شيء كان يتغيَّر، وكان لابد أن يتغيرَّ بلا انقطاع؛ كان مستقبله يهديه، أن نجماً كان يوجهه. وبعد ذلك بثلاثة أشهر قرأت هذه الرواية بالشعور نفسه؛ غير أني لم أكن أحب ميشيل، كنتُ أجده مسرفاً في التعقّل.. كنت أحسده على مصيره. كنت أعبد فيه، وهو مقنّع، المسيحي الذي حالوا بيني وبين أن أكونه. إن قيصر روسيا كلها كان الله الآب؛ ولما كان ميشيل قد بعث من العدم بمرسوم فريد، ولما كان مكلفاً مثل سائر المخلوقات برسالة وحيدة ورئيسية فقد عبر وادينا المملوء بالدموع مزيحاً المغريات ومجتازاً العوائق، وأحب الاستشهاد واستفاد من إحدى المعجزات[1]، ومجّد خالقه، ثم في نهاية

(١) أنقذ بمعجزة دمعة (المؤلف).

مهمته دخل الخلود. كان هذا الكتاب سمّاً بالنسبة لي: فهناك إذاً مختارون؟ إن أعلى المقتضيات ترسم لهم الطريق؟ كنت أكره القداسة، ولكنها سحرتني عند ميشيل ستروجوف لأنها اتخذت مظاهر البطولة.

ومع ذلك فإني لم أغيِّر شيئاً من ايمائياتي، وفكرة الرسالة ظلّت في الهواء كالشبح الرخو الذي لا يتمكن من أن يتجسد، والذي لا أستطيع التخلص منه. بيد أن الشخصيات الثانوية وملوك فرنسا كانوا تحت أوامري وكانوا ينتظرون الاشارة ليعطوني أوامرهم. ولم أعطهم شيئاً منها. فإن خاطر المرء بحياته عن طاعة فماذا تكون المروءة؟ وكان «مارسيل دونو» الملاكم بقبضتيه الحديدتين يدهشني كل أسبوع بأدائه المجاني - ما هو أكثر من واجبه؟ وأما ميشيل ستروجوف الكفيف المثقل بالقروح المجيدة، فبالكاد كان يستطيع أن يقول إنه أدى واجبه. كنت أعجب بشجاعته وأنكر خضوعه. فلم يكن فوق رأسي هذا الشجاع إلا السماء؛ لم يكن ينحني أمام القيصر في حين كان على القيصر أن يقبل قدميه؟ ولكن، ما لم ننحن، فمن أين يمكن أن نحصل على التفويض بالحياة؟ إن هذا التناقض أوقعني في حيرة عميقة. حاولت أحياناً أن أدور حول الصعوبة. ولما كنت طفلاً مجهولاً فكنت أسمعهم يتكلمون عن مهمة خطيرة، فذهبت لألقي بنفسي عند قدمي الملك ورجوته أن يعهد بها لي، ولكنه رفض. لقد كنت صغيراً جداً، والموضوع غاية في الخطورة. ونهضت وحرّضت على المبارزة وهزمت بسرعة كل ضباطه. وسلّم الملك بالواقع: «إذهب إذاً، ما دامت هذه إرادتك!» ولكني لم أكن لأنخدع بحيلتي، ولاحظت جيداً أنني فرضت نفسي. ثم إني كنت أتقزز من هؤلاء القرود جميعاً: كنت ثائراً وقاتل ملك، لقد حذرني جدي من الطغاة سواء كان اسمهم لويس السادس عشر أو باداالجيد[1] وبخاصة أني كنت أقرأ كل يوم في صحيفة «الماتان» مسلسل ميشيل زيفاكو: لقد ابتكر هذا المؤلف العبقري - بتأثير هوجو - رواية الفروسية الجمهورية. إن أبطاله يمثلون الشعب، يصنعون الامبراطوريات ويحطمونها، ويتنبأون منذ القرن الرابع عشر بالثورة الفرنسية ويحمون بطيبة قلب ملوكاً أطفالاً أو ملوكاً مجانين من وزرائهم، ويصفعون الملوك الأشرار. وأعظمهم جميعاً، بأردیان ، كان معلمي! ولأقوم بتقليده، كنت أرتكز بكبرياء على ساقيّ النحيلتين وقد صفعت مائة مرة هنري الثالث ولويس الثالث عشر. هل أذهب بعد ذلك لأضع نفسي تحت إمرتهم؟ وباختصار فلم أكن أستطيع أن أسحب من نفسي الأمر الذي يبرر وجودي على هذه الأرض، ولا أن أعترف لأحد بحق تسليمه لي واستأنفت جولاتي بتراخٍ على ظهر جوادي ووهنت في العراك. ولما كنت ذبّاحاً شارد الذهن وشهيداً بليداً، فقد ظللتُ جريزليديس لعدم وجود قيصر أو إله أو أب على الأقل.

كنت أعيش حياتين كلتاهما كاذبتان: ففي العلانية كنت مخادعاً: الحفيد المشهور «لشارل شفايتزر» ذائع الصيت، وحيداً، كنتُ أغوص في استياء خيالي. كنت أصحح

---

(١) كان نابليون الثالث مَكْنِيّاً بهذا الأسم (المترجم).

مجدي الكاذب بتخفف كاذب ولم يكن يصعب عليَّ قط أن أنتقل من دور لآخر. وفي اللحظة التي كنتُ سأدفع سيفي السري، دار المفتاح في القفل، وشلّت فجأة يدا أمي وتجمدت على مفاتيح البيانو، ووضعت المسطرة في المكتبة وذهبت لألقي بنفسي بين ذراعي جدي، ودفعت كرسيه إلى الأمام وأحضرت له خفّه المبطن بالفراء، وسألته عن يومه، ذاكراً تلاميذه بأسمائهم. وأيّاً كان عمق حلمي فإني لم أتعرض قط لخطر الضياع فيه. ومع ذلك فكنت مهدداً: إن حقيقتي كانت تخاطر كثيراً بتناوبها حتى النهاية مع أكاذيبي.

وكانت هناك حقيقة أخرى. فعلى شرفات حديقة اللوكسمبورج، كان أطفال يلعبون، وكنت أقترب منهم، وكانوا يحفون بي دون أن ينظروا إليَّ، كنت أنظر إليهم بعيون الفقير: كم كانوا أقوياء وسريعين! كم كانوا ملاحاً! وأمام هؤلاء الأبطال من لحم وعظم، كنت أفقد ذكائي العجيب وعلمي الواسع ومجموع عضلاتي الرياضية ومهارتي في استخدام السيف. كنت أستند إلى شجرة وأنتظر. ولو أن رئيس الجماعة وجّه إليَّ مرة بفظاظة الكلام قائلاً: تقدم يا برديان ستأخذ أنت دور الأسير - لتخليت عن امتيازاتي. إن مجرد دور أبكم سيملأني سعادة؛ ولكنت قبلت، وسط هذا الحماس، دور جريح على نقالة، أو دور ميِّت. لكن الفرصة لم تعط لي: لقد قابلت قضاتي الحقيقيين، معاصريَّ، أندادي، وعدم مبالاتهم كانت تدينني. كنتُ في دهشة من اكتشافي نفسي عن طريقهم: لم أكن لا معجزة ولا «مدوساً»، بل قزماً هزيلاً لا يثير اهتمام أحد. لم تكن أمي تحسن إخفاء غضبها: إن هذه المرأة الطويلة الجميلة كانت راضية كل الرضى عن قصر قامتي ولم تكن ترى فيه إلا كل ما هو طبيعي. إن عائلة «شفايتزر» طويلة القامة وعائلة «سارتر» قصيرتها، كنت كوالدي، ذلك ما في الأمر. كانت أمي تود، وأنا في الثامنة، أن أظل سهل الحمل والتحريك وكان قطعي الصغير يبدو في نظرها كمرحلة عمرية أولى ممتدة. ولكن، عندما ترى أن لا أحداً يدعوني للعب، كان حبها يدفعها إلى الظن أنني معرض لأن أخال نفسي قزماً - الأمر الذي لم أكنه تماماً وكنتُ أنا أتألم لذلك. ولكي تنقذني من اليأس كانت تتصنع الضجر: «ماذا تنتظر أيها الأبله الكبير إسألهم إن كانوا يريدون أن يلعبوا معك!» كنت أهز رأسي، فقد كنتُ أحقر الأعمال وكانت كبريائي تمنعني من أن ألتمس منهم. وكانت تشير إلى سيدات يجلسن على كراسي من حديد ويَحكنّ التريكو، وتقول لي: «هل تريد أن أكلم أمهاتهم ؟» كنت أتوسل إليها ألا تفعل شيئاً، فكانت تأخذ يدي ونرحل . كنا ننتقل من شجرة إلى أخرى ومن جماعة إلى جماعة دائمي التوسل والاستبعاد. وعند الغسق، كنت أعود إلى مجثمي، تلك الأماكن العالية حيث تهب الروح، أي أحلامي. كنت أثأر من خيبة أملي بست كلمات صبيانية وبذبح مائة من المرتزقة! ومهما يكن من أمر فإن الأمور كانت سيئة.

وأنقذني جدي: لقد ألقى بي، دون أن يريد، في خدعة جديدة غيَّرت حياتي.

القسم الثاني
الكتابة

لم يعتبر «شارل شفايتزر» نفسه قط أنه كاتب، ولكن اللغة الفرنسية ظلت تدهشه وهو في السبعين من عمره، لأنه تعلّمها بصعوبة، ولأنه لم يمتلكها تماماً؛ كان يلعب معها وكان يهتم بالكلمات وكان يحب أن ينطق بها، ولم يكنإلقاؤه عديم الشفقة يتساهل في مقطع واحد، وعندما كان يجد لديه الوقت، كانت ريشته تنسقها في باقات. وكان يسجل بسرور الأحداث التي تمر بها عائلتنا وأحداث الجامعة بكتابات مناسبة للظروف: تمنيات بالعام الجديد وعيد الميلاد، كلمات في ولائم الأفراح خطب شعرية في عيد القديس شارلمان، هزليات صغيرة وألغاز وقواف وترهات لطيفة. وفي المؤتمرات كان يرتجل رباعيات بالألمانية والفرنسية.

وفي بداية الصيف كنا نسافر إلى أركشون، أنا والمرأتان قبل أن ينهي جدي دروسه كان يكتب لنا ثلاث مرات في الأسبوع: صفحتين للويز وحاشية لآن ماري وخطاباً شعرياً بكامله لي وكي تزيدني أمي تذوقاً لسعادتي تعلّمتْ قواعد العروض وعلمتها لي. وفاجأني أحدهم وأنا أدبج إجابة بالشعر، فحثني على إنجازها وساعدني فيها. وعندما بعثت المرأتان بالخطاب ضحكتا حتى دمعت أعينهما وهما تفكران في دهشة المرسل إليه. وبعودة البريد تسملت قصيدة تمجدني، فأجبت عليها بقصيدة. وصارت عادة. لقد ارتبط الجد والحفيد برباط جديد، فقد كانا يتحدثان بعضهما إلى بعض كالهنود وقوادي مون مارتر، في لغة محظورة على النساء. وُهديتُ قاموساً للقوافي، وجعلت من نفسي شاعراً: ونظمت قصيدة غزل رقيقة لفيفي، وهي بنتَ صغيرة شقراء كانت لا تغادر كرسيها الطويل، وقد ماتت بعد ذلك ببضع سنوات. لم تكن البنت الصغيرة تبالي بهذه القصيدة. لقد كانت ملاكاً! ولكن كان يعزيني عن هذه اللامبالاة اعجاب جمهور كبير بها. لقد وجدت بعض هذه القصائد وقال كوكتو[1] في سنة ١٩٥٥ إن لدى جيمع الأطفال عبقرية سوى «مينودرويه». وفي سنة ١٩١٢ كان جميع الأطفال عباقرة ما عداي. كنت أكتب للتقليد والتصنع وكي أبدو كبيراً كنت أكتب بخاصة لأني كنت حفيد «شارل شفايتزر». وأعطيت لي أمثولات لافونتين، ولم تعجبني: وكان المؤلف يأخذ منها ما يحلو له! وقررت أن أكتبها في أشعار ذات اثني عشر مقطعاً. كان المشروع فوق طاقتي، وبدا لي أنه يثير الابتسام: كان آخر تجربة شعرية لي. ولكني كنت تقدمت وانتقلت من الشعر إلى النثر ولم أجد أية صعوبة في أن أخترع من جديد كتابة المغامرات الشيقة التي كنت أقرأها في مجلة «كرى كرى[2]». لقد حان وقت اكتشافي لعبث أحلامي. فخلال جولاتي الخيالية كنت أريد الوصول إلى الواقع. وحين كانت أمي تسألني، دون أن تحوّل نظرتها عن نوتة الموسيقى: «ماذا تفعل يا پولو؟» كان يحدث لي أحياناً أن أقطع نُذر الصمت الذي قطعته على نفسي وأن أجبها: «أمثّل للسينما» وبالفعل، كنتُ أحاول أن أنتزع الصور من رأسي وأن

(١) هو چان كوكتو. كاتب فرنسي توفي سنة ١٩٦٣. ظهرت كفاءته في الشعر والرواية والدراما. كان عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (المترجم). (٢) مجلة فرنسية للأطفال (المترجم).

أحققها خارج نفسي، بين قطع أثاث حقيقية وجدران حقيقية، ساطعة وبريئة مثل الصور التي كانت تسيل على الشاشات الفضية. عبثاً؛ فلم أكن أستطيع بعد أن أجهل غشي: فكنت أتظاهر بأني ممثل يتظاهر بأنه بطل.

وبمجرد أن أبدأ الكتابة كنت أضع ريشتي لأبدي فرحي العظيم. كان الخداع واحداً، ولكني قلت إني أعتبر الكلمات لباب الأشياء. ولم يكن ثمة شيء يثير اضطرابي أكثر من من أن أرى خطي الرديء يستبدل شيئاً فشيئاً بها « الزائل بالصلابة المعتمة للمادة: كان ذلك تحقيقاً للعالم الخيالي، وإذا وقع أسد أو ضابط من ضباط الامبراطورية الثانية أو بدوي في فخ الترقية - فإنهم كانوا يدخلون إلى غرفة الطعام، ويظلون فيها أسرى إلى الأبد وقد ضموا بالسمات؛ واعتقدت بأني أرسيت أحلامي في العالم بحكات ريشة من الصلب.
وطلبت كراسة وزجاجة حبر بنفسجي وكتبت على الغلاف: «كراسة روايات» وأول رواية كتبتها حتى النهاية أسميتها: «من أجل فراشة». إن عالماً وابنته وأحد المستكشفين الرياضيين كانوا يصعدون مجرى نهر الأمازون بحثاً عن فراشة ثمينة. وكنت قد استعرت الملخص والشخصيات وتفاصيل المغامرات وحتى العنوان من قصة مصورة كانت قد ظهرت في الأشهر الثلاثة السابقة. إن هذه السرقة الأدبية كانت تخلصني من قلقي الأخير. وكان طبيعياً أن يكون كل شيء حقيقياً بما أنني لم أكن أخترع شيئاً. لم أكن أطمع في أن تُنشر روايتي، ولكني كنت رتبت أمري على أن تطبع مقدماً. وكنت ألاحظ سطراً لا يضمنه نموذجي. هل كنتُ أعتبر نفسي ناسخاً، كلا. ولكني كنتُ أعتبر نفسي مؤلفاً أصيلاً: كنت أنقح وأجدد، فعلى سبيل المثال كنتُ عنيت بتغيير أسماء الشخصيات. إن هذه التغييرات الطفيفة كانت تسمح لي بمزج الذاكرة بالخيال. كانت جملاً جديدة ومكتوبة كلها ويعاد تكوينها في رأسي بذلك الثبات الذي يبدو على ما نتلقاه بالإلهام. كنت أنقلها وكانت تأخذ تحت نظري كثافة الأشياء. وإن كان المؤلف الملهم، كما يعتقد في الغالب، هو غير ما يكون في أعماق داخله، فإني أكون قد عرفت الإلهام بين السابعة والثامنة.

إن هذه «الكتابة الآلية» لم تخدعني قط تماماً. ولكن اللعبة كانت تسرني أيضاً لذاتها: ولما كنت ابناً وحيداً، فكنت أستطيع أن ألعبها وحدي. وبين لحظة وأخرى كنت أوقف يدي وكنت أتظاهر بالتردد لأشعر بنفسي، وقد تقطب جبيني، وشرد نظري - إنني كاتب. كنت أعبُد السرقة الأدبية، حباً في التظاهر، وكنت أذهب بها متعمداً إلى أقصى حدودها، كما سنرى.

إن بوسنار وجول فرن لم يتركا فرصة لم يغتنماها ليقدما العلم: ففي أحرج اللحظات يقطعان حبل القصة ليندفعا في وصف نبات سام أو مسكن من مساكن الوطنيين. وكقارئ كنت أترك هذه الفقرات التعليمية؛ وعندما أصبحت مؤلفاً حشوت رواياتي بها. لقد عزمت على أن أعلم معاصري كل ما كنتُ أجهله: عادات أهل أرض النار[1]، والنباتات الافريقية ومناخ الصحراء. إن هاوي جمع الفراشات وابنته كان الحظ يتدخل فيفصلهما ثم يركبان دون

---

(١) مجموعة جزر تقع جنوب أمريكا الجنوبية يفصلها عن القارة مضيق ماجلان (المترجم).

أن يعرفا على ظهر سفينة واحدة، ويقعان ضحية حادث واحد فيتعلقان بطاقة النجاة نفسها ويرفعان رأسيهما ويصرخ كلاهما: «ديزي!» «بابايا». غير أن سمكة القرش كانت، مع الأسف، تجوس بحثاً عن لحم طازج، كانت تقترب وبطنها يلمع بين الأمواج. هل سيفلت هذان التعسان من الموت؟ وكنت أذهب لأحضر المجلد «ف» من قاموس لاروس الكبير وأحمله بصعوبة حتى قمَطري وأفتحه في الصفحة المطلوبة وأنقل حرفياً، مبتدئاً بسطر جديد: «إن سمك القرشَ مألوف في المحيط الأطلسي في جزئه الواقع بين المدارين. إن أسماك البحر هذه الكبيرة والتي هي غاية في الفهم يصل طولها إلى ثلاثة عشر متراً ويصل وزنها إلى ثمانية أطنان..». كنت أنقل المقال على مهل وأتلذذ في شعوري بأنني ممل وفي مثل تميّز بوسنار. ولأنني لم أكن قد وجدت وسيلة أنقذ بها بطلي، كنت أعدّ سراً مخرجاً في رعدة لذيذة.

إن كل شيء كان يوجّه هذا النشاط الجديد لأن يكون تقليداً أخرق. كانت أمي تغمرني بتشجيعها، كانت تدخل الزوّار إلى غرفة الطعام ليفاجئوا المبدع الجديد وهو جالس إلى قمطره؛ كنت أتظاهر بانشغالي التام كي أشعر بوجود المعجبين بي؛ فكانوا ينسحبون على أطراف أصابعهم وهم يهمسون بأني غاية في اللطف وأن ذلك لجميل للغاية. وأهداني خالي إميل آلة كاتبة صغيرة لم أستعملها، واشترت لي السيدة بيكار خريطة العالم لكي أتمكن من أن أحدد، دون أن أتعرض للخطأ طريق أبطالي الذين يدورون حول العالم على أقدامهم. ونسخت «آن ماري» من جديد روايتي الثانية «بائع الموز» على ورق لامع وانتقلت من يد إلى يد. كانت «مامي» نفسها تشجعني وتقول: «إنه عاقل على الأقل ولا يحدث ضجيجاً»، وتأجل لحسن الحظ الاحتفال بتمجيدي بسبب عدم رضى جدي.

لم يقبل «كارل» أبداً ما كان يسميه «مطالعاتي الضارة» وحين أعلنت له أمي أني بدأت الكتابة، سر في البداية كل السرور، آملاً على ما أعتقد - أن يرى تسجيلاً لحياة أسرتنا اليومية وملاحظات لاذعة وسذاجات ظريفة. وأخذ كراستي وقلّب صفحاتها ولوى شفتيه، وغادر غرفة الطعام، وقد أغضبه أن يجد بقلمي «بلاهات» صحفي المفضلة. ولم يهتم بعد ذلك بعملي. وحاولت أمي مراراً، وقد آلمها موقف جدي، أن تتحايل عليه لكي يقرأ «بائع الموز». فكانت تنتظر حتى يضع في قدميه شبشبه ويجلس على كرسيه الوثير. وبينما كان يستريح صامتاً، بعين ثابتة قاسية ويداه على ركبتيه، كانت تستولي على مخطوطي وتقلب صفحاته دون أي انتباه، ثم تأخذ في الضحك وحدها وقد أخذَت فجأة. وكانت تقدمه أخيراً إلى جدي في تأثر لا يقاوم، وتقول له: «إقرأ يا بابا! إنه مَضحك للغاية». ولكنه كان يبعد الكراسة بيده أو - إن ألقي عليها نظرة - فليشير إلى أخطائي الاملائية في غضب وانتهى الأمر بأمي إلى الخوف: فلما كانت لا تجرؤ على تهنئتي ولما كانت تخشى أن تؤلمني فقد كفّت عن قراءة كتاباتي حتى لا تجد ما تقوله لي.

ولما كان نشاطي الأدبي مسموحاً به بصعوبة ومتجاهلاً، فقد انحدر إلى ما يشبه

السرية، ومع ذلك فقد تابعته بمثابرة: في أوقات الفسح، وفي يومي الخميس والأحد[1] وفي العطلة الصيفية، وعندما يسعدني الحظ وأمرض في سريري. وأني أتذكر نقاهة سعيدة، كراسة سوداء بأطراف حمراء كنتُ آخذها وأتركها كأنها نسيج مطرز. وقل عملي في السينما ذلك أن رواياتي حلّت عندي محل كل شيء وبالاختصار كنت أكتب إرضاء لنفسي.

وتعقدت حبكات رواياتي، فأدخلتُ فيها الحوادث شديدة الاختلاف. وصببت كل مطالعاتي، الجيدة والرديئة، بلا نظام في هذه الأكياس. وتأثرت القصص من هذا الحشو؛ ومع ذلك فقد كان مكسب: إذا كان لابد من إيجاد وصلات فقلّت سرقاتي الأدبية. ثم قسّمت نفسي إلى قسمين. في العام الماضي حين كنت «أعمل في السينما» كنت أؤدي دوري وأنغمس تماماً في عالم الخيال وفكرت أكثر من مرة في التعمق فيه بكليتي. ولما كنتُ مؤلفاً، كنت لا أزال البطل، وكنت أعكس عليه أحلامي الملحمية. ومع ذلك فقد كنّا اثنين: لم يكن يحمل اسمي وكنت لا أتكلم عنه إلا بضمير الغائب. وبدلاً من أن أعيره حركاتي، كنت أصنع له بكلمات جسماً أزعم أني أراه. كان في استطاعة هذا «البعد» المفاجئ أن يخيفني: ولكنه سحرني؛ فقد فرحت بأن أكون «هو» دون أن يكونني تماماً. كان دميتي وكنت أطوّعه حسب أهوائي، كان في استطاعتي أن أعجم عوده، أن أطعن جنبه بحربة ثم أعالجه، كما كانت أمي تعالجني، وأشفيه كما كانت تشفيني. وكان المؤلفون الذين أفضلهم بما تبقى لهم من حياء، يتوقفون في منتصف الطريق إلى السمو: وحتى عند زيفاكو لم يحدث قط أن تحدى شجاع أكثر من عشرين قاطع طريق في وقت معاً. أردت تطوير روايات المغامرات، فخلصتها من كل ما هو محتمل، وضاعفت عدد الأعداء والمخاطر: فلكي ينقذ المكتشف الشاب خطيبته وأباها في رواية «من أجل فراشة» صارع ثلاثة أيام وثلاث ليال سمك القرش؛ وأصبح البحر أحمر في نهاية الأمر؛ وفر المكتشف نفسه هارباً وقد أصيب بجراح من مزرعة تربية الخيول المحاصرة بقبيلة الآباش واجتاز الصحراء ماسكاً أمعاءه بيديه ورفض أن يخاط بطنه قبل أن يتحدث إلى الجنرال. وبعد ذلك بقليل قام المكتشف نفسه تحت اسم جوتز فوق برليشنجن بدحر جيش. كانت قاعدتي: واحد ضد الجميع؛ إن مصدر هذا الحلم الحزين والعظيم يُبحث عن مصدره في الفردانية البورجوازية والبوريتانية اللتين كانت تتميز بهما بيئتي.

بطلاً، كنت أكافح الطغيان؛ ومبدعاً، كنت أجعل من نفسي طاغية. وعرفت كل إغراءات السلطة: كنت غير مؤذ فأصبحت شريراً. ما الذي يمنعني من أن أفقأ عيني ديزي؟ كنت أجيب نفسي، وقد مت خوفاً: لا شيء. وكنت أفقأهما لها كما لو كنت أنتزع جناحي ذبابة. وكنت أكتب وقلبي يخفق: «وضعت ديزي يدها على عينيها: لقد أصبحت كفيفة». كنت أظل مرعوباً وقلمي في الهواء. لقد أطلقت في المطلق حدثاً صغيراً كان يحرجني

(١) العطلة الأسبوعية لتلاميذ المدارس في فرنسا (المترجم).

بلذة. لم أكن سادياً حقيقة: إن فرحي المنحرف كان يتحوّل بسرعة إلى رعب، وكنت ألغي كل مراسيمي وأوسعها شطباً كي أجعلها مقروءة. كانت الفتاة تستعيد بصرها أو بالأحرى أنها لم تفقده قط. ولكن ذكرى نزواتي كانت تعذبني طويلاً: فقد كنت أقلق نفسي قلقاً حقيقياً.

إن العالم المكتوب كان يقلقني أيضاً: وحين كنت أمل المذابح الرقيقة للأطفال، كنت أترك نفسي تغرق، وكنت أكتشف في القلق إمكانيات مرعبة وعالماً بشعاً لم يكن إلا الوجه الآخر لقدرتي الفائقة. وكنت أقول في نفسي: كل شيء يمكن أن يحدث! مما كان يعني أنني أستطيع أن أتخيّل كل شيء. ودائماً، وأنا على وشك تمزيق ورقتي كنت أحكي وأنا أرتعد فظائع تفوق الطبيعة وحين يتفق لأمي أن تقرأ من فوق كتفي، كانت تصيح صيحة الانتصار والخطر: «يا له من خيال». كانت تعض له شفتيها وتريد أن تتكلم ولا تجد ما تقوله فتهرب فجأة، فكانت هزيمتها تملأني قلقاً ولكن الخيال لم يكن السبب. لم أكن أخترع هذه البشاعات، بل كنت أجدها، مثل غيرها في ذاكرتي.

وفي ذلك العهد كان الغرب يموت اختناقاً: ذلك ما أسموه «عذوبة الحياة»! ولعدم وجود أعداء مرئيين، كانت البورجوازية تتلذذ بإخافة نفسها بأشباحها. كانت تستبدل مللها بقلق موجه. وكان الناس يتحدثون عن مناجاة الأرواح والأشباح. وفي شارع لوجوف رقم٢، في مواجهة عمارتنا، كانوا يجعلون الموائد تدور. كان ذلك يحدث في الطابق الرابع: «عند المجوسي»، كما كانت تقول جدتي. وكانت أحياناً تدعونا، وكنا نصل في الموعد لنرى أزواجاً من الأيدي على أسكملة. ولكن أحدهم كان يقترب من النافذة ويسدل الستائر. وكانت لويز تدعي أن هذا المجوسي يستقبل أطفالاً في سني تصحبهم أمهاتهم وكانت تقول «إني أراه: إنه يضع يديه على رؤوسهم». وكان جدي يهز رأسه منكراً، ولكن على الرغم من إنكاره لهذه الممارسات فإنه لم يكن يجرؤ على السخرية منها؛ كانت أمي تخافها، ولأول مرة كان يبدو القلق على جدتي أكثر مما كان يبدو عليها الشك. وأخيراً اتفقوا على أنه: «يجب بخاصة عدم الاهتمام بذلك لأنه يؤدي إلى الجنون!». وكانت القصص الخارقة شائعة، وكانت الصحف ذات الاتجاه الديني تنشر قصتين أو ثلاثاً منها في الأسبوع لهذا الجمهور الذي تجرد من مسيحيته والنادم على فقدانه أناقة الإيمان. وكان القصاص ينقل بكل موضوعية حلماً مقلقاً، وكان يترك نصيباً للوضعية، وكان لابد للحدث، على الرغم من غرابته، أن يحتمل تفسيراً عقلياً. وهذا التفسير كان المؤلف يبحث عنه ويجده ويقدمه بأمانة. ولكن لا يلبث أن يتفنن في إقناعنا بعدم كفايته وبخفته. وكانت القصة تنتهي بعلامة استفهام ولا شيء غير ذلك، ولكن هذه العلامة كانت كافية: كان العالم الآخر موجوداً، وكان رهيباً إلى حد عدم ذكره باسمه.

وحين كنت أفتح جريدة «الماتان» كان الرعب يجمدني. وأثّرت فيّ قصة من هذه القصص جميعاً. وما زلت أتذكر عنوانها: «ريح في الأشجار»، في أمسية صيف كانت امرأة مريضة وحدها في الطابق الأول في منزل ريفي تتقلب في سريرها؛ ومن النافذة

المفتوحة، تدخل شجرة كستناء أغصانها في الغرفة: وفي الطابق الأرضي كان يجتمع عدد كبير من الأشخاص وكانوا يتحدثون وينظرون إلى الليل وهو يهبط على الحديقة. وفجأة أشار أحدهم إلى شجرة الكستناء: «إنظروا ! إنظروا ! ثمة ريح إذن؟» ويتعجب القوم ويخرجون إلى الشرفة فلا يشعرون بنسمة هواء واحدة؛ ومع ذلك فأوراق الشجر تتحرك. وفي هذه اللحظة تسمع صرخة! ويصعد زوج الممرضة درجات السلم بسرعة ويرى زوجته الشابة واقفة على سريرها وهي تشير إلى الشجرة بإصبعها وتسقط ميتة. وعاد إلى شجرة الكستناء جمودها الطبيعي. ما الذي رأته؟ مجنون فرّ من الملجأ: وهو الذي أظهر وجهه المكشّر وهو مختبئ في الشجرة إنه هو، لابد أن يكون هو بالعقل الذي لا يمكن لأي تفسير آخر أن يرضيه. ومع ذلك.. كيف لم يره أحد وهو صاعد؟ ولا وهو نازل؟ كيف لم تنبح الكلاب؟ كيف أمكن إلقاء القبض عليه بعد ست ساعاتٍ على بعد مائة كيلو متر من المنزل؟ أسئلة بلا إجابة. ويبدأ القصاص فقرة جديدة واختتم القصة في عدم اكتراث بقوله: «إن كان لابد من تصديق سكان القرية فإن الموت هو الذي كان يهز أعضاء شجرة الكستناء». وألقيت بالجريدة وضربت الأرض بقدمي وقلت بصوت عالٍ: «كلا! كلا!» كان قلبي يخفق بشدة واعتقدت ذات يوم أنه سيغمى عليّ وأنا في قطار ليموج أتصفح تقويم هاشيت[1] فقد وقع نظري على صورة يقشعر لها البدن: رصيف تحت ضوء القمر وملقط طويل خشن يخرج من الماء وينشب في رجل سكران ويسحبه إلى قاع البركة. والصورة توضح نصاً قرأته بشغف وينتهي- أو يكاد بهذه الكلمات: «هل كانت تهيؤات سكير؟ هل انفتحت جهنم؟» وخفتُ من الماء والسراطين والأشجار وخفتُ بخاصة من الكتب: ولعنت الجلادين الذين يحشون قصصهم بهذه الأشكال الرهيبة. ومع ذلك فقد قلدتهم.

كان لابد من مناسبة طبعاً. عند جنوح النهار: كان الظلام يغطي غرفة الطعام، وكنت أدفع مكتبي الصغير نحو النافذة، وكان القلق يبدو من جديد. إن وداعة أبطالي الذين لا يفارقهم السمو: هؤلاء الذين لم يعرف قدرهم وأعيد لهم اعتبارهم - كان يكشف تقلبهم. وكان الإلهام يأتي حينئذ في هيئة كائن يترنح غير مرئي يسلب لبي؛ وكي أراه كان لابد من وصفه. كنت أختم المغامرة الجارية بسرعة، وأذهب بشخصياتي إلى منطقة أخرى من الكرة الأرضية، تحت البحر أو تحت الأرض عموماً، وكنت أسرع بتعريضهم لأخطار جديدة. وسواء كانوا غطاسين أو علماء جيولوجيين مرتجلين فقد كانوا يعثرون على أثر الكائن ويقتفونه ويلتقون به فجأة. وإن ما كان يظهر عندئذ تحت قلمي - أخطبوط بعينين من نار، وقواقع تزن عشرين طناً وعنكبوت ضخم يتكلم - كان أنا نفسي، المسخ الصبياني. كان مللي من الحياة وخوفي من الموت، كان تفاهتي وفسادي. كنت لا أتعرف على نفسي: فبمجرد ولادته كان المخلوق الدنس ينقلب عليّ وعلى علماء الحياة الجوفية الشجعان. كنت أخاف على حياتهم، كان قلبي يتحمس.. أنسى يدي وأنا أخط الكلمات.. كنت أتخيل

---

(١) دار فرنسية للنشر والتوزيع (المترجم).

أني أقرأها. وغالباً كانت الأشياء تقف عند هذا الحد: لم أكن أسلّم الناس للوحش، ولكني لم أكن أخلصهم من ورطتهم أيضاً؛ وبالاختصار كان يكفي أن أصلهم بعضهم ببعض: كنت أنهض وأذهب إلى المطبخ أو إلى المكتبة وفي الغد كنت أترك صفحة أو صفحتين بيضاوين وألقي بشخصياتي في مشروع جديد. «روايات» غريبة بلا نهاية دائماً، ومعادة، أو مكمّلة دائماً كما أتفق تحت عناوين أخرى. نفايات من قصص سوداء ومغامرات بيضاء وأحداث غريبة ومقالات مأخوذة من القاموس. لقد فقدتها وأقول في نفسي أحياناً: يا للخسارة لو أنى فكرت في تخبئتها لأسلمتني اليوم كل طفولتي.

وقد بدأت اكتشف نفسي. لم أكن شيئاً يذكر، كنت على الأكثر نشاطاً بلا محتوى، ولكن لم تكن هناك حاجة لأكثر من ذلك. كنت أهرب من الهزل: لم أكن أعمل بعد، ولكني كنتُ توقفت عن اللعب. وكان الكذّاب يجد حقيقته في إعداد أكاذيبه. لقد وُلدتُ من الكتابة وقبل ذلك لم يكن سوى حركة مرايا؛ ومنذ روايتي الأولى، عرفت أن طفلاً دخل قصر المرايا. كان وجودي في الكتابة، وكنت أهرب بها من الكبار؛ ولكني لم أكن أوجد إلاّ لأكتب. وإذا قلت: أنا، فذلك يعني أنا الذي أكتب مهما يكن الأمر، فقد عرفت السرور؛ لقد ضرب «الطفل العام» لنفسه مواعيد خاصة.

كان ذلك أجمل من أن يستمر: ولو كنت حافظت على سريتي لظللت صادقاً. لقد أنتزعتُ منها. وكنت قد وصلت إلى السن التي اتفق الناس عندها على القول بأن الأطفال البورجوازيين يظهرون أولى علامات ميولهم. لقد أعلمونا منذ زمن أن أولاد خالي من أسرتي شفايتزر ودى جيرنيبي سوف يصبحون مهندسين كأبيهم. لم تكن هناك دقيقة واحدة يمكن إضاعتها. وأرادت السيدة بيكار أن تكون أول من يكتشف العلامة التي كنت أحملها على جبهتي. قالت مقتنعة «إن هذا الصغير سوف يكتب!». وانزعجت لويز وابتسمت ابتسامتها الصغيرة الجافة؛ والتفتت بلانش بيكار نحوها وأعادت بقسوة: «لسوف يكتب! لقد خُلق ليكتب». وكانت أمي تعلم أن «شارل» لم يكن يشجعني قط: لقد خشيت أن تتعقد الأمور وفحصتني بعين حسيرة وقالت «هل تعتقدين يا بلانش؟ هل تعتقدين؟» ولكن في المساء بينما كنت على سريري لابساً قميصي، ضَغَطَت بقوة على كتفي وقالت لي وهي تبتسم: «إن رجلي الصغير سوف يكتب!» وأخبر جدي بحذر خشية اغضابه. واكتفى بهز رأسه منكراً، وسمعته يسر للسيد سيمونو، الخميس التالي، أن لا أحد، في خريف الحياة، يستطيع أن يشاهد يقظة عبقرية دون أن يتأثر. واستمر يتجاهل خربشاتي، ولكن حين كان التلاميذ الألمان يأتون لتناول العشاء في المنزل، كان يضع يده على رأسي ويعيد وهو يفصّل المقاطع الصوتية كي لا يفوّت فرصة دون أن يعلمهم تعبيرات فرنسية بالطريقة المباشرة: «إنه موهوب في الأدب».

لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما يقول، ولكن ما العمل؟ لقد وقع الضرر؛ وقد يستفحل إن قاومته: ربما أعاند. لقد أعلن كارل موهبتي ليحتفظ بفرصة إثنائي عنها. كان لا يحتقر ما توافق عليه المجتمع، ولكنه كان يتقدم في السن. وكان حماسه يتبعه،

ففي داخل فكره، وفي صحراء باردة قلما يرتادها أحد، أنا واثق من معرفتهم جيداً لما يريدونه مني ومن العائلة ومنه. وذات يوم بينما كنت أقرأ مستلقياً عند قدميه، في وسط هذا الصمت المتحجر الذي لا ينتهي والذي كان يفرضه علينا - خطرت له فكرة أنسته وجودي؛ نظر إلى أمي مؤاخذاً: «وإذا صمم على أن يعيش من قلمه؟» كان جدي يقدر «ڤرلين[1]» وكان لديه نخبة من قصائده. ولكنه يذكر أنه رآه، في سنة ١٨٩٤، داخلاً «وهو يترنح كالخنزير» - حانوت بيع نبيذ في شارع سان چاك. لقد غرست فيه هذه المصادفة احتقاره للكتاب المحترفين، صانعي المعجزات الهزئيين الذين يطلبون جنيهاً ذهبياً ليُروا لنا القمر، وينتهي الأمر بهم لأن يُروا لنا عجزهم لقاء مائة صولدي[2]. وبدا على أمي الخوف ولكنها لم تجب. لقد كانت تعلم أن لشارل أهدافاً أخرى لي. ففي أغلب مدارس الليسيه كانت كراسي اللغة الألمانية مشغولة بأساتذة ألزاسيين اختاروا فرنسا[3] فكوفئوا على وطنيتهم. ولما كانوا بين أمتين وبين لغتين، فقد كانت دراساتهم غير منتظمة وكانت ثقافتهم ناقصة؛ وكانوا يتألمون من ذلك؛ كما كانوا يشكون من أن عداء زملائهم كان يحول بينهم وبين مجتمع المعلمين. سأثأر لهم، سأثأر لجدي: كنت حفيداً لألزاسي وفرنسياً من فرنسا في وقت معاً. سوف يجعلني «كارل» أحصل على معرفة عالمية. سأسير في الطريق الملكي: إن الألزاس الشهيدة ستدخل في شخصي مدرسة المعلمين العليا وتنجح نجاحاً باهراً في مسابقة الأجريجاسيون[4] وتصبح هذا الأمير: أستاذ الآداب. وذات مساء، أعلن أنه يريد أن يكلمني كلام رجال، فانسحبت المرأتان ووضعني على ركبتيه وحدثني بوقار. إني سوف أكتب وهذا أمر مفروغ منه، وكنت أعرفه معرفة كافية بحيث لا أخشى أن يقاوم رغباتي، ولكن كان يجب أن نواجه الأشياء بجلاء.. إن الأدب لا يعول صاحبه. ألا أعلم أن كتّاباً مشهورين ماتوا جوعاً؟ وأن آخرين اضطروا لأن يبيعوا أنفسهم ليأكلوا؟ فإن كنت أريد أن أحتفظ باستقلالي كان من الأنسب أن أختار مهنة ثانية. إن التعليم يترك أوقات فراغ. إن شواغل الجامعيين قريبة من شواغل الأدباء وسوف أمر كثيراً من كهنوت إلى آخر؛ سوف أعيش في صحبة كبار المؤلفين؛ وبجهد واحد سوف أكشف لتلاميذي عن مؤلفاتهم وأنهل منها وحيي. سوف أسلي وحدتي الريفية بنظم القصائد وبترجمة هوارس[5] بأشعار غير مقفاة، وسوف أبعث للصحف المحلية أعمدة أدبية قصيرة، وللمجلة التربوية مقالاً رائعاً عن تعليم اللغة اليونانية، وآخر عن سيكولوجية المراهقين. وبعد موتي سوف يجدون في أدراجي مولفات لم تنشر، وتأملاً في البحر، وملهاة من فصل

---

(١) شاعر فرنسي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رئيس مدرسة ما قبل الرمزية في الشعر. (المترجم). (٢) عملة فرنسية قديمة كانت تساوي ٢٠/١ من الفرنك (المترجم).

(٣) بعد هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية سُلخت منها مقاطعتا الألزاس واللورين وضمتا إلى ألمانيا (المترجم). (٤) مسابقة لاختيار مدرسين لمدارس الليسيه وبعض الكليات. (المترجم).

(٥) مسرحية شعرية للشاعر الفرنسي راسين (المترجم).

واحد، وبحثاً عميقاً ومؤثراً في بضع صفحات عن آثار أورياك[1] يصلح أن يكون كتيباً يعنى بنشره تلاميذي القدامى.

ومنذ بعض الوقت، حين كان جدي يبدي دهشته أمام فضائلي، كنت أظل جامداً؛ إن الصوت الذي كان يرتجف حباً وهو يناديني «هبة السماء»، كنت أتظاهر بالاصغاء إليه، ولكن الأمر انتهى بي إلى عدم سماعه. لِمَ أصغيت إليه في ذلك اليوم، في الوقت الذي كانت أذني تكذب عن عمد تام؟ وبأي سوء فهم جعلته يقول عكس ما كانت تزعم أن تُعلمني؟ ذلك أنها تغيّرت: لقد جفت وتصلبت، فخلتها أذن الغائب الذي جعلني أرى النور. كان لشارل وجهان: فحين كان يلعب دور الجد، كنت أعتبره مهرجاً من نوعي فلا أحترمه. ولكن إذا تحدث إلى السيد سيمونو وإلى أبنائه، وإذا جعل امرأتيه تخدمانه على المائدة وهو يشير باصبعه – دون أن ينبس بكلمة واحدة – إلى وعاء الزيت أو سلة الخبز كنت أُعجب بسلطته. إن حركة سبابته بخاصة كانت تجعلني أهابه. كان يحرص على عدم مدها وعلى تحريكها في الهواء بغموض، وهي نصف مثناة، كي يكون المشار إليه غير محدود وكي تخمن خادمتاه أوامره. وكانت جدتي تخطئ وقد عيل صبرها، فتتقدم له وعاء الفاكهة المطبوخة بالسكر في حين كان يطلب ماء. كنتُ ألوم جدتي، وأنحني أمام رغباته الملكية التي تريد أن تسبق أكثر من أن تلبي. ولو أن «شارل» صاح من بعيد فاتحاً ذراعيه: «ها هو ذا هوجو الجديد، هذا شكسبير الصغير!» لكنت اليوم رساماً صناعياً أو معلم آداب. ولكنه حرص على تجنب ذلك. ولأول مرة توجهت للبطريرك؛ كان يبدو حزيناً ووقوراً إلى الحد الذي جعله ينسى أن يعبدني! كان موسى وهو يملي الشريعة الجديدة شريعتي! إنه لم يذكر ميلي إلا لينبهني إلى أضراره، فاستنتجت أنه اعتبره أمراً مفروغاً منه. لو تنبأ لي بأنني سأبلل ورقتي بدموعي أو أنني سأتمرغ على سجادة، لأجفل اعتدالي البورجوازي. لقد أقنعني بموهبتي بأن جعلني أفهم أن هذه الفوضى الفخمة لم تكن مخصصة لي. فلكي أبحث في أورياك أو في التربية ليست ثمة حاجة إلى حمى مع الأسف ولا ضوضاء. إن نحيب القرن العشرين الخالد سوف يتكفل به آخرون. ورضيت بألا أكون زوبعة أبداً ولا صاعقة، وأن ألمع في الأدب بصفات بيتية.. بظرفي واجتهادي. وبدت لي مهنة الكتابة نشاطاً للكبار. إنها غاية في الجدية وتافهة، وفي الحقيقة غير ذات أهمية إلى الحد الذي جعلني لا أشك لحظة في أنها خصصت لي. قلت في نفسي في آن واحد: «ليس سوى ذلك» و «أنا موهوب». وككل الذين يعيشون على أوهام كاذبة خلطت خيبة الأمل بالحقيقة.

لقد سلخني «كارل» كما يسلخ الأرنب: كنت أعتقد بأنني لن أكتب إلا لأثبت أحلامي، في حين – لو صدقته – لا أحلم إلا لأدرب قلمي! إن قلقي وأهوائي الخيالية لم تكن إلا حيل موهبتي، ولم يكن لديها عمل سوى أن تعيدني كل يوم إلى قمطري وأن

(١) مدينة صغيرة في فرنسا مشهورة بمنازلها القديمة (المترجم).

تقدم لي الموضوعات القصصية التي تناسب سني في انتظار الاملاءات الكبيرة التي سأتلقاها عن التجربة والنضوج. لقد فقدت أوهامي الخرافية. وكان جدي يقول: «لا يكفي أن تكون لنا عينان، بل أن نتعلم كيف نستخدمها. هل تعلم ماذا كان يفعل «فلوبير» حين كان «موباسان» صغيراً؟ كان يجلسه أمام شجرة ويعطيه ساعتين ليصفها». فتعلمت إذاً أن أرى. ولما كنت المنشد الموعود بصروح أورياك، فقد نظرت بحزن إلى هذه الآثار الأخرى: كرتونة المكتب والبيانو والساعة التي سوف تخلّدها هي أيضاً - ولِمَ لا؟ - أعمالي المستقبلية. وأخذت ألاحظ. كانت لعبة محزنة ومخيبة للأمل. كان لابد من الوقوف أمام الكرسي ذي المساند المنجد بالمخمل الجيِّد وفحصه. ما الذي يمكن أن يقال عنه؟ أنه مغطى بقماش أخضر، وخشن وإن له ذراعين وأربع أرجل ومسنداً تحلي أعلاه جوزتا صنوبر مصنوعتان من خشب. كان ذلك هو كل شيء حتى تلك اللحظة، ولكني سأعود إليه وسأكون أفضل في المرة القادمة، وسوف ينتهي الأمر بي إلى معرفته معرفة دقيقة مفصَّلة. وبعد ذلك سوف أصفه، ولسوف يقول القراء: «يا لها من ملاحظة دقيقة، إننا نراه، إنه هو! هذه قسمات لا تخترع!» ولما كنت أصور أشياء حقيقية، بكلمات حقيقية كُتِبَت بقلم حقيقي، فمن المؤسف ألا أصبح أنا أيضاً حقيقياً. وبالاختصار كنت أعرف نهائياً بِمَ يجب الرد على المفتشين الذين يطلبون تذكرتي مني.

كنتُ أقدر بلا شك سعادتي! وما كان يضايقني هو أنني لم أكن أتمتع بهذه السعادة. كنتُ صاحب وظيفة. لقد تفضلوا وجادوا عليَّ بمستقبل وكنت أعلن أنه ساحر، ولكني كنتُ أكرهه سراً. هل طلبت وظيفة كاتب المحكمة تلك؟ إن معاشرة الرجال الكبار أقنعتني بأنه لا يمكن للمرء أن يصبح كاتباً دون أن يصبح مشهوراً؛ ولكن حين كنتُ أقارن المجد الذي أصابني بالمؤلفات الصغيرة التي سوف أتركها خلفي، كنت أشعر بانخداعي: هل أستطيع أن أتصور حقيقة أن أحفاد أخوالي سوف يقرأونني كذلك، وأنهم سوف يتحمسون لعمل بهذا الصغر، لموضوعات كانت تبعث فيَّ الملل مُسبقاً؟ كنت أقول في نفسي أحياناً إني سوف أنقذ من النسيان بفضل «أسلوبي»، هذه الفضيلة المُلغزة التي كان جدي ينكرها على «ستاندال[1]» ويعترف بها «لرينان[2]». ولكن هذه الكلمات التي بلا معنى لم تتوصل إلى طمأنتي.

كان لابد أن أتخلى عن نفسي قبل كل شيء. كنت قبل ذلك بشهرين مبارزاً بالسيف ومصارعاً: ولكن ذلك قد انتهى. وأُمرت بأن أختار بين «كورني[3]» و «بارديان[4]» الذي

---

(١) كاتب فرنسي ولد عام ١٧٩٣ وتوفي عام ١٨٤٢. تميز بأسلوبه العصبي وبحساسيته التي أخفاها تحت مظاهر تهكمية. (المترجم). (٢) كاتب فرنسي ولد عام ١٨٢٣ وتوفي عام ١٨٩٢ تخصص في دراسة اللغات السامية وفي تاريخ الديانات. من أشهر مؤلفاته: مستقبل العلم، تاريخ أصول المسيحية، وتاريخ شعب اسرائيل. اتسمت أعماله بالعقلانية. (المترجم). (٣) شاعر فرنسي من شعراء القرن السابع عشر، ألف مسرحيات شعرية. (المترجم). (٤) أحد أبطال مسرحية من تأليف كورني. (المترجم).

كنت أحبه حباً حقيقياً؛ واخترت كورني خضوعاً. لقد رأيت الأبطال يجرون ويتصارعون في حديقة اللكسمبورج؛ ولما كان جمالهم قد هزمني، فقد فهمت أني من فصيلة أدنى. كان لابد من إعلان ذلك ووضع السيف في غمده واللحاق بالماشية العادية، ومعاودة الاتصال بكبار الكتاب، هؤلاء الأقزام الذين لم يكونوا يخيفونني. لقد كانوا أطفالاً كسحاناً وكنت أشبههم في ذلك على الأقل ثم أصبحوا بالغين ضعاف البنية وشيوخاً مصابين بالنزلة الشعبية، ولسوف أشبههم في ذلك. لقد أرسل أحد النبلاء من يضرب «ڤولتير»، وربما سيضربني بالسوط ضابط مدع قديم من هؤلاء الذين نراهم في الحدائق العامة.

واعتقدت مسلماً بأني موهوب: ففي مكتب «شارل شفايتزر»، بين الكتب المتعبة ذات الأغلفة الممزوقة والأجزاء الناقصة، كانت الموهبة هي أحقر ما يوجد على الأرض. وهكذا، في عهد ما قبل الثورة، كان عدد كبير من الجيل الأصغر المكرسين منذ ولادتهم للكهنوت، يفضلون بذل نفوسهم من أجل قيادة فرقة من الجند. لقد أجملت في نظري إحدي الصور زمناً طويلاً - أبهة الشهرة المشئومة: مائدة طويلة مغطاة بمفرش أبيض عليها قنينات شراب البرتقال وزجاجات النبيذ الفوار. كنت آخذ كأساً، وقد أحاط بي رجال بحللهم الرسمية - كانوا خمسة عشرعلى الأقل - يشربون نخبي، وتبينت خلفنا رحابة قاعة مغبرة من القاعات التي تؤجر للحفلات. من الواضح أني لم أكن أنتظر شيئاً بعد ذلك من الحياة سوى أن تبعث لي في أواخر الحياة العيد السنوي لمعهد اللغات الحيَّة.

وهكذا تشكل مصيري في المنزل رقم ١ شارع لوجوف في شقة بالطابق الخامس، تحت «جوته» و «شيلر»، وفوق «موليير» و «راسين» و «لافونتين» وفي مواجهة «هنري هيني[١]» و «ڤيكتور هوجو» وخلال أحاديث أعيدت مائة مرة: كنت أنا و «كارل» نطرد المرأتين ونتعانق عناقاً شديداً، وكنا نتابع همساً محاورات الصم هذه، وكانت كل كلمة منها تؤثر فيَّ. وبلمسات صغيرة أحسن وضعها، كان شارل يقنعني بأني لستُ عبقرياً. وبالفعل فأنا لست عبقرياً، كنتُ أعلم ذلك ولا أبالي به. ولما كانت البطولة غائبة وغير ممكنة فقد كانت هدف هواي الوحيد. إنها شعلة النفوس الفقيرة، وإن تعاستي الداخلية، وشعوري بأني نافلة كان يمنعاني من العدول عنها تماماً. لم أكن أجرؤ على الفرح بعملي القادم، ولكنني في الواقع كنت مرعوباً. لابد أنهم أخطأوا في الطفل أو في الموهبة. ولما كنت ضائعاً فقد قبلت، لأطيع كارل، المهنة لكاتب قاصر. وبالاختصار فقد ألقى بي في الأدب بالعناية التي بذلها لصرفي عنه: إلى الحد الذي يدعوني حتى اليوم لأن أسأل نفسي، حين يكون مزاجي معكراً، إن لم أكن أنفقت كل هذه الأيام والليالي، وملأت كل هذا الورق بحبري، وطرحت في السوق كل هذه الكتب التي لم يكن يتمناها أحد في سبيل أمل وحيد، مجنون هو أن أرضي جدي. إنه لمضحك أن أجد نفسي، وأنا فوق الخمسين، مورطاً، كي أحقق

(١) شاعر ألماني ولد في دسلدورف ١٧٩٧ وتوفي في باريس سنة ١٨٥٦. اشتهر بأشعاره الساخرة الحزينة (المترجم).

رغبات رجل مات من زمن بعيد، في مشروع كان لن يتوانى عن إنكاره.

والحقيقة أني أشبه «سوان» الذي شفي من حبه وقال متنهداً: «لو قلتُ إني أضعت حياتي من أجل امرأة لم تكن تناسبني!» أحياناً أكون فظاً في الخفاء: وهو تدبير صحي بدائي. ولكن الفظ يكون دائماً على حق، ولكن إلى حد ما. صحيح أني غير موهوب للكتابة؛ لقد قالوها لي وعاملوني على أني قوي في الترجمة إلى لغة أخرى: أنا واحد من هؤلاء، وتنبعث من كتبي رائحة العرق والتعب. واعترف أنها تزكم أنوف أرستقراطيينا. وغالباً ما كتبتها على الرغم مني، أي على الرغم من الجميع[1]، في جهد عقلي مفرط انتهى به الأمر ليصبح توتراً في أوعيتي الدموية. لقد خاطوا لي وصاياي تحت جلدي: فإذا ظللت يوماً دون كتابة آلمتنى الندبة؛ وإذا كتبت بمنتهى السهولة آلمتني أيضاً. إن هذا المطلب المعقد يدهشني اليوم بصلابته ورعونته: إنه يشبه هذه السراطين المزركشة التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي يلقى بها البحر على شواطئ لونج آيلاند. إن هذا المطلب يظل حياً مثلها، بعد أزمنة ولّت. لقد حسدتُ زمناً طويلاً بوابي شارع لاسيبيد حين يخرجهم المساء والصيف على الطوار وقد ركبوا على كراسيهم. إن عيونهم البريئة ترى دون أن تُكلَّف بالنظر.

غير أنه: فيما عدا بعض المسنين الذين يغمسون أقلامهم في ماء الكولونيا وبعض المتحذلقين الذين يكتبون كالجزارين، فإن الأقوياء في الترجمة إلى لغتهم لا وجود لهم. ويعود ذلك إلى طبيعة الكلمة. إننا نتحدث بلغتنا ونكتب بلغة أجنبية. أستنتج من ذلك أننا جميعاً سيان في مهنتنا: جميعنا محكوم علينا بالأشغال الشاقة، وجميعنا موشوم. وقد فهم القارئ أيضاً أنني أكره طفولتي وما هو باق منها: صوت جدي، هذا الصوت المسجل الذي يوقظني مرتجفاً ويقذف بي إلى منضدتي، وما كنت لأصغي لهذا الصوت لو لم يكن صوتي، لو لم أسترد لحسابي، في غطرستي، وأنا بين الثامنة والتاسعة، الأمر الصارم الذي تلقيته أيام ذلتي.

---

(١) «سايروا أنفسكم يحبكم المسايرون الآخرون، مزقوا جاركم فإن الجيران الآخرين سوف يضحكون. ولكن إن ضربت روحك فإن كل الأرواح سوف تصرخ».

«إني أعلم جيداً أنني لست إلاً آلة
لعمل الكتب».

(شاتوبريان)

كدت أنقض وعدي. إن الموهبة التي اعترف «كارل» لي بها كرهاً، وقد رأى أنه ليس من الحكمة انكارها تماماً- كنتُ لا أرى فيها في الواقع إلاً صدفة غير قادرة على تحليل هذه الصدفة الأخرى التي هي أنا. كان لأمي صوت جميل وكانت تغني إذاً. ولكن كثيراً ما كانت تسافر بلا تذكرة. أما أنا، فكنت ميالاً للأدب: سوف أكتب إذاً، سوف أستغل هذا المنجم طول حياتي. ولكن الفن فَقَد- على الأقل بالنسبة لي- سلطاته المقدسة. سوف أظل مشرداً- ولكن مجهزاً أحسن قليلاً، هذا كل ما في الأمر. وكي أشعر بضرورتي، لابد من أن أطلب. لقد ربتني عائلتي بعض الوقت في هذا الوهم؛ وكررت عليَّ أنني هبة السماء وأنني مُرتقب جداً، وضروري لجدي ولأمي، ولم أعد أصدق ذلك، ولكني احتفظت بهذا الشعور: إن المرء يولد زائداً عن الحاجة، إلا إذا جاء لهذا العالم خصوصاً - من أجل شيء ينتظره. إن كبريائي ووحدتي وصلا في ذلك الوقت إلى الحد الذي جعلني أتمنى الموت أو أن تطلبني الأرض كلها.

لم أعد أكتب: إن تصريحات السيدة بيكار أضفت على مناجيات قلمي أهمية لم أجرؤ معها بعد ذلك على متابعتها. وعندما أردت العودة إلى رواياتي، لأنقذ على الأقل الفتى والفتاة اللذين تركتهما دون مؤن ولا قبعة المناطق الحارة في وسط الصحراء - عرفت أهوال العجز. فما أن أجلس حتى يمتلئ رأسي بالضباب. كنت أقضم أظافري وأنا أكشر بوجهي. لقد فقدت البراءة. كنت أقف وأجول في الشقة بروح مضرم النار؛ ولكني ويا للأسف، لم أشعل النار فيها قط. ولما كنت وديعاً بوضعي وذوقي وعادتي، فإني لم أعد إلى التمرد بعد ذلك إلا لأني كنت قد وصلت بخضوعي إلى أقصى حد. لقد اشتروا لي «كراسة واجبات» مغلفة بقماش أسود بحواف حمراء. لم تكن فيها أية علامة خارجية تميزها عن «كراسة رواياتي». وما أن نظرت إليها حتى اختلطت واجباتي المدرسية والتزاماتي الشخصية بعضها ببعض، كنتُ أطابق المؤلف على التلميذ، والتلميذ على معلم المستقبل. كانت الكتابة وتعليم قواعد اللغة شيئاً واحداً؛ لقد سقط قلمي المؤمم من يدي وظللت عدة شهور دون أن أعود إلى الإمساك به. كان جدي يبتسم في سره حين كنت أجرُّ عبوسي إلى مكتبه: لا شك أنه كان يقول في نفسه إن سياسته كانت تحمل ثمارها الأولى.

ولكنها أخفقت لأن رأسي كانت ملحمية. لقد تحطم سيفي وألقى بي مع العامة، وغالباً ما كنت أحلم بهذا الحكم المقلق، كنت أحلم بأني في حديقة اللوكسمبورج، بالقرب من البركة في مواجهة مجلس الشيوخ؛ كان عليَّ أن أحمي من خطر غير معروف- بنتاً صغيرة شقراء تشبه ڤيڤي التي كانت قد ماتت قبل ذلك بعام. كانت الصغيرة تتطلع إليَّ بعينيها الرزينتين في هدوء وثقة؛ وغالباً ما كانت تمسك بطوق. كنتُ أنا الخائف: كنتُ

أخشى أن أتركها لقوى غير مرئية. ومع ذلك كم كنت أحبها وبأي حب حزين! وما زلت أحبها؛ لقد بحثتُ عنها وفقدتها، ووجدتها وضممتها بذراعي وفقدتها ثانية. هذه هي الملحمة. وفي الثامنة من عمري، في الوقت الذي كنت سأستسلم فيه انتابتني رجفة عنيفة. وكي أنقذ هذه الميتة الصغيرة، ألقيت بنفسي في عملية بسيطة وجنونية حولت مجرى حياتي: لقد أعطيت للكاتب سلطات البطل المقدس.

وفي الأصل كان هناك اكتشاف أو بالأحرى تذكر- حدثني قلبي به قبل ذلك بسنتين: حدثني بأن المؤلفين الكبار يمتون إلى الفرسان الجائلين بصلة وهي أن هؤلاء وأولئك يثيرون شواهد مفعمة بعرفان الجميل. وبالنسبة لبارديان، لم تكن هناك حاجة إلى برهان: إن دموع اليتيمات الشاكرات قد حفرت مجرى في ظهر يده - ولكن إذا صدقنا قاموس لاروس الكبير وتراجم المتوفين التي كنت أقرأها في الجرائد، فإن الكاتب لم يكن أقل خطورة. فإذا حدث وطال به العمر، ينتهي به الأمر حتماً إلى أن يتسلّم خطاباً من مجهول يشكره. ومنذ تلك اللحظة لا ينقطع سيل خطابات الشكر، وتتراكم على مكتبه وتزحم شقته؛ ويعبر بعض الأجانب البحار ليحيّوه؛ وبعد موته يكتتب مواطنوه ليشيدوا له نصباً تذكارياً؛ وفي المدينة التي وُلد فيها وأحياناً في عاصمة بلده تتسمى باسمه بعض الشوارع. إن هذا التكريم لم يكن يهمني في ذاته: إنه يذكرني كثيراً بالتمثيلية العائلية. غير أن صورة أهاجتني: إن «ديكنز» الروائي الشهير سيصل بالبحر بعد بضع ساعات إلى نيويورك، وتشاهد من بعيد السفينة التي تقله ويتجمع الجمهور على الرصيف ليرحب به ويفتح أفواهه كلها ويلوّح بألف قبعة. إن الزحام شديد لدرجة أن الأطفال يكادون يختنقون، ومع ذلك فهذا الجمهور وحيد ويتيم وأرمل وقفر لغياب واحد، هو الرجل الذي ينتظر وصوله. وهمست: «ينقص شخص واحد هنا، وهذا الشخص هو ديكنز!» وصعدت الدموع إلى عينيّ. ومع ذلك فقد نحّيت هذه التأثرات ورجعت رأساً إلى أسبابها، وقلت في نفسي: لكي يُهتف لرجال الأدب بهذا الهتاف الجنوني لابد أنهم يواجهون أشد المخاطر، ويقدمون للانسانية أجل الخدمات. لقد حضرت مرة واحدة في حياتي مثل هذا الحماس الشديد. كانت القبعات تتطاير، وكان الرجال والنساء يصيحون: مرحى، مرحى. كان ذلك في عيد ١٤ يوليو[1]، وكان القناصة الجزائريون يمرون في الاستعراض العسكري. إن هذه الذكرى انتهت بإقناعي: فعلى الرغم من عيوبهم الجسمية وتكلفهم وأنثويتهم الظاهرة، كان زملائي أنواعاً من الجنود، يخاطرون بحياتهم جنوداً غير نظاميين في معارك غامضة. إنهم يصفقون لشجاعتهم العسكرية أكثر مما يصفقون لموهبتهم. قلت في نفسي: هذا حق إذاً! إننا في حاجة إليهم. ففي باريس ونيويورك وموسكو ينتظرونهم في قلق شديد أو في إعجاب شديد قبل أن ينشروا كتابهم الأول، قبل أن يبدأوا في الكتابة، لا بل قبل أن يولدوا.

(١) عيد الثورة الفرنسية الكبرى ثورة ١٧٨٩ (المترجم).

ولكن.. أنا؟ أنا الذي رسالته الكتابة؟ إنهم كانوا ينتظرونني. لقد حولت «كورني» إلى «بارديايان»: احتفظ بساقيه المعوجتين وصدره الضيِّق ووجهه الشاحب، ولكني نزعت عنه بخله وحبه للربح، لقد خلطت عمداً بين فن الكتابة والكرم. وكان من السهل بعد ذلك أن أحوِّل نفسي إلى «كورني» وأن أعطي نفسي هذا التوكيل: حماية النوع. إن خدعتي الجديدة كانت تُعدُّ دوراً غريباً؛ لقد ربحت في الحال كل شيء. ولما كنت ذا طبيعة سيئة، فقد بحثتُ بجهودي لأولدُ ثانية: إن توسلات البراءة التي في خطر قد أثارتني ألف مرة. ولكن كان ذلك للضحك. ولما كنت فارساً مزوّراً، فقد قمت ببطولات مزوَّرة، أدى عدم صلابتها إلى تقززي منها. ولكن ها هم أولاء يردون لي أحلامي وتتحقق هذه الأحلام. ذلك أن دعوتي كانت واقعية، ولا أستطيع أن أشك في ذلك بما أن الكاهن الكبير قد ضمنه. ولما كنت طفلاً خيالياً، فقد أصبحت مغامراً حقيقياً قد تكون مفاخره كتباً حقيقية. كنتُ مطلوباً! كانوا ينتظرون عملي، ولم يظهر جزؤه الأول على الرغم من جهدي قبل سنة ١٩٣٥. وفي حوالي سنة ١٩٣٠ بدأ صبر الناس ينفذ، فيقولون فيما بينهم: «إن هذا الرجل يتباطأ! إنه يُطعم منذ خمس وعشرين سنة دون أن يفعل شيئاً! هل سنموت دون أن نقرأه؟» وكنت أُجيبهم بالصوت الذي كان لي عام ١٩١٣: «أتركوا لي وقتاً للعمل!» ولكن بلطف. كنت أرى جيداً - والله وحده يعرف السبب - أنهم في حاجة إلى مساعدتي، وأن هذه الحاجة قد جعلتني أنا الوسيلة الوحيدة لاجابة هذه الحاجة. كنتُ أجتهد لمباغتة هذا الانتظار العالمي في أعماق نفسي، ينبوعي الحي وسبب وجودي، كنت أعتقد أحياناً أنني على وشك النجاح، ولكن بعد لحظة، كنت أترك كل شيء يمضي في سبيله. ومهما يكن الأمر: فإن هذه الايحاءات كان تكفيني. وأنظر إلى الخارج مطمئناً فلربما كنت ناقصاً في بعض الأماكن. ولكن لا: فلا زال الوقت مبكراً. ولما كنت هدفاً جميلاً لرغبة ما زالت تجهل نفسها، فقد قبلتُ بفرح أن أظل بعض الوقت متنكراً. وكانت جدتي تصحبني أحياناً إلى قاعة المطالعة. فكنت أتسلى برؤية سيدات طويلات القامة، حالمات وغير راضيات، ينتقلن من حائط إلى آخر بحثاً عن المؤلف الذي يشفي غليلهن: ولكن كن لا يعثرن عليه لأنه كان أنا، هذا الطفل الذي كان بين أرجلهن ولا ينظرن إليه.

كنتُ أضحك خبثاً وأبكي شفقة: لقد قضيت حياتي القصيرة مبتكراً لنفسي أذواقاً وآراء متحيِّزة كانت لا تلبث أن تذوب. ولكن ها هم يسبرون غوري ويصطدمون بالضجر. كنت كاتباً كما كان «شارل شفايتزر» جَداً: بالولادة وإلى الأبد! ولكن كان يحدث أن يبرز قلق تحت الحماس: إن الموهبة التي كنت أعتقد أن شارل ضمنها. كنت أرفض أن أعتبرها حادثة، ورتبت أمري لأجعل منها توكيلاً، ولكن لعدم وجود تشجيع ومطالبة حقيقية، فإني لم أكن أستطيع أن أنسى أنني كنت أعطي هذه الموهبة لنفسي. ولما كنت خارجاً من عالم ما قبل الطوفان، ففي اللحظة التي كنت أنفلت فيها من الطبيعة لأصبح أنا آخر الأمر، هذا الآخر الذي كنتُ أدعي أنني هو في عيون الآخرين، كنت أواجه مصيري، وقد تعرفتُ عليه: لم تكن إلا حريتي واقفة أمامي بفضل جهودي، كأنها سلطة غريبة.

وبالاختصار، فإني لم أتوصل إلى خداع نفسي تماماً. ولا أن أتيقظ تماماً. كنت أتذبذب. وبعث ترددي مشكلة قديمة إلى الحياة: كيف أضم يقين ميشيل ستروجوف إلى كرم بردايان؟ وحين كنت فارساً لم أتلق أوامر قط من الملك؟ هل ينبغي أن أقبل أن أكون مؤلفاً بالأمر؟ ولم يكن الضيق يطول كثيراً قط؛ كنت فريسة لاعتقادين متعارضين، ولكني كنت أرتضي تناقضهما تماماً. لا بل كان ذلك يُلائمني فأكون هبة السماء وابن أعمالي في الوقت نفسه. وفي أيام اعتدال مزاجي، كان كل شيء ينبعث من داخلي. وكنت أنفلت من العدم بقواي الذاتية لكي أقدم للناس المطالعات التي يتمنونها. ولما كنت طفلاً مطيعاً، فلسوف أطيع حتى اليوم، ولكن.. نفسي. وفي ساعات الحزن، حين كنت أشعر بتفاهة استعدادي المنفرة، لم أكن أستطيع أن أهدئ نفسي إلا باستعجال قدري. لقد استدعيت النوع الإنساني وأسندت إليه مسئولية حياتي، فأنا لم أكن إلاّ نتاج مطلب جماعي. وفي أغلب الأحيان، كنت أراعي راحة قلبي، مجتهداً في ألاّ أستبعد استبعاداً كاملاً - الحرية التي تحمس، ولا الضرورة التي تبرر.

كان في استطاعة باردايان وستروجوف أن يعيشا متفقين. كان الخطر في مكان آخر، وقد وجدت نفسي شاهداً في مواجهة مكدرة، اضطرتني فيما بعد إلى اتخاذ بعض الاحتياطات. إن المسئول الكبير هو زيفاكو الذي لم أكن أشك فيه؛ هل أراد أن يضايقني أو أن يحذرني؟ الواقع أنه ذات يوم في مدريد وفي أحد الخانات، حين كنت لا أنظر إلا لبردايان، وكان هذا المسكين يستريح وهو يحتسي كأساً من النبيذ يستحقه تماماً، لفت هذا المؤلف انتباهي إلى زبون لم يكن سوى «سرفانتيس[1]». وتعارف الرجلان وأبدى كل منهما تقديره للآخر وذهبا ليحاولا القيام معاً بهجوم شجاع. والأسوأ من ذلك أن سرفانتيس أسرّ، وكله سعادة، إلى صديقه الجديد، أنه يريد أن يكتب كتاباً. وحتى ذلك الحين، كانت الشخصية الرئيسية للكتاب لا تزال غير واضحة. ولكن ظهر بحمد الله بردايان ليكون نموذجاً له. واستولى عليَّ الغضب وكدت ألقي بالكتاب. يا لها من قلة ذوق! لقد كنت كاتباً - فارساً، وكانوا يقسمونني نصفين، وكان كل نصف يغدو إنساناً كاملاً ويقابل النصف الآخر وينازعه. لم يكن بردايان أبله، ولكنه لم يكن قط ليكتب «دون كيشوت». إن سرفانتيس يتعارك جيداً، ولكن لم يكن من المتوقع أن يهزم وحده عشرين من الجنود المرتزقة الهاربين. إن صداقتهما نفسها كانت تؤكد حدودهما. وكان الأول يقول في ذاته «إن هذا المدعي المضحك لضعيف الصحة بعض الشيء ولكن الشجاعة لا تنقصه». ويقول الثاني في نفسه: «بالنسبة لجندي من الجنود المرتزقة، فإن تفكير هذا الرجل ليس غاية في السوء» ثم إني لم أكن أحب قط أن يُعتبر بطلي نموذجاً لفارس «الوجه الحزين». ففي أيام «السينما» أهدوني الطبعة المهذبة لدون كيشوت، ولم أقرأ منها أكثر من خمسين صفحة.

(١) كاتب أسباني عاش بين سنة ١٥٤٧ وسنة ١٦١٦. اشتهر بالدعابة والهجاء. وألف رواية (دون كيشوت) وهي صورة ساخرة لروايات الفروسية التي كثرت في عهده (المترجم).

كانوا يسخرون علانية من بطولاتي! وها هو ذا زيفاكو نفسه.. ففي مَنْ أثق إذاً؟ لقد كنتُ في الحقيقة عاهرة، بنتاً من البنات اللواتي يعابثن الجنود. إن قلبي، قلبي الجبان كان يفضّل المغامر على المفكر؛ كنت خجلاً لأنني لم أكن سوى سرفانتيس. ولكي أمنع نفسي من أن أخون، جعلت السيادة للارهاب في رأسي وفي مجموعة مفرداتي، فقد كنت أطارد كلمة البطولة وبديلاتها، وأبعدت الفرسان الجائلين، وكلمت نفسي دون انقطاع عن رجال الأدب وعن الأخطار التي يتعرضون لها، وعن قلمهم الحاد الذي يطعن الأشرار. وتابعتُ قراءة بردايان وفاوست والبؤساء وأسطورة القرون، وبكيت على جان فالجان[1] وايفيرادنوس، ولكن حين كنت أقفل الكتاب، كنت أمحو أسماءهم من ذاكرتي وكنت أتم على فيلقي الحقيقي، سيلفيو بليكو: المسجون مدى الحياة. أندريه شينييه[2]: الذي ضرب عنقه بالمقصلة. اتيين دوليه[3]: الذي أحرق حياً. بايرون الذي مات من أجل اليونان. واجتهدت بانفعال في تغيير وجه موهبتي بأن صببت فيها أحلامي القديمة ولم يثنني شيء: فلويتُ الأفكار، وحرّفتُ معنى الكلمات، وتحصنت من العالم خوفاً من اللقاءات السيئة والمقارنات وحلّت التعبئة الكاملة والدائمة محل فراغ نفسي: فقد أصبحتُ دكتاتورية عسكرية.

واستمر القلق بشكل آخر: ليس هناك أفضل من شحذ موهبتي. ولكن ما جدواها؟ لقد كان الناس في حاجة إليّ.. ولمَ؟ لقد سألتُ نفسي للأسف عن دوري وعن مصيري. وسألت: «وأخيراً.. ما الأمر؟». وفي هذه اللحظة، خلتُ أن كل شيء قد ضاع. لا شيء! ليس بطلاً من يريد أن يكون بطلاً، و لا تكفي لا الشجاعة ولا الموهبة.. لابد من وجود أفاع بسبعة رؤوس وتنانين. لم أكن أرى منها شيئاً في أي مكان. لقد تصارع «ڤولتير» و«روسو» بهمة قعساء في زمانهما: ذلك أنه كان لا يزال هناك طغاة. وأنزل «هوجو» صواعقه من جزيرة جونيزيه على بادانجيه[4]، الذي علّمني أن أكرهه. ولكني لم أكن أحس بميزة في الاعلان عن كراهيتي، ذلك أن هذا الامبراطور كان قد مات منذ أربعين سنة. وظل «شارل» صامتاً فيما يتعلق بالتاريخ المعاصر. إن هذا المشايع للضابط دريفوس لم يحدثني قط عن دريفوس. يا للأسف! فبأي حماس كنت سألعب دور «زولا»[5]، فإذا قرعتُ وأنا خارج من المحكمة، كنت سألتفتُ ورائي عندئذ وأنا على درج عربتي وحطمتُ أكثر هؤلاء المقرّعين هياجاً. كلا، كلا: كنت سأجد كلمة مرعبة تردهم على أعقابهم. وسأرفض أنا بلا شك أن أفرّ إلى انجلترا. ويا لها من سعادة أن أصبح «جريزليديس» ثانية،

(١) بطل رواية البؤساء لڤكتور هوجو (المترجم). (٢) شاعر فرنسي ولد بالآستانة سنة ١٧٦٢. اشترك في الحركة الثورية أول الأمر ثم احتجّ على تطرف عهد الارهاب فأعدم على المقصلة سنة ١٧٩٤. (المترجم). (٣) فقيه في اللغة وطابع فرنسي ولد في سنة ١٥٠٩. أحرق في باريس ١٥٤٦ لآرائه الجريئة (المترجم). (٤) الامبراطور نابليون الثالث الذي هاجم حكمه الكاتب الفرنسي ڤكتور هوجو (المترجم). (٥) دافع إميل زولا الكاتب الفرنسي عن الضابط دريفوس وطالب بإعادة محاكمته (المترجم).

بعد أن أنكروني وخذلوني، وأن أذرع طرقات باريس، دون أن أشك لحظة واحدة أن البانثيون[1] ينتظرني.

كانت جدتي تتسلم كل يوم صحيفة «الماتان»، وإن لم أخطئ، صحيفة «الاكسلسيور». لقد عرفت وجود اللصوصية والاحتيال اللذين كنت أكرههما مثل كل الشرفاء. ولكن هذه النمور ذات الوجه البشري لم تكن لترضيني: إن السيد ليبين[2] الجسور كان يكفي لكبحها. وكان العمال يغضبون أحياناً فلا تلبث رؤوس الأموال أن تطير، ولكني لم أعلم شيئا عن ذلك وأجهل أيضاً رأى جدي في ذلك. كان يؤدي بدقة واجباته كناخب. كان يخرج بعد أن يدلي بصوته وقد استرد شبابه وبدا مزهواً بعض الشيء. وحين كانت امرأتانا تغيظانه بسؤاله «قل لنا لمن تعطي صوتك!» كان يجيب بجفاء: «إنها مسألة تخص الرجال!». ولكن حين تم انتخاب رئيس الجمهورية الجديد، أفهمنا، في لحظة عدم تكلُّف، أنه يرثي لترشيح بامز[3]، وصاح بسورة غضب: «إنه بائع سجاير!». إن هذا المثقف الذي ينتمي إلى الطبقة البورجوازية الصغيرة كان يريد أن يكون الموظف الأول في فرنسا أحد أترابه، مثقفاً من الطبقة البورجوازية الصغيرة .. بوانكاريه[4].وتؤكد لي أمي اليوم أنه كان يعطي صوته للحزب الراديكالي، وأنها كانت تعلم ذلك جيداً، ولم يكن ذلك يدهشني: فقد اختار حزب الموظفين. ثم أن الراديكاليين كانوا يعيشون على أمجادهم السابقة، وكان «شارل» يرضى بأن يصوِّت لحزب نظامي باعطائه صوته لحزب الحركة. وبالاختصار، فإن السياسة الفرنسية، إن صدق، كانت تسير على مايرام.

كان ذلك يحزنني: فقد تسلحت لأدافع عن البشرية ضد أخطار مروِّعة. وكان الجميع يؤكدون لي أنها كانت تسير ببطء نحو الكمال. لقد رباني جدي على احترام الديمقراطية البورجوازية التي من أجلها كنت أخرجت قلمي من غمده عن طيب خاطر؛ ولكن في عهد رئاسة فاليير[5] كان للفلاح حق التصويت: فما الذي كان يمكن أن يطلب فوق ذلك؟ وما الذي يفعله مواطن جمهوري سعد بالعيش في جمهورية؟ إنه يطرقع أصابعه، أو يعلِّم اليونانية ويصف آثار أورياك فيَ أوقات فراغه. لقد عدتُ إلى النقطة التي بدأتُ منها، وتخيَّلت أني أختنق مرة أخرى في هذا العالم الخالي من المنازعات، الأمر الذي يؤدي بالكاتب إلى البطالة.

إن شارل أيضاً هو الذي أخرجني من حيرتي، دون علمه بالطبع، فقبل ذلك بسنتين، لكي يحثني على الإنْسيِّة[6]، قدَّم لي أفكاراً لم يعد ينطق منها بكلمة، خوفاً من أن

---

(١) مثوى عظماء فرنسا وقد دفن فيه إميل زولا (المترجم). (٢) مدير الشرطة الفرنسية من ١٨٩٣ حتى ١٩١٢ (المترجم). (٣) يقصد الرئيس فاليير (المترجم). (٤) رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٩١٣ إلى ١٩٢٠ (المترجم). (٥) أرمان فاليير رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٩٠٦ الى ١٩١٣ (المترجم). (٦) إحياء الآداب القديمة.

يشجِّع جنوني. ولكن هذه الأفكار كانت قد انحفرت في ذهنه. لقد استرجعت، دون جلبة، حدتها. ولإنقاذ ماهو جوهري، حولت شيئاً فشيئاً الكاتب الفارس إلى كاتب شهيد. كنت قد ذكرتُ كيف أن هذا الراعي الخائب، الأمين على رغبات أبيه، قد احتفظ بالإلهي ليصبه في الثقافة. ومن هذا المزيج الغريب وُلد الروح القدس، صفة الجوهر اللانهائي، حامي الآداب والفنون واللغات الميتة أو الحيَّة والطريقة المباشرة في التعليم، حمامة بيضاء كانت تغمر عائلة «شفايتزر» بظهورها المتعدد، وكانت ترفرف يوم الأحد فوق الأرغن والفرق الموسيقية، وتحطُّ في أيام العمل على رأس جدي. وإن أحاديث «كارل» القديمة بعد جمعها في رأسي قد ألفت خطبة: فالعالم هو فريسة الشر، وليس هناك إلا خلاص واحد وهو أن ننصرف تماماً عن أنفسنا، عن الأرض، وأن نتأمل من أعمال الخيبة الأفكار المستحيلة. ولما كان لا يمكن التوصل إلى ذلك إلا بتدريب صعب وخطر فقد عُهد بهذه المهمة إلى هيئة من المتخصصين. لقد أخذ الكهنوت على عاتقه عبء البشرية وأنقذها بمعكوسية القيم: إن لوحوش العالم الدنيوي، صغاراً وكباراً، الوقت الكافي ليقتتلوا أو ليعيشوا في البلادة حياة بلا حقيقة، فالكتّاب والفنانون يتأملون الجمال والخير وهم قابعين في أماكنهم. ولانتزاع البشر كله من الحيوانية لابد من توفر شرطين فقط: أن يحتفظ في أماكن مراقبة ذخائر رجال الثقافة المتوفين مثل اللوحات والكتب والتماثيل: وأن يظل عالم واحد على قيد الحياة ليكمل المهمة ويصنع ذخائر المستقبل.

يا له من لغو قذر: كنت أزدرده دون أن أفهمه تماماً، كنت مازلت أومن به وأنا في العشرين من عمري. ومن أجل هذا اللغو، اعتبرت العمل الفني، زماناً طويلاً، حدثاً ميتافيزيقياً يهتم الكون لمولده. لقد أخرجت من تحت التراب هذا الدين واتخذته ديناً لي لأطلي بالذهب دعوتي الباهتة: لقد ابتلعت ضغائن ومرارات لم تكن لي أبداً ولا لجدي، لقد أضجرني في الغيظ القديم الذي عانى منه «فلوبير» و «الأخوان جونكور» و«جوتييه»: إن كراهيتهم المجردة للانسان والتي أدخلت فيَّ تحت قناع الحب، أصابتني بعدوى ادعاءات جديدة. وأصبحت ملحداً وخلطت بين الأدب والصلاة وجعلت منهما ضحية بشرية. وصممت على أن اخواني سوف يطلبون مني أن أكرِّس قلمي لافتدائهم ليس إلا: إنهم يتألمون من عدم كفاية وجودهم التي، لولا شفاعة القديسين، لكان مآلهم على الدوام الفناء، وإن فتحت عينيَّ كل صباح ورأيت، وأنا أجري إلى النافذة، رجالاً ونساء يمرون في الشارع ولا يزالون أحياء، فذلك لأن عاملاً في غرفة كافح من الغسق إلى الشفق ليكتب صفحة خالدة تمنحنا مهلة يوم. وسوف يعاود الكرة عندما يأتي الليل هذا المساء وغداً، حتى يموت من الاستهلاك؛ وأحلُّ محله: وأنا أيضا سوف أوقف الجنس البشري على حافة الهاوية بتبرعي الصوفي، بعملي؛ لقد ترك الجندي مكانه للكاهن: ولما كنت بارسيفال[1]

(١) دراما موسيقية من ثلاثة فصول نظمها ولحنها فاجنر في سنة ١٨٨٢ وهي آخر عمل من أعمال هذا الملحن ومن أكثرها تأثيراً، تنمو فيها فكرة الفداء نحو تعبير صوفي (المترجم).

مأسوياً فقد قدمت نفسي كفّارة. ومنذ اليوم الذي اكتشفت فيه شانتكلير[1]، تكوّنت عقدة في قلبي: عقدة أفاع كان لابد من ثلاثين سنة لحلها: إن هذا الديك يجد طريقه لحماية حظيرة الطور كلها، على الرغم من تمزيقه وادمائه وضربه، إن صياحه كاف لجعل الصقر يولي الادبار والجمهور الدنئ يتملقه بعد أن سخر منه؛ وعندما يختفي الصقر يعود الشاعر إلى المعركة، إن الجمال يوحي إليه ويضاعف قواه ويهجم على عدوه ويجند له. ويكتب: إن جريزيليديس وكورني وبردايان كنت أجدهم جميعاً في شخص واحد: إن شانتكلير هو أنا. كل شيء بدا لي بسيطاً: إن الكتابة هي إضافة لؤلؤة لعقد عرائس الشعر، هي ترك ذكرى حياة مثالية للأجيال القادمة، هي الدفاع عن الشعب من نفسه ومن أعدائه، هي انزال بركة السماء على الناس بقداس احتفالي. ولكن لم يطرأ على بالي أنه يمكننا الكتابة كي نُقرأ.

إننا نكتب لجيراننا أو لله. وقررت أن أكتب لله لأخلّص جيراني. كنت أريد معترفين بالفضل لا قراء. إن الاحتكار كان يفسد كرمي. فمنذ الوقت الذي كنتُ أحمي فيه اليتميات، بدأت أتخلص منهن بإرسالهن ليختبئن. ولما أصبحت كاتباً لم تتغير طريقتي: فقبل أن أخلص البشرية، سوف أبدأ بتعصيب عينيها؛ وعندئذ فقط أنبري للمرتزقة الصغار السود السريعين، أنبري للكلمات؛ وحين تتجرأ يتيمتي الجديدة على فك عُصابتها، سوف أكون بعيداً؛ ولن نلحظ في أول الأمر، وقد أنقذتها شجاعة وحيدة هي المجلد الصغير الذي يشع على رف من رفوف المكتبة الأهلية، والجديد كل الجدة الذي سوف يحمل اسمي.

إني أترافع على أساس الظروف المخففة، وهي ثلاثة. كنت أطرح للمناقشة أولاً، خلال حلم صاف، حقي في الحياة. في هذه البشرية التي لا تحمل جواز مرور والتي تنتظر إرادة الفنان التحكمية، نتعرف على الطفل المتخم بالسعادة الذي يتململ على مجثمه، لقد قبلت خرافة القديس البغيضة، هذا القديس الذي يخلّص السوقة، لأنها هي أنا آخر الأمر: وأعلنتُ أني المنقذ الرسمي للجماهير فضلاً عن تحقيق خلاصي سراً «وعلى البيعة» كما يقول اليسوعيون.

ثم إني كنت في التاسعة من عمري. ولما كنتُ مؤلفاً مجهولاً تماماً. فقد عاودت الكتابة. إن رواياتي الجديدة -لعدم توافر ماهو أفضل منها- كانت تشبه القديمة بحذافيرها، ولكن لا أحد كان يعرف ذلك، حتى أنا الذي كنت أكره أن أعاود قراءة ما أكتب: كان قلمي سريعاً بحيث كثيراً ما كان معصمي يؤلمني؛ كنت ألقي على الأرضية الخشبية الكراسات ممتلئة، وكان الأمر ينتهي بي إلى نسيانها وكانت تختفي؛ ولهذا السبب لم أكن أنهي شيئاً: فما جدوى أن أحكي نهاية قصة مادامت بدايتها قد فقدت. ومن ناحية

(1) تمثيلية شعرية تأليف إدمون روستو (١٩١٠) أشخاص هذه التمثيلية حيوانات ترمز إلى إعوجاج الانسان وأهوائه (المترجم).

أخرى، لو أن كارل تفضّل وألقى نظرة على هذه الصفحات، لما كان «قارئاً» في نظري، ولكن قاضياً أعلى، ولخشيت أن يحكم عليّ. إن الكتابة، عملي الأسود، ولم تكن تحيل إلى شيء، كانت تعتبر نفسها غاية في ذاتها: كنت أكتب من أجل الكتابة وإني لا أندم على ذلك: ولو كنتُ أقرأ لحاولتُ أن أرضى ولعدتُ مدهشاً. ولما كنت أكتب سراً، فقد كنت صادقاً.

وأخيراً فإن مثالية العالم الأديب كانت تقوم على واقعية الطفل. لقد قلت ذلك آنفا: لأنني اكتشفت العالم خلال اللغة، فقد اعتبرت اللغة العالم زمناً طويلاً. إن الوجود كان امتلاك تسمية مراقبة، في مكان ما على الجداول اللانهائية للكلمة؛ وكانت الكتابة حفر كائنات جديدة على هذه الجداول أو –وكان ذلك أشد أوهامي تصلباً– صيد الأشياء الحية بفخ الجُمل: لو أني كنتُ أرتب الكلمات بمهارة، لكبلتُ الموضوع بالرموز المعبرة عنه وهي تلك الكلمات. وبدأت في حديقة اللوكسمبورج أتعجب من ظل لامع لشجرة صنّار: كنت لا أراقبها بل على العكس تماماً، كنت أضع ثقتي في الفراغ، وأنتظر؛ وبعد لحظةَ، كانت أوراقها الحقيقية تخرج على هيئة صفة بسيطة أو احيانا على هيئة جملة كاملة: لقد أثريت الكون بخضرة رجراجة. لم أضع قط على الورق الأشياء التي عثرتُ عليها: كنت أقول في نفسي إنها تتراكم في ذاكرتي. والواقع أني كنتُ أنساها، إلا أنها كانت تُشعرني مقدماً بدوري في المستقبل. سوف أفرض أسماء. ومنذ عدة قرون في أورباك كانت هناك أكوام من البياض لا قيمة لها تطالب بحدود ثابتة، بمعنى: سوف أصنع منها آثاراً حقيقية. ولما كنت إرهابياً فإني لم أكن أصوب إلا نحو ذاتها: سوف أكونّها باللغة؛ ولما كنت عالماً في البيان فاني لم أكن أحب سوى الكلمات: سوف أشيد كاتدرائيات من الكلام تحت العين الزرقاء لكلمة سماء. سوف أبني لآلاف السنين. وحين كنت آخذ كتاباً، كنت أفتحه وأقفله عبثاً عشرين مرة فأرى جيداً أنه لم يكن يتغيرّ. وحين كان نظري يمرُّ على النص، هذا الجوهر الذي لا يفسد، فإن ذلك لم يكن سوى حادث سطحي صغير، لم يكن يضايق أحداً ولا يبلى. أما أنا فكنت سلبياً وزائلاً، كالبعوضة المقهورة التي تخترقها أضواء مصباح متوهج؛ وغادرت المكتب وأطفأت النور: كان الكتاب لا يزال يشع لذاته وحده على الرغم من كونه غير مرئي في الظلام. سوف أعطي لمؤلفاتي عنف هذه الأضواء الفجائية اللاذعة، وبعد ذلك، في المكتبات المتهدمة، سوف تعيش بعد الإنسان.

لقد رضيت بظلامي وتمنيت أن أطيله وأجعل منه فخراً لي. وحسدت المعتقلين المشهورين الذين كتبوا في زنزانات على ورق كان يستعمل أيام الاضاءة بالشموع. لقد احتفظوا بواجب إقتداء معاصريهم وفقدوا واجب معاشرتهم. بيد أن تقدم العادات قلل فرصي في أن أستمد قريحتي من الحبس، ولكني لم أفقد أملي تماماً: إن العناية، وقد أذهلها تواضع طموحي، سوف تعنى بتحقيقه. وإلى أن يتحقق هذا الطموح سوف أحبس نفسي سلفاً.

ولما كان جدي يخدع أمي، فإنها لم تكن تترك فرصة دون أن تصوّر أفراحي

المستقبلة: وكي تغريني كانت تضع في حياتي كل ما كان ينقص حياتها من هدوء بال، ووقت فراغ ونَام؛ فحين أغدو مدرساً شاباً لا يزال عزباً سوف تؤجر لي سيدة عجوز جميلة غرفة مريحة تنبعث منها رائحة الخزامى والبياضات النظيفة، سوف أذهب إلى مدرسة الليسيه في قفزة وأعود في قفزة؛ وفي المساء سوف أقف على عتبة بابي أثرثر مع صاحبة الغرفة التي سوف تشغف بي؛ وعلى أي حال فإن الجميع سوف يحبونني لأني سأكون مجاملاً وحسن التربية. كنت لا أسمع سوى كلمة واحدة: غرفتك، وكنت أنسى مدرسة الليسيه وأرملة الضابط الكبير ورائحة الأقاليم، وكنت لا أرى غير دائرة من الضوء على منضدتي: في وسط غرفة غارقة في الظلام، الستائر مسدلة، كنت أنحني على كراسة من التيل الأسود. كانت أمي تستمر في قصتها فتقفز عشر سنوات إلى أمام: إن مفتشاً عاماً سوف يحميني، ومجتمع أورياك الراقي يرغب في استقبالي، وزوجتي الشابة تكنّ لي أحن الحب، وأنجب منها أطفالاً جملاء مكتملي الصحة، صبيين وبنتاً، وتَرِثُ وأشتري أرضاً في أطراف المدينة ونبني منزلاً وكل يوم أحد تذهب العائلة جميعها لتتفقّد أعمال البناء. كنت لا أصغي لشيء: فخلال هذه السنوات العشر لم أترك منضدتي: كنت قصير القامة وذا شارب مثل أبي وأجلس على كومة من القواميس، كان شاربي يبيض ومعصمي يجري دائماً وتسقط الكراريس على الأرضية الخشب الواحدة بعد الأخرى. إن الانسانية نائمة والوقت ليل، امرأتي وأولادي نائمون مالم يكونوا قد ماتوا وصاحبة غرفتي نائمة؛ إن النوم قد محاني من كل الذاكرات. يا لها من عزلة: ملياران من الناس بالطول وأنا فوقهم المُراقِب الوحيد.

كان الروح القدس ينظر إليّ. وكان إتخذ في التو قرار العودة إلى السماء والتخلي عن البشر؛ لم يكن لدي إلا الوقت الذي أقدم فيه نفسي، وأريته جروح روحي، والدموع التي تبلل ورقتي، كان يقرأ من فوق كتفي وسكن غضبه. هل هدأ بسبب عمق الآلام أو بسبب عظمة العمل؟ كنت أقول في نفسي: بسبب العمل، وكنت أفكر سراً: بسبب الآلام. بيد أن الروح القدس لا يقدِّر إلا الكتابات الفنية الحقة، ولكني كنتُ قرأتُ «موسيه» وعرفت أن «الأغاني الاكثر يأساً هي أجمل الأغاني». وكنت قررتُ التقاط الجمال بيأس مفخخ. إن كلمة عبقرية بدت لي دائما كلمة مشكوكاً فيها: وذهبت إلى حد التقزز منها تماماً. إين يكون القلق، إين يكون الاختبار، أين يكون الإغراء الفاشل، أين يكون الفضل أخيراً، إن كانت لدي الهوية؟ كنتُ أتحمل بصعوبة أن يكون لي الجسم نفسه والرأس نفسه كل الأيام، كنت لن أترك نفسي تسجن في جهاز. لقد قبلت تعييني شريطة ألا يستند إلى شيء، أن يلمع، مجاناً، في الفراغ المطلق. كانت لي أحاديث مشبوهة مع الروح القدس. كان يقول لي «سوف تكتب». وكنت أقول له وأنا ألوي يدي: «ما الذي عندي أيها السيِّد كي تختاروني؟» – «لا شيئاً خاصاً.» – «ولِمَ أنا إذاً؟» – «بدون سبب.» – «هل لدي على الأقل بعض السهولة في الكتابة؟» – «لَيست لديك أية سهولة. أتعتقد أن الأعمال الكبرى تولد من الأقلام السهلة؟» «يا سيِّد، بما أنني على هذا القدر من العجز،

فكيف أستطيع أن أؤلف كتاباً؟» - «باجتهادك.» - فأي إنسان يمكن أن يكتب إذاً؟» - «أي انسان، ولكن أنت الذي اخترت.» إن هذا التحايل كان مريحاً جداً: كان يسمح لي باعلان تفاهتي وفي الوقت نفسه بأن أبجل في نفسي مؤلف روائع المستقبل. لقد انتخبتُ ووسمتُ ولكن بدون موهبة: كل شيء سوف يأتي بصبري الطويل وبمصائبي؛ كنت أنكر كل تميّز في نفسي: إن ملامح الطبع تبرز؛ لم أكن مخلصاً لشيء سوى الارتباط الملكي الذي يقودني إلى المجد بالعذابات. بقي أن أجد هذه العذابات؛ كانت المشكلة الوحيدة، ولكن كان يبدو أنها غير قابلة للحل بما أنهم نزعوا مني أمل أن أعيش تعيساً: سواء كنتُ مجهولاً أو مشهوراً، فإني سوف أكون مقيداً على ميزانية التعليم، ولن أجوع أبداً: ووعدت نفسي بأحزان حب مبرحة ولكن بلا حماس: كنت أكره المحبين المرتعدين؛ كان «سيرانو» يخنقني، هذا «البردايان» المزوّر الذي كان ينطق هراء أمام النساء: إن «بردايان» الحقيقي كان يسحب كل القلوب خلفه دون أن ينتبه لذلك؛ ومن الصواب أن تقول إن موت «ڤيوليتا»، حبيبته، قد طعنت قلبه إلى الأبد. تَرمل وجُرْح لا يندمل: بسبب، بسبب امرأة ولكن لا بسبب خطأ منه؛ إن ذلك سوف يسمح لي بأن أصد مساعي كل الأخريات. وإن تعمقتُ في الموضوع. ولكن، لو سلّمت على أي حال، بأن زوجتي الشابة التي من «أورياك» تموت في حادثة، فإن هذه المصيبة لن تكفي لاختياري: إنها طارئة وعادية جداً في وقت معاً. لقد انتصرت غضبتي على كل شيء: إن بعض المؤلفين الذين سُخر منهم وضربوا، ظلوا حتى النفس الأخير في العار والظلام ولم يكلل المجد إلا جثتهم: ذلك ما سأكونه. سوف أكتب عن أورياك وعن تماثيلها بذمة. ولما كنتُ عاجزاً عن أن أكره، فإني لن أهدف إلا للمصالحة وللخدمة. ومع ذلك، فإن كتابي الأول سوف يُطلق الفضيحة بمجرد ظهوره، سوف أصبح عدواً عاماً: سوف تسبني الجرائد التي تصدر في مقاطعة الأوفرني وسوف يرفض التجار خدمتي وسوف يحطم المتحمسون زجاج نوافذي؛ ولأنجو من تنفيذ الجماهير حكم الاعدام فيّ، لابد لي من الهرب. سوف أصاب بالصرع أول الأمر وأقضي أشهراً في بلة، مكرراً بلا انقطاع: «ليس هذا سوى سوء تفاهم! لأن الناس جميعاً طيبون!» وبالفعل فإن ذلك لن يكون إلاّ سوء تفاهم، ولكن الروح القدس لن يسمح بزواله. ولسوف أبرأ؛ وذات يوم سوف أجلس إلى منضدتي ولسوف أكتب كتاباً جديداً: عن البحر أو عن الجبل. ولن يجد هذا الكتاب ناشراً. ولما كنتُ مصادراً ومتخفياً وربما منفياً، فسوف أكتب كتباً أخرى، كتباً كثيرة أخرى، سوف أترجم «هوراس» بالشعر سوف أعرض أفكاراً متواضعة ومعقولة جداً عن علم التربية. ولكن عبثاً: سوف تتكوّم كراساتي في حقيبة كبيرة دون نشر.

إن للقصة خاتمتين؛ سوف اختار الواحدة أو الأخرى حسب مزاجي. ففي أيامي العابسة أتصور نفسي أموت على سرير حديدي مكروهاً من الجميع يائساً في الساعة نفسها التي يضع المجد فيها فمه على نفيره. وأحياناً أخرى كنت أمنح نفسي بعض السعادة. ففي سن الخمسين، لأجرب قلماً جديداً، كتبت اسمي على مخطوط ضاع بعد

وقت قليل. ووجده أحدهم في الطابق الذي تُخزَّن فيه الحبوب، في الساقية، في خزانة داخل حائط بالمنزل الذي تركته أخيراً، قرأه وحمله مضطرباً إلى أرتيم فايار الناشر الشهير لمؤلفات ميشيل زيفاكو. كان ذلك نصراً: عشرة آلاف نسخة تخاطفها الناس في يومين. كم من تبكيت ضمير. وانبرى مائة مخبر صحفي للبحث عني ولم يعثروا عليّ. ولما كنت معتزلاً عن الناس فقد جهلت لزمن طويل هذا التحولّ في الرأي. وأخيراً في ذات يوم، دخلت مقهى لأحتمي من المطر فلمحت جريدة متروكة رأيت فيها «جان پول سارتر، الكاتب المقنّع، شاعر البحر الذي تغنى بأورياك». ببنط كبير على ستة أعمدة بحروف التاج. فطرت فرحاً. كلا: إني أتلذذ بسوداويتي. وعلى أي حال فقد عدتُ إلى غرفتي وبمساعدة صاحبتها أغلقتُ الحقيبة الكبيرة التي تحوي الكراسات وربطتها وشحنتها إلى فايار دون أن أعطي عنواني. وفي هذه اللحظة من قصتي، توقفت لأخوض في تدابير لذيذة: لو أني أرسلتُ الطرد من ذات المدينة التي أقيم فيها لأسرع الصحفيون إلى اكتشاف عزلتي فحملت الحقيبة إلى باريس، وأرسلتها بواسطة وكيل نقل إلى دار النشر؛ وقبل أن آخذ القطار، عدتُ إلى أماكن طفولتي. إلى شارع لوجوف وشارع سوفلو وحديقة اللوكسمبورج. لقد اجتذبتني حانة بالزار وتذكرت أن جدي -وقد توفي منذ ذلك الحين- كان يصحبني إليها أحياناً، في سنة ١٩١٣: وجلسنا جنبا إلى جنب على المقعد، وكان الجميع ينظرون إلينا وكأنهم متواطئون معنا، وكان يطلب كوباً كبيرة من البيرة ويطلب لي كوباً صغيراً، كنتُ أشعرُ بأنني محبوب. إذاً، وأنا في الخمسين من عمري وحزين، دفعت باب الحانة وطلبتُ كوباً صغيراً. وإلى المائدة القريبة جلست شابات حسناوات يتحدثن بحيوية وينطقن باسمي. قالت إحداهن: «آه! قد يكون عجوزاً وقد يكون دميماً ولكن ما أهمية ذلك: إني أعطي ثلاثين سنة من حياتي كي أصبح زوجته!» لقد وجهتُ إليها ابتسامة فخورة وحزينة وأجابتني بابتسامة حائرة وقمت واختفيت.

قضيتُ وقتاً طويلاً في تأليف هذه الحلقة ومئات الحلقات الأخرى التي أعفي القارئ منها. سوف يتعرف خلالها على طفولتي نفسها وقد أُسقطت على عالم مستقبل، وعلى وضعي وابتكارات سنتي السادسة وعلى تمرد فرساني المغامرين الذين لم يعترف بقدرهم. لقد تمردت كذلك وأنا في التاسعة من عمري وكنتُ أفرح بذلك فرحاً بالغاً: وباظهاري لاستيائي، كنتُ أحافظ وأنا شهيد محتوم، على سوء فهم كان الروح القدس يبدو أنه سئمه. لماذا لم أذكر اسمي لهذه المعجبة الساحرة؟ قلتُ في نفسي: لقد جاءت متأخرة كثيراً -ولكن بما أنها تقبلني مهما يكن من أمر؟ -فذلك لأني فقير للغاية- فقير للغاية! وحقوق التأليف؟ إن هذا الاعتراض لم يوقفني: لقد كتبتُ إلى فايار أن يوزّع على الفقراء المال العائد لي. ولكن كان لابد أن أبت في الأمر: إذن! فقد متُّ في غرفتي الصغيرة، وقد تركني الجميع ولكني كنتُ هادئاً: فقد أديت رسالتي.

إن شيئاً أثر فيّ، في هذه القصة التي تكررت ألف مرة: فمنذ اليوم الذي رأيتُ فيه اسمي بالجريدة، فإن زنبركا قد انكسر، لقد انتهيتُ؛ إني أتمتع بحزن بشهرتي، ولكني لم

أعد أكتب. وليست النهايتان إلا نهاية واحدة: سواء أموت لأولد للمجد أو أن يأتي المجد أولاً ويقتلني فإن شهية الكتابة تخفي رفضاً للحياة. في حوالي ذلك العهد هزت قصةٌ مشاعري لا أعرف أين قرأتها: حدثت في القرن الماضي؛ في محطة صغيرة في سيبريا كان كاتب يتمشى ذهاباً وإياباً في انتظار القطار. ليس هناك أي كوخ في الأفق ولا أثر لحياة. الكاتب يتألم وهو يحمل رأسه الضخمة الحزينة. إنه مصاب بقصر النظر وعزب وفظ ودائم الغضب؛ إنه متضايق ويفكر في بروستاتته وفي ديونه. وتظهر كونتيسة شابة في عربتها على الطريق الذي يسير في محاذاة القضبان الحديدية: إنها تقفز من العربة وتجري نحو المسافر الذي لم تره قط ولكن تدّعي أنها تعرفه عن صورة فوتغرافية أروها لها، إنها تنحني وتأخذ يده اليمنى وتقبلها. إن القصة تقف عند هذا الحد، ولا أعرف ما الذي تريد أن تفهمنا منها. ففي التاسعة من عمري كنتُ أتعجب لهذا المؤلف المتذمر الذي وجد قارئات في الاستبس، وأن سيدة على هذا القدر من الجمال جاءت لتذكره بالمجد الذي نسيه: إنها ولادة. ولكنها في الواقع موت: كنت أشعر بذلك وكنت أريده كذلك؛ إن أحد أفراد عامة الشعب لم يكن ليستطيع أن يحصل من أرستقراطية على مثل شهادة الإعجاب تلك. كان يبدو على الكونتيسة أنها تقول له: «إن كنتُ تمكنتُ من المجيء إليك ومن لمسك، ذلك أنه لم تعد هناك أية حاجة للمحافظة على علو المقام؛ إني لا أهتم بما سوف تراه من مبادرتي، فلم أعد أعتبرك إنساناً ولكن رمزاً لعملك». إن مسافراً، وقد قتلته قبلة على يده يشتعل حماساً وهو على بعد ألف فرست[1] من سان بطرسبورج، وعلى مدى خمسين سنة من مولده، إن مجده قد أفناه ولم يترك منه إلا قائمة أعماله مكتوبة بحروف من لهب. ورأيت الكونتيسة تصعد إلى عربتها وتختفي ويعود الاستبس إلى عزلته؛ وفي الغسق لا يقف القطار في المحطة ليعوِّض تأخيره، لقد شعرت في تجويف كليتي بقشعريرة الخوف، وتذكرت «ريح في الأشجار» وقلت في نفسي: «إن الكونتيسة هي الموت» لسوف تأتي: ذات يوم في طريق مقفر، وتقبل أصابعي.

كان الموت دواري لأني لم أكن أحب الحياة: ذلك ما يفسِّر الهلع الذي كان يوحيه إليّ. وبتماثله مع المجد جعلته وجهتي. أردت الموت؛ وأحياناً كان الهول يجمِّد فراغ صبري: ولكن ليس قط لزمن طويل؛ كان فرحي المقدس يبعث من جديد، وأنتظر لحظة نزول الصاعقة لاشتعل حتى العظم. إن نياتنا العميقة هي مشروعات وعمليات هروب مترابطة بلا انفصال: إن مشروع الكتابة المجنون الذي يغفر لي وجودي أرى جيداً أن فيه بعض الواقع على الرغم من التبجحات والأكاذيب: والبرهان على ذلك أنني مازلت أكتب بعد خمسين سنة. ولكن إذا رجعت إلى الأصول رأيت هروباً إلى أمام، وانتحاراً ساذجاً، نعم كنت أبحثُ عن الموت أكثر من بحثي عن الملحمة والاستشهاد. لقد خشيتُ زمناً طويلاً أن أنتهي كما بدأت في أيِ مكان وبأية طريقة، وأن يكون هذا الموت المبهم انعكاساً لولادتي

(١) الفرست يساوي ١٠٦٧ متراً، وكان مستعملاً في روسيا القيصرية. (المترجم).

المبهمة. لقد غيَّرت موهبتي كل شيء: إن ضربات السيف تزول، ولكن الكتابات تبقى، واكتشفت أن المُعطي، في الآداب، يمكن أن يتحوّل إلى عطائه نفسه، أيِ إلى شيء خالص. لقد جعلتني الصدفة إنساناً وسوف يجعلني الكرم كتاباً، سوف أتمكن من صب رسالتي وضميري في حروف من برونز وأن أحل محل ضوضاء حياتي كتابات لا تمحى ومحل لحمي أسلوباً ومحل زنبركية الزمن الرخوة، الأبدية وأن أبدو أمام الروح القدس ترسيباً للغة، وأن أصبح فكرة ملحة على الجنس البشري، وأخيراً أن أكون مختلفاً، مختلفاً عن نفسي وعن الآخرين وعن كل شيء. سوف أبدأ باعطاء نفسي جسماً لا يبلى ثم أسلم نفسي للمستهلكين. لن أكتب من أجل السرور الذي تجلبه الكتابة، ولكن لكي أنحت جسم المجد هذا في الكلمات. وعندما أتأمل ولادتي من أعلى قبري فإنها تبدو لي شراً لابد منه، وتجسيداً مؤقتاً يُعد تغيُّر هيئتي: كي أولد من جديد كان يجب أن أكتب، وكي أكتب كان لابد من مخ ومن عينين وذراعين؛ فإذا ما انتهى العمل فإن هذه الأعضاء تختفي من تلقاء نفسها: ففي حوالى سنة ١٩٥٥ انفجرت يرقة وخرج منها خمس وعشرون فراشة من القطع الكبير ترفرف بكل صفحاتها لتحط على رف من رفوف المكتبة الأهلية، إن هذه الفراشات ليست سواى. أنا: خمسة وعشرون مجلداً وثمانية عشر ألف صفحة مكتوبة وثلاثمائة صورة، من بينها صورة المؤلف. إن عظامي من جلد ومن الورق المقوى ولحمي شاحب تنبعث منه رائحة الصمغ وعش الغراب وخلال ستين كيلو جراماً من الورق أقعد مستريحاً. إني أولد من جديد، وأصبح آخر الأمر إنساناً كاملاً، يفكر ويتكلم ويغني ويصيح ويُثبت وجوده بفضل القصور الذاتي. ويأخذونني ويبسطونني على المنضدة ويتحسسونني براحة اليد وأحياناً يجعلونني أقرقع. وأتركهم يفعلون بي ما يريدون ثم ألمع فجأة، وأبهر وأفرض نفسي من بعد، إن سلطاتي تعبر الفضاء والزمان وتصعق الأشرار وتحمي الأبرار. ولا يستطيع أحد أن ينساني أو ألا يتحدث عني: فأنا تعويذة كبيرة، سهلة التداول ومرعبة. إن ضميري مفتت: وهذا أفضل فضمائر أخرى تولت أمري. إنهم يقرأونني وأنا واضح؛ ويكلمونني وأنا على كل الألسنة، لغة عالمية وفريدة وأجعل من نفسي بالنسبة لملايين الأنظار تحفة جديرة بالدراسة وبالنسبة للذي يعرف كيف يحبني، فأنا موضع قلقه الكامن في أعماقه، ولكن إن أراد أن يلمسني، فإني أنمحي واختفي: إنى غير موجود في أى مكان، فأنا الأخير! أكون في كل مكان، متطفلاً على الإنسانية فحسناتي تعذبها وتجبرها على بعث غيابي.

وتنجح هذه الخدعة: وأكفن الموت في كفن المجد، لم أعد أفكر إلا في هذا المجد لا في هذا الموت أبداً، دون أن ألاحظ أنهما ليسا إلا واحداً. وفي الوقت الذى أكتب فيه هذه الأسطر، فإني أعرف أنني أخذت زمني تقريباً. ومع ذلك فإني أتخيَّل بوضوح، دون ابتهاج كبير، الشيخوخة التي تقترب وهرمي القادم، هرم وموت الذين أحبهم؛ أما موتي فأبداً. ويحدث لي أن ألمح لأقربائي –وبعضهم يصغرني بخمس عشرة أو بعشرين أو بثلاثين سنة– بأنني سوف أحزن كثيراً على بقائي حياً بعدهم: فيسخرون مني وأضحك معهم،

ولكن ذلك لن يحدث: ففي التاسعة من عمرى حرمتني عملية جراحية في عينى من القدرة على الإحساس بأشياء لازمة لمهنتنا. وبعد ذلك بعشرة سنوات، وفي مدرسة المعلمين أيقظت هذه الحالة فجأة بعضاً من خير أصدقائي، مرعوبين أو مغتاظين: كنت أشخر كقارع الأجراس. بعد مرض خطير أكدّ لنا أحدهم أنه عرف أهوال الاحتضار حتى آخر نفس ضمناً، كان نيزان اكثرهم قلقاً: فكان يرى أحياناً نفسه جثة وهو في عز نومه؛ كان ينهض، وقد امتلأت عيناه بالدود ويأخذ، وهو يتحسس في الظلام قبعته الإيطالية ذات القلنسوة المستديرة ويختفي، وكان يعثر عليه في اليوم الثالث ثملاً مع بعض الأشخاص غير المعروفين. وأحياناً، وفي غرفة، كان هؤلاء المحكوم عليهم يقصون على بعضهم البعض لياليهم البيضاء وتجاربهم المسبقة عن العدم: كانوا يفهمون بعضهم بعضا بالتلميح الصريح. وكنتُ أصغي إليهم وكنت أحبهم بحيث كنت أتمنى بكل جوارحي أن أشبههم، ولكن عبثاً، فإني لم أكن أفهم ولم أكن أحفظ إلاّ أقوالاً عادية من التي تردد في المآتم: إننا نعيش ونموت. ولا نعرف من الذي يعيش ومن الذي يموت؛ قبل الموت بساعة نكون أحياء بعد. لم أكن أشك في أنه يوجد في حديثهم معنى لا أفهمه؛ كنت أسكت وتأكلني الغيرة وكأني في المنفي. وكانوا يلتفتون إليّ آخر الأمر متضايقين مسبقاً وسائلين: «ألا يؤثر ذلك فيك؟» وكنت أفرد ذراعي دليلاً على عجزي واستكانتي. وكانوا يضحكون غيظاً وقد بهرهم الوضوح المخيف الذي لم يتمكنوا من نقله إليّ سائلين «ألم تقل في نفسك أبداً وأنت تنام إن هناك اناساً يموتون أثناء نومهم؟ ألم تفكر أبداً وأنت تُفَرِّش أسنانك في أن هذه مرة وفاتت، وذلك هو يومي الأخير؟ ألم تشعر أبداً بأنه ينبغي الإسراع، الإسراع، الإسراع وبأن الوقت غير كاف؟ أتعتقد أنك خالد؟». كنت أجيب نصف محتّد ونصف مندفع: «نعم: أعتقد بأني خالد». لم تكن ثمة إجابة أكثر زيفاً من تلك: فقد كُنت قد وقيت نفسي من الموت الفجائي، ذلك كل ما في الأمر؟ لقد طلب مني الروح القدس مؤلفاً ضخماً، وكان لابد أن يترك لي الوقت لأكمله. ولما كنت ميتاً شرفياً، فإن موتي الذي كان يحميني من حوادث خروج القطارات عن الخطوط واحتقان الرئة والتهاب البريتون: لقد ضربنا لأنفسنا موعداً أنا وهو؛ فإذا وصلت إلى الموعد مبكراً، فإنني لن أجده، وفي استطاعة أصدقائي أن يأخذوا عليّ عدم تفكيري فيه: فهم يجهلون أني لم أنقطع دقيقة واحدة عن العيش فيه.

واليوم فإني أعطيهم الحق: لقد قبلوا من وضعنا كل شيء، حتى القلق؛ واخترت أنا الاطمئنان؛ وفي الواقع، كان اعتقادي بأني خالد أمراً حقيقياً جداً: لقد قتلتُ نفسي سلفاً ذلك أن الموتى هم وحدهم الذين يتمتعون بالخلود. كان «نيزان» و«ماهو» يعرفان أنهما سوف يكونان موضع اعتداء وحشي، وأنهما سوف ينتزعان من العالم وهما ممتلئان حياة ودماً. أما أنا، فكنت أكذب على نفسي: ولأنتزع من الموت بربريته، جعلته هدفي، وجعلت من حياتي الوسيلة المعروفة للموت: فأنا أذهب وئيداً إلى نهايتي، وليس لي من آمال ورغبات إلا ما يلزم لأملأ كتبي، واثقاً من آن آخر نبضة من قلبى سوف تسجل على آخر صفحة من آخر مجلد من مؤلفاتي، ومن أن الموت لن يأخذ إلا ميتاً. كان (نيزان)

ينظر، وهو في العشرين من عمره، إلى النساء والسيارات وكل متاع هذا العالم في عجلة شديدة يائسة: كل لابد أن يرى كل شيء وأن يأخذ كل شيء في الحال. وكنتُ أنا أيضاً أنظر نظرة فيها من الحماسة أكثر مما فيها من الاشتهاء: فلم أكن على الأرض للمتعة ولكن لأضع قائمة حساب. كان ذلك مريحاً للغاية: فيخجل طفل مسرف في التعقل وعن جبن، تراجعت أمام مخاطر وجود مفتوح وحر، وبلا ضمان صادر من العناية الإلهية. أقنعت نفسي بأن كل شيء مكتوب من قبل، لابد منته.

بيد أن هذه العملية المزّورة كانت توفر عليّ ما يغريني على حب نفسي. ولما كان كل واحد من أصدقائي مهدداً بالفناء، فإنه كان يحتمي بصفة حياته المائتة، تلك الصفة التي لا يمكن إحلال شيء آخر محلها ويتخيل نفسه مؤثراً وثميناً وفريداً؛ كان كل واحد راضياً عن نفسه؛ أما أنا، الميِّت، فلم أكن راضياً: كنت أجد نفسي عادياً جداً، أكثر اضجاراً من «كورني» الكبير ولم يكن لغرابة موضوعي أهمية في نظري إلا في أنها تُعد اللحظة التي تحيلني إلى شيء. هل كنتُ في ذلك أكثر تواضعاً؟ كلا، فقد كنت أكثر مراوغة: لقد كلفت ذريتي بأن تحبنى مكاني؛ وبالنسبة لرجال ونساء لم يكونوا قد ولدوا بعد، سوف يكون لي سحر، في يوم من الأيام، شيء لا أعرف ماهو، سوف أصنع سعادتهم. كنت أشد دهاء أيضاً وأشد تكتماً: وهذه الحياة التي كنتُ أجدها مملة والتي لم أعرف أن أصنع منها سوى أداة موتي، كنت أعود إليها سراً لأنقذها؛ كنت أنظر إليها خلال عيون المستقبل وكانت تبدو لي قصة مؤثرة وعجيبة، عشتها من أجل الجميع، وبفضلي لن يتحتم على أحد أن يعيشها من جديد ويكفيها أن تحكي. لقد وضعت فيها فورة حقيقية: واتخذت كمستقبل ماضياً ميتاً كبيراً وحاولت أن أعيش بالعكس. فبين التاسعة والعاشرة أصبحتُ عملاً منشوراً بعد وفاة مؤلفه.

لم يكن ذلك خطأ كله: فقد رباني جدي في الوهم المرتد إلى الماضي. وهو أيضاً ليس مذنباً وأنا لا أحقد عليه: إن هذا السراب يولد تلقائياً من الثقافة. وحين يختفي الشهود، فإن موت رجل عظيم يكف إلى الأبد عن أن يكون تولها مفاجئاً، إن الزمن يجعل منه عملاً صادراً من طبيعة المرء. إن الراحل كبير السن هو مائت أساساً، إنه كذلك في العماد وعند المسحة الأخيرة[1] لا أكثر ولا أقل، إن حياته ملكنا. ندخل فيها من طرف ومن طرف آخر ومن الوسط ننزل منها ونصعد مجراها كما نشاء: ذلك أن الترتيب الزمني قد انهار؛ ومن المحال إعادته: فهذا الشخص لا يتعرض لأي خطر وإنه لا ينتظر إلا زغزغة منخره المؤدية للعطس. إن لوجوده مظاهر تسلسل الأحداث ولكن، ما أن يُراد إعادة قليل من الحياة إليه إلا ويسقط في التزامن. وعبثاً تحاول أن تضع نفسك في مكان الراحل، وأن تتظاهر بأنك تشاطره أهواءه وجهله وأحكامه المسبقة، وبأنك تبعث إلى الحياة مقاومات ألغيت، وشيئاً من قلة الصبر أو الخوف، فإنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من تقدير سلوكه

(١) عند المسيحيين يقوم الكاهن بمسح جبين المحتضر بالزيت المقدس (المترجم).

على ضوء نتائج لم يكن في الامكان استدراكها، ومعلومات لم تكن لديه، ولا أن تضفي رسمية خاصة على أحداث وسمتها نتائجها ولكن كان قد عاشها بأهمال. هذا هو السراب: المستقبل أكثر واقعية من الحاضر. إن ذلك لن يدهش: ففي حياة انتهت تؤخذ النهاية على أنها حقيقة البداية. إن الراحل يظل في منتصف الطريق بين الكائن والقيمة، بين الفعل الخام وتجديد البناء؛ وتصبح قصته نوعاً من الجوهر الدائري الذي يتلخص في كل لحظة من لحظاته. في صالونات أراس[1]، نرى محامياً شاباً، جامداً ومتدللاً يحمل رأسه تحت ابطه لأنه المرحوم «روبسبيير»، إن هذه الرأس تقطر دماً ولكنها لا توسّخ السجادة؛ إن أحداً من المدعوين لا يلحظها ونحن لا نرى غيرها؛ إن أمامها خمس سنوات لتتدحرج في السبت[2]، ومع ذلك ها هي ذي تنشد قصائد قصيرة وهي مقطوعة، على الرغم من فكها المتدلي. إن خداع النظر هذا، وقد عُرف، لا يضايق: فلدينا وسائل تصحيحه؛ غير أن أدباء ذلك العهد كانوا يخفونه، لأنهم يغذون مثاليتهم به. وكانوا يلمحون: إن أرادت فكرة كبيرة أن تولد فإنها تذهب إلى بطن امرأة لتستولي على الرجل العظيم الذي سوف يحمل هذه الفكرة؛ وهي تختار له بيئته وتحدد بدقة درجة ذكاء أقربائه وعدم ادراكهم، وتعاير مستوى تربيته وتخضعه للتجارب اللازمة وتكوّن له في لمسات متلاحقة طبعاً غير ثابت تتحكم في عدم توازنه حتى ينفجر الشيء موضع هذه العناية الزائدة وهو يلدها. ولم يعلن عن ذلك في أي مكان، ولكن كل شيء يوحي بأن تسلسل الأسباب يغطي نظاماً معكوساً وسرياً.

كنتُ أستخدم هذا السراب بحماس لأتم ضمان مصيري. وأخذت الزمن ووضعت أسفله فوق رأسي واتضح كل شيء. لقد بدأ ذلك بكتاب صغير كحلي داكن ذي حليات مذهبة أسودت بعض الشيء وكانت تفوح من أوراقه السميكة رائحة الجثث وكان عنوانه: «طفولة العظماء»؛ وعليه بطاقة تبيِّن أن خالي جورج قد حصل عليه في سنة ١٨٨٥ كجائزة ثانية في الحساب. وكنتُ قد اكتشفته خلال رحلاتي العجيبة وقلبت صفحاته ثم القيت به عن ضيق. إن هؤلاء المختارين الصغار لا يشبهون الأطفال النوابغ في شيء. إنهم لا يقتربون مني إلا بتفاهة صفاتهم، وكنت أسأل نفسي لماذا يتكلمون عنهم؟ وأخيراً اختفى الكتاب: فقد قررتُ أن أعاقبه باخفائه. وبعد ذلك بسنة قلبت كل الأرفف بحثاً عنه: لقد تغيَّرت. إن الطفل النابغة قد أصبح رجلاً كبيراً فريسة للطفولة. ويا لها من مفاجأة: لقد تغيَّر الكتاب هو أيضاً. كانت الكلمات هي ذاتها، ولكنها كانت تحدثني عن نفسي. لقد شعرتُ بأن هذا الكتاب سوف يُضيِّعني، فكرهته وخفتُ منه. وكل يوم، قبل أن أفتحه، كنت أذهب للجلوس إلى النافذة: ففي حالة الخطر، سوف أدخل إلى عينيّ الضوء الحقيقي للنهار. إن هؤلاء الذين يرثون لتأثير «فونتوماس»[3] أو «أندريه جيد» يضحكونني اليوم كثيراً: هل يعتقدون أن الأطفال لا يختارون سمومهم بأنفسهم؟ كنت أبلع سمي بالزهد القلق

---

(١) مسقط رأس روبسبيير أحد زعماء الثورة الفرنسية الكبرى (المترجم). (٢) أي لتقطعها المقصلة (المترجم). (٣) اسم قاطع طريق متعذر امساكه (المترجم).

لمدمني المخدرات، وكان يبدو مع ذلك غير مضر. كانوا يشجعون القراء الصغار قائلين إن حكمة الأبناء وتقواهم تؤديان لكل شيء حتى لأن يصبحوا «رامبرانت» أو «موزار». كانوا يروون في قصص قصيرة الاهتمامات العادية جداً لصبيان عاديين، ولكنهم حساسون ورعون اسمهم «چان سباستيان» أو «چان چاك» أو «چان باتيست»، وكانوا يسعدون أقرباءهم كما كنتُ أسعد أقربائي. ولكن ها هنا السم: فقد كان المؤلف، دون أن يلفظ قط اسم «روسو» و«باخ» و «موليير»، يتفنن في التلميح في كل مكان إلى عظمتهم المقبلة، وفي التذكير بدون احتفال، عن طريق تفاصيل صغيرة، بمؤلفاتهم أو بأشهر أعمالهم. وفي تدبير هذه القصص تدبيراً محكماً بحيث لا يمكن فهم أتفه حادث دون ربطه بأحداث لاحقة؛ وفي وسط الصخب اليومي، كان يُنزل سكوناً كبيراً أسطورياً، يغيّر هيئة كل شيء. وهذا السكون كان المستقبل. إن المدعو «سانزيو»[1] كان يتحرق شوقاً إلى رؤية البابا؛ لقد بلغ به الشوق مبلغاً جعل أهله يصحبونه إلى الميدان العام في يوم مرور الأب الأقدس به؛ وأصفر وجه الصغير وحملق بعينيه، وقال له أحدهم أخيراً: «أعتقد أنك مسرور يا رافاييللو؟ هل نظرت إلى أبينا الأقدس جيداً على الأقل؟» ولكنه أجاب شارداً: «أي أب أقدس؟ إني لم أر سوى ألوان!» وفي يوم آخر كان الصغير ميجيل[2] الذي كان يريد أن يصبح جندياً، جالساً تحت شجرة يتلذذ بقراءة رواية من روايات الفروسية حين سمع فجأة قرقعة حدائد جعلته يرتجف. كان هناك مجنون عجوز من الجيران، وهو نبيل من الريف فقد ماله وكان يتجوّل على فرس ضعيفة ويسدد حربته التي علاها الصدأ إلى طاحونة. وعلى العشاء قص ميجيل الحادث بأسلوب فكاهي لطيف أضحك الجميع ملء شدقيهم؛ ولكن بعد ذلك، حين خلا لنفسه في حجرته، ألقى بروايته على الأرض وداسها بقدميه وأجهش في البكاء طويلاً.

إن هؤلاء الأطفال كانوا يعيشون في الخطأ: كانوا يعتقدون أنهم يعملون ويتكلمون صدفة، في حين أن أقل ما يقولونه كان له هدف حقيقي هو إعلان مصيرهم. كنت أتبادل مع المؤلف، من فوق رؤوسهم، ابتسامات شفقة. كنت أقرأ حياة هؤلاء العاديين المزورين كما خلقها الله: مبتدئاً من النهاية. كنت أتهلل أولاً: إنهم إخوتي ومجدهم هو مجدي. ثم يسقط كل شيء: وأجد نفسي في الجهة الأخرى من الصفحة، في الكتاب: إن طفولة چان پول تشبه طفولة چان چاك[3] وچان سباستيان[4]. ولم يكن يحدث له شيء دون أن تكون له دلالته الواسعة. ولكن في هذه المرة كان المؤلف يغمز بعينه لأحفاد أخوالي. فمن موتي إلى ولادتي كان أطفال المستقبل هؤلاء يرونني، ولم أكن أتخيلهم، ولم أكن أتوقف من أن

---

(١) هو المصور والمهندس المعماري وعالم الآثار الايطالي المشهور والمولود عام ١٤٨٣ والمتوفي عام ١٥٢٠ (المترجم). (٢) يقصد ميجيل دي سرفانتيس الكاتب الأسباني مؤلف دون كيشوت والمتوفي عام ١٦١٦ (المترجم). (٣) يقصد چان چاك روسو (المترجم). (٤) يقصد چان سباستيان باخ (المترجم).

أبعث إليهم برسائل لا أستطيع حل طلاسمها. كنت أرتجف مرتعداً لموتي، المعنى الحقيقى لكل حركاتي، وكنت أحاول، وقد خرجت عن ذاتي، أن أعبر الصفحة من جديد في الاتجاه العكسي وأن أجد نفسي في جانب القراء. ورفعت رأسي وطلبت النجدة من الضوء: ولكن ذلك أيضاً كان رسالة؛ هذا القلق الفجائي، هذا الشك، حركة العينين والعنق هذه، كيف سوف تفسَّر في سنة ٢٠١٣، حين يملكون المفتاحين اللذين كان عليهما أن يفضا غلافي: العمل والموت؟ لم أستطع الخروج من الكتاب: لقد انتهيت من قراءته منذ زمن طويل ولكنني ظللت شخصية فيه. كنت أراقب نفسي: قبل ذلك بساعة كنت قد انتهيت من الثرثرة مع أمي: ما الذي أعلنتُه؟ لقد تذكرتُ بعض أقوالي، وكررتها بصوت عال ولكن ذلك لم ينفعنى بشيء. كانت الجمل تنزلق مغلقة؛ وكان صوتي يطن في أذني كصوت أجنبي. وكأن ملاكاً غشاشاً يسلبني أفكاري حتى داخل رأسي، وهذا الملاك لم يكن سوى طفل يميلُ للشقرة من القرن الثلاثين، جالس إلى النافذة يراقبني خلال كتاب. وفي رعب لذيذ شعرت بنظرته تعلقني بالألف سنة التي أنتمي إليها. إنه يرى أني أتحايل على نفسي فأصنع كلمات ذات معنيين كنتُ أطلقها علانية. كانت «آن ماري» تجدني «أشخبط» وكانت تقول: « يا له من ظلام! إن ابني العزيز يعمي عينيه». وكانت فرصتي للرد بكل براءة: «أستطيع أن أكتب حتى في الظلام». كانت تضحك وتسميني العبيط الصغير، وتضيء الغرفة. لقد تمت الحيلة وكلانا يجهل أنني قد أخبرتُ تواً عام ثلاثة آلاف بعاهتي المستقبلة. وبالفعل ففي نهاية حياتي، وقد أصبحت أكثر عمىً من صمم بيتهوفن، سوف أكتب آخر مؤلفاتي تحسساً في الظلام. سوف يُعثر على المخطوط بين أوراقي، ولسوف يقول الناس وقد خاب أملهم: «ولكن هذا لا يمكن قراءته!»، ويذهب بهم التفكير إلى حد إلقائه في صندوق القمامة. وتطالب به مكتبة البلدية في أورياك آخر الأمر من قبيل الوفاء الخالص، ويظل فيها منسياً مائة سنة. ثم ذات يوم حباً فيَّ، سيحاول بعض العلماء الشبان حل طلاسمه، ولسوف يقضون كل حياتهم لإعادة إنشاء ما سوف يكون تحفتي بطبيعة الحال. كانت أمي قد غادرت الغرفة، كنتُ وحدي، وكنت أكرر لنفسي، ببطء، هذه العبارة «في الظلام!». التي كنت أفكر فيها بخاصة. وسمعت صفقة قوية: إن حفيد ابن خالي. وهو فوق، كان يقفل كتابه: كان يحلم بطفولة خال خاله وكانت الدموع تسيل على خديه وكان يقول متنهداً «إن ذلك لحقيقي، لقد كتب في الظلمات!».

كنت أتبختر أمام أطفال سوف يولدون ويشبهونني تماماً. كنتُ أستدر من نفسي دموعاً وأنا أتذكر الدموع التي سوف أجعلهم يذرفونها. كنتُ أرى موتي بعيونهم. لقد حدث، وكان ذلك حقيقتي، وأصبحت ترجمة وفاتي.

وبعد أن قرأ صديق لي ما تقدم، نظر إليَّ نظرة يبدو عليها القلق، وقال لي: «لقد كنتُ مصاباً بأكثر مما كنت أتصور.» مصاب؟ لا أعرف. إن هذياني كان واضح الإتقان. وكانت أهم مسألة في نظري هي الصدق. ففي التاسعة من عمري كنتُ أجلس بالقرب منه؛ وبعد ذلك ذهبتُ بعيداً جداً عنه.

في البداية كنت سليماً كالعين: كنت مزوراً صغيراً يعرف التوقف في الوقت المناسب. ولكنني كنت أجتهد. وحتى في الخداع ظللت قوياً في الترجمة إلى لغة الغير، واليوم أعتبر اتصالاتي تمرينات روحية. وعدم صدقي كاريكاتوراً لصدق تام كان لا يتوقف عن ملامستي ثم ينفلت مني. إنني لم أختر دعوتي: لقد فرضها عليَّ غيري. والواقع أنه لم يحدث شيء. كلمات في الهواء ألقت بها امرأة عجوز، ثم مكيافيلية شارل. ولكن كان يكفي أن أقتنع. إن الأشخاص الكبار القائمين في نفسي كانوا يشيرون بأصبعهم إلى نجمي الذي لم أكن أراه وإنما كنت أرى الإصبع وكنت أومن بهم وكانوا يدعون أنهم يؤمنون بي. لقد أخبروني بوجود موتى كبار - أحدهم آت - نابليون وتموستوكليس وفيليب أوغسطس وجان بول سارتر. إني لم أكن أشك في ذلك: وإلاَّ كان ذلك شكاً فيهم. وكنتُ ببساطة أود أن ألتقي بالأخير وجهاً لوجه. كنت أبحلق وأتلوى لأثير الوحي الذي يغمرني، كنت امرأة باردة اختلاجاتها تحرِّض لكي تحل محل الاشباع الجنسي. هل يقال عن هذه المرأة إنها متصنعة أو أنها مجتهدة أكثر من اللازم؟ وعلى أي حال فإني لم أحصل على شيء، فقد كنتُ دائماً قبل أو بعد الرؤية المستحيلة التي سوف تكشفني لنفسي، وكنت أجد نفسي في آخر تمريناتي، شكاكاً، لم أربح شيئاً سوى بعض النهج المناسب. ولما كان تفويضي قائماً على مبدأ السلطة، وعلى طيبة الأشخاص الكبار، تلك الطيبة التي لا تنكر. فإن شيئاً لم يستطع أن يؤكد هذا التفويض أو يكذبه. ولما كان هذا التفويض في مأمن ومختوماً عليه، فقد كان يمكث فيَّ. ولكن ضعف ملكيتي له جعلني لا أتمكن أبداً، ولو للحظة، من أن أشك فيه، ولا أن أتمكن من تذويبه وتمثيله.

إن الإيمان لا يكون أبداً كاملاً حتى لو كان عميقاً. ينبغي ألا نكف عن دعمه أو على الأقل أن نمنع أنفسنا من هدمه. كنت مُعَداً لأن أكون عظيماً، وكان قبري في «بيرلاشيز[1] وربما في البانتيون[2]». وكان لي شارع في باريس وحدائقي العامة ومياديني في الأقاليم وفي الخارج: ولكن داخل التفاؤل غير المرئي وغير المسمى كنتُ أحتفظ بالشك في عدم صلابتي. وفي مستشفى القديسة حَنه[3] صاح مريض وهو في فراشه «أنا أمير! فليلقَ القبض على الغرندوق». وكانوا يقتربون منه ويقولون له في أذنه: «أمخط!» وكان يمخط؛ وكانوا يسألونه «ما صنعتك؟» فكان يجيب برقة: «صانع أحذية» ثم يستأنف الصياح. أعتقد أننا نشبه جميعاً هذا الرجل. وعلى أية حال، كنتُ أشبهه وأنا في بداية التاسعة من عمري: كنت أميراً وصانع أحذية.

وبعد ذلك بسنتين تيقنوا أني شفيت: لقد اختفى الأمير، ولم يكن صانع الأحذية يؤمن بشيء، ولم أعد أكتب؛ لقد ألقيت بكراسات الروايات في القمامة أو ضاعت أو أحرقت وتركت مكانها لكراسات إعراب الجمل والإملاء والحساب. ولو أن أحداً دخل في

---

(١) مدافن باريس (المترجم). (٢) مدفن عظماء فرنسا (المترجم). (٣) مستشفى للأمراض العقلية بفرنسا (المترجم).

رأسي المفتوحة لكل ريح لالتقى فيها ببعض التماثيل النصفية، وبجدول ضرب ضال، وبالقاعدة الثلاثية وباثنتين وثلاثين مقاطعة بعواصمها ولكن بدون مراكزها. وبتصريف الأسماء اللاتينية، وبآثار تاريخية وأدبية، وببعض حكم الأدب محفورة على نصب وأحياناً بحلم يقظة سادي كوشاح ضباب ممتد فوق هذه الحديقة الحزينة لا «فتاة يتيمة» ولا أثر لفارس شجاع! إن الكلمات: بطل وشهيد وقديس لم تكن مكتوبة في أي مكان، ولم يكن هناك أي صوت يرددها. إن بردايان سابقاً كان يتسلّم كل ثلاثة أشهر نشرات صحية مرضية. طفل متوسط الذكاء وعلى جانب عظيم من الخلق، موهبته قليلة في العلوم الدقيقة، خيالي بدون مبالغة، حساس؛ استواء كامل على الرغم من بعض التكلُّف الآخذ في التقلص. غير أني كنت أصبحت مجنوناً تماماً. حدثان أحدهما عام والآخر خاص قد طيّرا القليل الباقي من عقلي.

كان الحدث الأول مفاجأة حقيقية: ففي شهر يوليو سنة ١٩١٤، كان لا يزال يوجد الأشرار: ولكن في ٢ أغسطس[1] استولت الفضيلة على السلطة فجأة وأصبحت الحاكمة: وأصبح جميع الفرنسيين أخياراً. وكان أعداء جدي يرتمون بين ذراعيه، وتطوع بعض الناشرين، وكان السوقة يتنبأون، وكان أصدقاؤنا يجمعون العبارات البسيطة العظيمة التي يقولها البواب وساعي البريد والسباك وكانوا ينقلونها إلينا، وكان الجميع يهللون، عدا جدتي المتشككة حقاً. كنت سعيداً: كانت فرنسا تمثل عليّ، وكنت أمثل على فرنسا. ولكن ما لبثت الحرب أن سببت لي الملل: إذ كانت تضايق حياتي قليلاً جداً. بحيث أني نسيتها بلا شك: إلا أني تقززت منها حين لاحظت أنها تحطم مطالعاتي. فقد اختفت مطبوعاتي المفضلة من أكشاك الجرائد؛ وترك أرنو جالوبان وجوڤال وچان دى لاهير أبطالهم المعتادين، هؤلاء المراهقين إخواني الذين كانوا يدورون حول العالم بطائرة ذات جناحين وبطائرة مائية والذين كانوا يتصارعون اثنين أو ثلاثة ضد مائة؛ وتَركت روايات ما قبل الحرب الاستعمارية مكانها للروايات الحربية الممتلئة بالبحارة الصغار والشبان الألزاسيين والأيتام تعاويذ الفرقة. كنت أكره هؤلاء القادمين الجدد. وكنت أعتبر مغامري الغابات الصغار أطفالاً نوابغ، لأنهم كانوا يذبحون السكان الأصليين الذين هم كبار بعد كل شيء. ولما كنتُ أنا نفسي طفلاً نابغاً فكنت أتعرف على نفسي فيهم. ولكن كل شيء كان يحدث خارج هؤلاء الأطفال المجندين. فالبطولة الفردية ترنحت إذ كان السلاح المتفوق يسندها ضد المتوحشين ولكن ما العمل أمام مدافع الألمان؟ كان لابد من مدافع أخرى ورجال مدفعية وجيش. ووسط الجنود الشجعان الذين كانوا يربتون على رأسه والذين كانوا يحمونه، كان الطفل النابغة يعود إلى الطفولة، وكنت أعود إليها معه. وكان المؤلف يكلفني من آن لآخر - شفقة بي - أن أحمل رسالة، وكان الألمان يلقون القبض عليّ، وأجاوبهم ببعض الاجابات المتكبرة ثم أهرب وأعود إلى خطوطنا وقد قمت بمهمتي. وكانوا يهنئونني بكل تأكيد ولكن

(١) يشير المؤلف إلى اليوم الذي أعلنت فيه ألمانيا الحرب على فرنسا في سنة ١٩١٤ (المترجم).

بدون حماس حقيقي، ولم أكن أجد في عيني الجنرال الأبوية النظرة المفتونة التي كانت للأرامل والأيتام. كنت فقدت المبادرة: كانوا يكسبون المعارك وسوف يكسبون الحرب بدوني؛ إن الأشخاص الكبار استردوا احتكار البطولة، كان يحدث أن ألتقط بندقية قتيل وأن أطلق بعض الرصاصات، ولكن لم يحدث قط أن سمح لي أرنو جالوبان وچان دى لاهير أن أهجم بالسونكي. ولما كنتُ أتعلم البطولة فقد كنت أنتظر بفارغ صبر سن دخول الجندية. ولكن بالأحرى لا: لقد كان ابن الجندي الذي ينتظر، لقد كان يتيم الألزاس. فانسحبت منهم وقفلت الكتاب. كنت أعرف أن الكتابة عمل طويل غير مثمر، ولسوف أكون صبوراً كل الصبر. ولكن القراءة كانت عيداً: كنت أريد كل الأمجاد في الحال. وأي مستقبل يعرضونه عليَّ؟ أن أصبح جندياً؟ يا لها من صفقة رائعة! إن الجندى حين يكون وحيداً لا يُعتبر أكثر من طفل. إنه يهجم مع الآخرين والفرقة هي التي تكسب المعركة. لم أكن أهتم بالمشاركة في انتصارات جماعية. وحين كان أرنو جالوبان يريد أن يميِّز جندياً فإنه لم يكن يجد خيراً من أن يرسله لنجده ضابط جريح. إن هذا التفاني الخفي كان يضايقني: إن العبد ينفذ السيِّد. ثم أنها لم تكن إلاَّ شجاعة مناسبة، ففي زمن الحرب تُقسم الشجاعة خير تقسيم. وبشيء من الحظ يؤدي أي جندي آخر العمل نفسه. كان ذلك يثيرني : لأن ماكنتُ أفضله في بطولة ماقبل الحرب كان هو الوحدة والتلقائية. كنت أترك خلفي الفضائل اليومية الشاحبة، كنتُ أبتكر الرجل لي وحدي عن كرم؛ «الدوران حول الأرض بطائرة مائية» و «مغامرات صبي من باريس» و «الكشافون الثلاثة». إن كل هذه النصوص المقدسة كانت توجهني على طريق الموت والبعث. ولكن هاهم المؤلفون يخونونني فجأة: لقد وضعوا البطولة في متناول الجميع؛ لقد أصبحت الشجاعة والتضحية بالذات فضائل يومية؛ والأنكى من ذلك أنهم كانوا ينزلونها منزلة الواجبات الغاية في البدائية. وكان تغيير الديكور على صورة هذا التغيير. فقد حل ضباب الأرجون[1] الجماعى محل الشمس الكبيرة الوحيدة والضوء الفردي في خط الاستواء.

وبعد انقطاع دام بضعة شهور، قررتُ العودة إلى القلم لأكتب رواية حسب وحي قلبي ولأعطي لهؤلاء السادة درساً طيباً. كان ذلك في أكتوبر١٩١٤ ولم نكن قد تركنا أركشون. اشترت أمي كراسات كلها من نوع واحد: وعلى غلافها البنفسجي صورة «چان دارك» وعلى رأسها خوذة، علامة الزمن. وفي حمى هذه القديسة أخذت أكتب قصة الجندي بيران الذي يخطف امبراطور ألمانيا ويأتي به داخل خطوطنا مكبلاً، ثم يدعوه للمبارزة أمام الفيلق مجتمعاً، ويلقيه أرضاً ويجبره، وسيفه على عنقه، على توقيع صلح شائن وإعادة مقاطعتي الألزاس واللورين إلينا. وبعد أسبوع شعرت بالضجر من قصتي، لقد أخذتُ فكرة المبارزة من روايات الطعن والنزال: إن «ستورت بكر»، وهو من أبناء

(١) منطقة تتألف من تلال وغابات تقع شرق باريس. كانت مسرحاً لمعارك حربية في الحرب العالمية الأولى (المترجم).

البيوتات ومنفى، يدخل حانة لقطّاع الطرق. فيسبه عملاق، هو رئيس العصابة، فيقتله ضرباً بقبضتي يديه، ويأخذ مكانه ويخرج ملكاً على المرتزقة في اللحظة المناسبة لإنزال جيشه في سفينة للقرصنة. كانت قوانين ثابتة وصارمة تحكم الحفل: كان ينبغي أن يظهر بطل الشر بمظهر الإنسان الذي لا يقهر وأن يتصارع بطل الخير وسط السخرية، وأمام انتصاره غير المتوقع يصاب الذين كانوا يسخرون منه بالجمود من شدة الهلع، غير أني في تجربتي الفجّة خالفتُ كل القواعد وفعلتُ عكس ما كنت أتمنى: فعلى الرغم من قوة الإمبراطور فلم يكن مفتول الذراع. وكانوا يعرفون مقدماً أن بيران المصارع العظيم سوف يلتهمه لقمة سائغة. ثم كان الجمهور معادياً له، إن جنودنا يصرخون في وجهه بكراهيتهم على نحو تركني مشدوهاً، وأغتصب غليوم الثاني المجرم ولكنه الوحيد، وقد أوسع سخرية وبصقاً، عزلة أبطالي الملكية تحت بصري.

وكان هناك ما هو أنكى؛ فحتى ذلك الحين لم يكن هناك ما يُثبت أو يكذّب ما كانت لويز تسميه «أعمالي التي أنهكتُ نفسي في تأليفها»: كانت أفريقيا واسعة وبعيدة وقليلة السكان، أخبارها قليلة، ولم يكن أحد قادراً على أن يثبت أن المستكشفين الذين كنتُ أتحدث عنهم لم يكونوا هناك ولم يطلقوا الرصاص على الأقزام في الساعة ذاتها التي كنتُ أصف قتالهم. لم أكن أذهب إلى حد اعتباري لنفسي مؤرخهم، ولكن من كثرة ما سمعت عن حقيقة الروايات الخيالية فقد اعتقدت أنني أقول الحقيقة خلال أساطيري، بطريقة لم أكن أدركها بعد ولكنها سوف تكون واضحة كالشمس بالنسبة لقرائي في المستقبل. ولكن في شهر أكتوبر المشئوم هذا، حضرت، عاجزاً، اصطدم الخيال بالوقائع فامبراطور ألمانيا الذي وُلد من قلمي، هُزم وأمر بوقف إطلاق النار؛ وكان المنطق يُحتم أن يرى خريفنا عودة السلام؛ ولكن في الوقت ذاته كانت الصحف والكبار يرددون صباح مساء أننا استقررنا في الحرب وأنها سوف تطول. وشعرت بأني خُدعت: لقد كنتُ دجالاً، وكنت أحكي ترهات لا يريد أحد أن يصدقها: وباختصار فقد اكتشفت الخيال. ولأول مرة في حياتي قرأت نفسي. واحمر وجهي خجلاً لقد كنت أنا، أنا الذي رضيتُ بهذه الأحلام الصبيانية؟ وكنتُ أترك الأدب: وأخيراً حملت كراستي إلى الشاطئ ودفنتها في الرمل. وزال ضيقى؛ واستعدتُ ثقتي: كانت لي دعوة بلا أدنى شك؛ ولكن للآداب سرها الذي قد تكشفه لي في يوم من الأيام. وإلى أن يحين ذلك اليوم فإن سنّي تأمرنى بأن أبالغ في التحفظ. وانقطعت عن الكتابة.

وعدنا إلى باريس. وتركتُ إلى الأبد أرنو جالوبان وجان دى لاهير: فإني لم أكن أستطيع أن أغفر لهذين الانتهازيين انتصارهما عليّ. وأبديت استيائي من الحرب، الملحمة الرديئة؛ وفي مرارة هربت من العصر ولجأت إلى الماضي. وقبل ذلك ببضعة أشهر، في آخر سنة ١٩١٣، كنتُ قد اكتشفت «نيك كارتر» و «بفالوبيل» و «تكساس چاك» و «ستنج يول»: وقد اختفت هذه المطبوعات منذ بداية الأعمال الحربية: وادّعى جدي أن الناشر كان ألمانياً ولكننا كنا نجد لحسن الحظ عند بائعي الكتب القديمة على أرصفة نهر السين أغلب

الأعداد التي ظهرت. وجررت أمي إلى ضفاف السين وقمنا بنبش الصناديق واحداً واحداً من محطة أورسى إلى محطة أوسترليتز وكان يحدث أن نعود بخمس عشرة ملزمة معاً؛ وما لبث أن أصبح عندي خمسمائة ملزمة وكنت أرتبها في أكوام مرصوصة. وكنت لا أمل من عدها وأن أنطق بصوت عال عناوينها الغامضة: «جريمة في منطاد»، «التعاقد مع الشيطان»، «عبيد البارون موتو شيمى»، «بعث دازار». وكنت أحب أن تكون أوراقها قد أصفرّت وامتلأت بالبقع وتصلّبت برائحة غريبة تشبه رائحة الأوراق الذابلة. وكانت أوراقاً ذابلة واطلالاً، وذلك أن الحرب كانت قد أوقفت كل شيء. كنت أعرف أنني سوف أظل أجهل المغامرة الأخيرة للإنسان طويل الشعر. وأنني سوف أجهل دائماً آخر تحقيق لملك المخبرين: إن هؤلاء الأبطال المنفردين كانوا مثلي ضحايا النزاع العالمي، ولذلك كنت أحبهم أكثر. وكي أهذي من الفرح كان يكفيني أن أتأمل الصور الملونة التي تحلي الأغلفة. «بفالوبيل» ممتطياً صهوة جواده يعدو في الحرج يطارد الهنود تارة ويفر منها تارة أخرى. كنت أفضل صور «نيك كارتر». قد يجدها المرء مملة: ففي كل هذه الصور تقريباً نرى المخبر الكبير وهو يسدد ضربة قاتلة أو هو يتلقى ضربة مطرقة. ولكن هذا الشجار كان يحدث في شوارع مانهاتن وفي أراض فضاء محاطة بسياج بني أو بأبنية واهية مكعبة وبلون الدم الجاف: كان ذلك يبهرني وكنت أتخيَّل مدينة بوريتانية ودامية يلتهمها الفضاء ولا تكاد تخفي الأعشاب التي تحملها. كان كل من الجريمة والفضيلة خارج القانون في هذه المدينة. إن كلاً من القاتل والقاضي حر وذو سيادة وكانا يتفاهمان مساء بطعنات السكين. وفي هذه المدينة – كما في إفريقيا تحت الشمس المحرقة ذاتها- تعود البطولة ارتجالاً على الدوام. ذلك هو سبب شغفي بنيويورك.

لقد نسيت الحرب ودعوتي معاً. وعندما كانوا يسألونني: «ما الذي سوف تفعله حين تصبح كبيراً؟» كنت أجيب بلطف وتواضع أنني سوف أكتب، ولكني كنت قد تركتُ أحلامي في المجد والتمرينات الروحية. وربما كانت سنة ١٩١٤ أسعد سنوات طفولتي لهذا السبب. كنتُ أنا وأمي من سن واحدة، وكنا لا نترك بعضنا بعضا. كانت تدعوني فارسها القائم على خدمتها ورجلها الصغير. وكنت أقول لها كل شيء وأكثر من ذلك كانت الكتابة تدخل وتتحوَّل إلى ثرثرة وتخرج من فمي: كنت أصف ما أراه وما تراه «آن ماري» مثلي: المنازل والأشجار والناس. وكنت أشحن نفسي بالمشاعر لكي أتلذذ بنقلها إليها. وأصبحت محولا للطاقة. كان العالم يستخدمني ليجعل من نفسه كلاماً. كان ذلك يبدأ بثرثرة في رأسي لا اسم لها. كان أحدهم يقول: «أنا أمشي، أنا أجلس، أنا أشرب كوب ماء، أنا آكل ملبسة». وكنت أكرر بصوت عال هذا التعليق الدائم: «أنا أمشي يا أمي، وأنا أشرب كوب ماء وأنا أجلس». واعتقدت أن لي صوتين أحدهما -كان لايكاد يكون لي أو يتعلق بإرادتي، وكان يملي عليَّ الآخر أحاديثه. وقررت أنني مزدوج واستمرت هذه الاضطرابات الخفيفة حتى الصيف. كانت تنهكني وكنت أغتاظ منها وانتهى بي الأمر إلى أنني أصبحت أخافها. قلت لأمي « إن شيئاً يتكلم في رأسي» ولكنها لم تقلق لحسن الحظ.

إن ذلك لم يكن يفسد سعادتي ولا وحدتنا. وكانت لنا أساطيرنا ولازمتنا في الكلام، ومزاحنا الذي يتكرر. وخلال سنة تقريبا كنتُ أنهي جملي، على الأقل مرة كل عشر مرات -بهذه الكلمة التي كنت ألفظها باستسلام ساخر: «معلهش». كنت أقول: «هذا كلب أبيض. إنه ليس أبيض بل هو رمادي ولكن معلهش». واعتدنا أن يحكي بعضنا للبعض -الأحداث الصغيرة لحياتنا بأسلوب ملحمي بمجرد حدوثها. كنا نتحدث عن أنفسنا بضمير جمع الغائب. كنا ننتظر السيارة العامة وكانت تمر أمامنا دون أن تتوقف؛ وكان أحدنا يصيح عندئذ: «لقد ضربوا الأرض بقدمهم وهم يلعنون الماء» وكنا نأخذ في الضحك. وكانت لنا مصطلحاتنا السرية: كانت طرفة عين تكفى. فحين نكون في متجر أو في صالون للشاي إذا بدت لنا البائعة مضحكة، كانت أمي تقول لي ونحن خارجين: «لم أنظر إليك خوفاً من أن أقهقه في وجهها»، وكنتُ أشعر بفخر من قدرتي، فلا يوجد عدد كبير من الأطفال يعرفون كيف يثيرون قهقة أمهم من نظرة واحدة. ولما كنا خجولين كنا نخاف معا. وذات يوم اكتشفتُ على أرصفة نهر السين اثني عشر عدداً من مجلة بفالوبيل لم أكن قد حصلت عليها بعد؛ وكانت تستعد لدفع ثمنها عندما اقترب منا رجل سمين شاحب، عيناه من لون الفحم وشاربه لامع وعلى رأسه قبعة من القش ذات حافة مسطحة ودقيقة، وكان له ذلك المظهر الذي كان يصطنعه عن طيب خاطر الشبان الملاح في ذلك العهد. كان يحدق البصر في أمي ولكنه اتجه إليَّ وردد هذه العبارة بعجلة شديدة «إنهم يدللونك أيها الصغير، إنهم يدللونك! «لم أشعر أول الأمر إلا بأنني أهنت: فلم أكن أخاطب بصيغة المفرد بهذه السرعة، ولكني فاجأت نظرته الشهوانية، وأصبحت أنا و «آن ماري» كفتاه واحدة جفلة، قفزت إلى خلف. وابتعد السيد، وقد فشلت خطته. لقد نسيت آلاف الوجوه، ولكني لازلت أذكر هذا الوجه المكتنز. كنتُ أجهل كل شيء عن الجسد، ولم أكن أتصوَّر ما كان هذا الرجل يريده منا، ولكن الشهوة كانت جلية، بحيث خيِّل لي أني أفهم، وأن كل شيء قد كشْف لي بطريقة ما. لقد شعرتُ بهذه الشهوة خلال آن ماري، فمن خلالها تعلمت أن أحس بالذكر وأن أخشاه وأن أكرهه. وقد وثقت هذه الحادثة عرانا: كنت أتسكع بوجه عابس ويدي في يد أمي وكنتُ واثقاً من حمايتي لها. هل هي ذكرى هذه السنوات؟ واليوم أيضاً فإني لا أستطيع أن أشاهد بلا سرور طفلا غاية في الجد يكلِّم أمه الطفلة برصانة وحنان، إني أحب هذه الصداقات الرقيقة المتوحشة التي تنشأ بعيداً عن الناس وضدهم. إني أنظر طويلاً إلى هذه الأزواج الطفلية ثم أتذكر أنني رجل وأشيح بوجهى.

والحدث الثاني وقع في أكتوبر ١٩١٥. كان عمري عشرسنوات وثلاثة أشهر، ولم يكن في استطاعتهم أن يفكِّروا في ابقائي تحت الحراسة مدة أطول. وكتب «شارل شفايتزر» أحقاده وسجل اسمي بالقسم الخارجي في ليسيه هنري الرابع الصغيرة.

وجاء ترتيبي الأخير في أول موضوع إنشاء أعطي لنا. ولما كنتُ اقطاعياً صغيراً فقد كنت أعتبر التعليم رباطاً شخصياً. لقد أعطتني الآنسة «ماري لويز» علمها عن حب، وتسلمته عن طيبة خاطر حباً بها. لقد صُدمت بدروسها «المنزلة» التي كانت تتوجه للجميع

بالبرود الديمقراطي للقانون، ولما كنت خاضعاً لمقارنات دائمة فقد تلاشى تفوقي الذي حلمت به. كان ثمة تلميذ يجيب على الدوام أحسن أو أسرع مني. كنتُ محبوباً أكثر مما يجب لأضع نفسي من جديد موضع مناقشة. كنتُ أعجب عن طيب خاطر بزملائي وكنت لا أحسدهم، فسوف يأتي دوري في الخمسين. وبالاختصار كنت أشرد دون أن أتألم: ولما كان ذعر قوي يستبد بي فإني كنتُ أقدم باجتهاد واجبات غاية في الرداءة. وكان جدي يقطب حاجبيه. وأسرعت أمي إلى طلب تحديد موعد من السيد أوليفيه معلمي الرئيسي الذي استقبلنا في شقة الأعزب التي يسكنها. واتخذت أمي صوتها المغرد. وكنت أصغي إليها واقفاً بجانب كرسيها وناظراً إلى الشمس خلال الغبار العالق على ألواح الزجاج. وجاهَدَتْ في البرهنة على أني خير من واجباتي: فقد تعلمتُ القراءة وحدي، وكنت اكتب روايات. ولما أعيتها الحجج أعلَنَت أني ولدت بعد عشرة أشهر، فقد كنت أكثر «نضجاً من الآخرين وأكثر تورداً و«تقميراً» لأنني مكثت في الفرن مدة أطول! كان السيد أوليفيه يصغي إليها بانتباه متأثراً بجاذبيتها أكثر من تأثره بمزاياي. كان رجلاً طويل القامة شديد النحول، أصلع وبجمجمة بارزة وعينين غائرتين وبشرة بلون الشمع وتحت أنف طويل محدب ينمو بعض الشعر الأصهب. ورفض أن يعطيني دروساً خاصة، ولكن وعد برعايتي. ولم أكن أطلب أكثر من ذلك. كنت أرقب نظرته أثناء الدروس، كنتُ متأكداً من أنه لم يكن يتكلم إلاّ من أجلي، واعتقدت بأنه يحبني، وأحببته، وقام بالباقي بعض الكلمات الطيبة، وأصبحت بلا جهد تلميذاً مجتهداً إلى حد ما. وكان جدي يتذمر وهو يقرأ ورقات درجاتي ربع السنوية، ولكنه كفّ عن التفكير في سحبي من الليسيه. وفي الصف الخامس أصبح لي معلمون آخرون، وفقدتُ معاملتي الخاصة ولكني كنت قد تعودت على الديمقراطية.

لم تكن أعمالي المدرسية تترك لي وقتاً للكتابة؛ وقد انتزعت مخالطاتي الجديدة مني حتى الرغبة فيها. وأخيرا أصبح لي زملاء! أنا المبعد عن الحدائق العامة قد ضموني من اليوم الأول وبأبسط ما يمكن، الشيء الذي أذهلني. والحقيقة كان أصدقائي يبدون أقرب إليّ من البردايانات[1] الشباب الذين حطموا قلبي. كانوا في القسم الخارجي مدللين وتلاميذ مجدين. وأياً كان الأمر فقد كنت أشعر بفرح عظيم. وكانت لي حياتان. فمع عائلتي كنت أقلّد الرجل. ولكن الأطفال فيما بينهم يكرهون الصبينة إنهم رجال عن حق. ولما كنت رجلا بين الرجال. فقد كنتُ أخرج من الليسيه كل يوم بصحبة الأخوة (ملكان) الثلاثة: جان ورينيه وأندريه، والأخوين پول ونوربير ميير، وبران وماكس بركو، وجريجوار. كنا نعدو ونحن نصيح في ميدان البانثيون. كانت لحظة سعادة رصينة، فقد كنتُ أتخلص من التمثيلية العائلية؛ ولما لم أكن أريد أن ألمع فقد كنت أضحك مقلداً. كنت أردد كلمات التعارف والكلمات الطيبة. كنت أصمت وكنت أطيع وأقلد حركات جيراني. ولم يكن لي إلاّ هوى واحد: أن أنضم إلى المجموعة. ولما كنتُ جافاً وصلباً ومبتهجاً فقد

---

(١) اسم أحد أبطال الروايات التي كان يقرأها مجموعاً. وهو جمع بردايان (المترجم).

كنتُ أشعر بأنني من صلب، وقد تخلصتُ أخيراً من خطيئة وجودي. كنا نلعب الكرة بين قصر الرجال العظام[1] وتمثال چان جاك روسو. كنت ضرورياً «الرجل المناسب في المكان المناسب»[2]. لم أعد أحسد السيد سيمونو على شيء: فإلى من كان ميير سيمرر الكرة بعد أن غافل جريجوار إن لم أكن أنا موجوداً هنا الآن؟ كم كانت احلامي بالمجد تبدو تافهة وجنائزية إلى جانب هذه البديهيات السريعة التي كانت تكشف لي ضرورتي.

كانت هذه البديهيات تنطفئ مع الأسف بأسرع مما كانت تشتعل. كانت ألعابنا «تهيجنا» كما كانت تقول أمهاتنا، وكانت أحياناً تحول جماعاتنا إلى حشد صغير موحَّد كان يبتلعني، ولكننا لم نستطع قط أن ننسى أهلنا طويلاً، وكان حضورهم غير المرئي لا يلبث أن يهبط بنا إلى الوحدة المشتركة التي تعيش فيها الجماعات الحيوانية. ولما كان مجتمعنا بلا هدف ولا غاية ولا مراتب، فإنه كان يتردد بين الامتزاج التام وبين التلاصق. كنا نعيش سوياً في الحقيقة، ولكن كنا لانستطيع أن ندفع عنا الشعور الذي كان ينسبه بعضنا لبعض -وشعورنا بأن كلامنا ينتمي لجماعات ضيقة وقوية وبدائية، تصنع أساطير ساحرة وتتغذى بالخطأ وتفرض علينا استبدادها. كنا مدلهين ومؤمنين ومرهفي الحس وكثيري النقاش، ننفر من الفوضى ونكره العنف والظلم. يوحّدنا ويفصلنا الامتناع الضمني بأن العالم قد خلق لاستعمالنا، وبأن أهلنا هم أفضل الأهل قاطبة. كنا نحرص على عدم إهانة أحد، وأن نبقى مجاملين حتى في ألعابنا. كانت السخرية والمزاح ممنوعين بتاتاً. وإذا ثار أحدنا كانت الجماعة كلها تلتف حوله وتهدئه وتضطره إلى الاعتذار، كما لو كانت أمه بنفسها هي التي تبكته بلسان چان مالكان أو نوربير ميير. وعلى أي حال فإن كل أولاء السيدات كن يعرفن بعضهن بعضا، وكن يعاملن بعضهن بعضا معاملة قاسية. كن ينقلن بعضهن لبعض أحاديثنا ونقدنا وأحكام كل منا على الجميع. أما نحن الأبناء فكنا نُخفي بعضنا عن بعض أحاديثهن. وعادت أمي غاضبة من زيارة للسيدة مالكان لأنها قالت لها بكل صراحة: «إن أندريه يجد أن پولو مدعياً» لم يكدرني هذا الرأي: هكذا تتكلم الامهات فيما بينهن؛ ولم أحقد أبداً على أندريه ولم أقل له كلمة عن هذا الموضوع. كنا بالاختصار نحترم العالم كله، الأغنياء والفقراء، الجنود والمدنيين، الشباب والشيوخ، الناس والحيوانات. لم نكن نحتقر سوى تلاميذ القسمين نصف الداخلي والداخلي: لابد أن يكونوا قد اقترفوا ذنوبا كبيرة مما جعل أسرهم تتركهم: ربما كان أهلهم سيئين ولكن ذلك لن يجدي شيئاً: إن للأطفال الاباء الذين يستحقونهم. وفي المساء، بعد الساعة الرابعة تصبح الليسيه مكاناً خطراً حين يغادرها تلاميذ القسم الخارجي.

وإن صداقات بهذا القدر من الحذر لا يمكن أن تقوم دون بعض الجفاء. وفي العطلة الصيفية كنا نفترق غير آسفين. ومع ذلك كنتُ أحب بركو. كان بمثابة أخ لي لأنه كان ابن

(١) يقصد البانثيون النصب الذي يدفن فيه عظماء فرنسا (المترجم).

(٢) The right man in the right place

أرملة. كان وسيماً وضعيفاً ورقيقاً؛ لم أكن أمل من النظر إلى شعره الطويل وقد جرى تمشيطه على طريقة جان دارك. ولكن كان كلانا فخوراً على الخصوص بأنه قرأ كل شيء، وكنا ننتمي وكنا تحت القسم المسقوف من فناء المدرسة لنتكلم في الأدب، أمي تعاود مائة مرة، وبسرور - عد المؤلفات التي تناولتها أيدينا. وذات يوم نظر إليّ نظرة هوس وأسر لي بأنه يريد أن يكتب. لقد التقيت به بعد ذلك في الصف النهائي من القسم الثانوي، وسيماً كالعادة ولكنه مصاب بالسل: وقد توفي في الثامنة عشرة من عمره.

كنا جميعاً، حتى بركو العاقل، تعجب ببنار، هذا الصبي البرِّيد المستدير الذي كان يشبه الكتكوت. إن صدى مزاياه وصل إلى أسماع أمهاتنا فاستشعرن نحوه شيئاً من الغيرة ولكنهن لم يكن يكففن عن تقديمه لنا مثلا يحتذى، دون أن يصل بهن الأمر إلى جعلنا ننفر منه. وليحكم الناس على تحيزنا، كان في القسم نصف الداخلي وكنا نحبُه لذلك أكثر؛ فكان في نظرنا تلميذاً شرفياً في القسم الخارجي. وفي المساء، تحت المصباح العائلي كنا نفكر في هذا المبشّر الذي يبقى في الغابة ليهدي أكلة اللحوم البشرية في القسم الداخلي، وكان خوفنا يقل. ومن العدل أن نقول إن تلاميذ القسم الداخلي بالذات كانوا يحترمونه. ولم أعد أعرف بكل وضوح أسباب هذا القبول الإجماعي. كان «بنار» رقيقاً وبشوشاً وحساساً، وكان فوق ذلك الأول في كل المواد. ثم أن أمه كانت تحرم نفسها من أجله. ولم تكن أمهاتنا تعاشر هذه الخياطة، ولكنهن كن يحدثننا عنها كثيراً ليجعلننا تقدر عظمة حب الأم. لم نكن نفكر إلا في بنار: كان شعلة هذه التعسة وبهجتها: كنا نقدر عظمة الحب البنوي. والخلاصة فإن الجميع كانوا يحنون على هذين الفقيرين الطيبين. ولكن ذلك لم يكن يكفي. والحقيقة أن بنار كان يحي نصف حياة: فأنا لم أره أبداً بدون كوفية غليظة من الصوف. كان يبتسم لنا بلطف ولكنه كان قليل الكلام، وأذكر أنه مُنع من اللعب معنا. وكنت من ناحيتي أجلُّه بقدر ما كان ضعف صحته يبعده عنا. لقد وضعوه خلف الزجاج. كان يحيينا ويرسل لنا اشارات خلف زجاج النافذة، ولكننا لم نكن نقترب منه. كنا نحبه من بعيد لأنه وهو حي كانت له أثيرية الرموز. إن الطفولة تتمسك بالعرف والتقاليد، وكنا نعترف له بجميل دفعه الكمال إلى حد التجريد. وإن تحدث إلينا امتلأنا سروراً من كلامه الذي لا دلالة له. لم نره ساخطاً قط ولا مبتهجاً أكثر مما يجب. وفي الفصل لم يرفع إصبعه قط، ولكن عندما كان يسأل كانت الحقيقة تتكلم بلسانه، بلا تردد ولا جهد، تماماً كما ينبغي أن نتكلم الحقيقة. كان يثير دهشة شلتنا المكونة من أطفال نبغاء لأنه كان الأفضل دون أن يكون نابغاً. وفي ذلك الوقت كنا جميعاً تقريباً يتماء الأب. لقد مات هؤلاء السادة، أو كانوا على جبهة القتال، ومن بقي على قيد الحياة، وقد قل شأنهم ونقصت رجولتهم - كانوا يعملون على أن ينساهم أبناؤهم. كنا في عهد الأمهات، كان بنار يعكس لنا الفضائل السلبية لسلطة الأم.

وقد توفي آخر الشتاء. إن الأطفال والجنود لا يهتمون قط بالموتى. ومع ذلك كنا أربعين ننتحب خلف نعشه. كانت أمهاتنا ساهرات: لقد غطيت الهوة بالزهور وقد اجتهدن

في أن يجعلننا نعتبر هذا الموت جائزة اضافية لحسن السلوك والاجتهاد، منحت أثناء العام الدراسي. ثم إن بنار كان يعيش قليلاً، بحيث أنه لم يمت حقيقة. لقد ظل بيننا وجوداً منتشراً، في كل مكان، ومقدساً. لقد قفزت حكمتنا قفزة: فأصبح لدينا فقيد عزيز، كنا نتحدث عنه بصوت خفيض وسرور حزين، فلربما نختطف مثله قبل الأوان. كنا نتخيل دموع أمهاتنا وكنا نشعر بأننا عزاز. هل كنتُ أحلم مع ذلك؟ إني أحتفظ في غموض بذكرى حقيقية غاية في القسوة وهي أن هذه الخياطة، هذه الأرملة، قد فقدت كل شيء. حقاً انقبض صدري رعباً من هذه الفكرة؟ هل استشففت الشر، وغياب الله وعالماً غير مسكون؟ أظن ذلك: ولماذا؟ لو لم يحدث هذا الأمر لما احتفظت صورة بنار بوضوحها المؤلم في طفولتي المنكرة، المنسية الضائعة.

وبعد ذلك ببضعة أسابيع كان الفصل (أ) أول من الصف الخامس مسرح حدث غريب: ففي أثناء الدرس اللاتيني فُتح الباب ودخل بنار وبجانبه حارس البوابة، وحيا السيد دورى معلمنا وجلس. لقد عرفنا جميعاً نظارته الحديدية وكوفيته وأنفه المحدوب قليلاً ومظهره الذي يشبه الكتكوت البردان وأعتقدت أن الله قد رده إلينا. وبدا على السيد دورى أنه يشاطرنا دهشتنا: فقد توقف عن الكلام وأخذ نفسه بقوة وسأل عن «اسم العائلة والاسم الأول ونوع القيد ومهنة الوالدين» واجاب بنار أنه نصف داخلي وابن مهندس وأنه يدعى پول ايف نيزان. كنت أشد أقراني دهشة. وفي الفسحة عرضت عليه صداقتي فقبلها: وارتبطنا. ولكن هناك تفصيلاً جعلني أشعر بأنني لست أمام «بنار» ولكن أمام صورته الشيطانية: إن نيزان كان أحول. ولكن فات وقت أخذ هذا العيب في الاعتبار: لقد أحببت في هذا الوجه تجسيد الخير؛ وانتهى بي الأمر بأن أحببته لنفسه. ووقعتُ في الفخ، لقد قادني ميلي إلى الفضيلة للتعلق بالشيطان. وفي الحقيقة إن «بنار» المنتحل لم يكن شريراً .. إنه كان حَيّاً، هذا كل ما في الأمر. كانت له كل صفات شبيهه، ولكنها ذابلة. ان تَحفُّظ «بنار» كان يتحول فيه إلى مواربة؛ فإذا سحقته انفعالات عنيفة وسلبية فإنه لم يكن يصرخ، ولكنا رأيناه يبيضُّ من الغضب ويتمتم: إن ما كنا نأخذه على أنه عذوبة لم يكن إلاَّ شللاً مؤقتاً؛ لم تكن الحقيقة هي التي تخرج من فمه ولكن لونا من الموضوعية الوقحة والخفيفة، التي كانت تضايقنا لأننا لم نكن قد ألفناها. وعلى الرغم من أنه كان يعبد والديه بالطبع فإنه كان الوحيد الذي كان يتكلم عنهم بسخرية. وكان في الفصل أقل لمعاناً من بنار؛ ولكنه كان قد قرأ كثيراً ويتمنى الكتابة. وبالاختصار كان شخصاً كاملاً. ولم يكن يدهشني شيء أكثر من أن أرى شخصاً في ملامح بنار. ولما كان هذا التشابه متسلطاً عليَّ فإني لم أكن أعرف قط ما إذا كان يجب أن أمدحه لأنه يقدم مظهر الفضيلة أو أقدحه لأنه ليس لديه إلاَّ هذا المظهر. وكنت انتقل بلا انقطاع من الثقة العمياء إلى عدم الثقة غير المعقولة. ولم نصبح أصدقاء بمعنى الكلمة إلا بعد ذلك بوقت طويل، وبعد فراق طويل.

وخلال سنتين أوقفت هذه الأحداث وهذه الالتقاءات اجتراراتي دون أن تلغي السبب.

والواقع أن شيئاً لم يتغيَّر من حيث العمق: وإن هذه الرسالة التي أودعها فيّ الكبار داخل ظرف مختوم، لم أعد أفكر فيها، ولكنها كانت باقية. لقد استولت على شخصي. وفي التاسعة من عمري كنت أراقب نفسي حتى في أشد حالات اندفاعاتي: وفي العاشرة تواريت عن نظري. كنت أعدو مع «بران» وأتحدث مع بركو ونيزان. وفي هذه الاثناء تركت رسالتي الزائفة لذاتها، فتجسدت وسقطت آخر الأمر في ليلي؛ ولم أعد أراها. لقد صنعتني، وكانت تمارس قوة جاذبيتها على كل شيء، فتلوي الأشجار والجدران وتقوّس السماء فوق رأسي وكنت قد خلت نفسي أميراً وكان ذلك جنوني. وقال أحد المحللين النفسيين من أصدقائي إني مصاب باضطراب في طبعي، وهو على حق. فبين صيف سنة ١٩١٤ وخريف سنة ١٩١٦ أصبحت دعوتي هي طبيعتي؛ لقد ترك هذياني رأسي ليسيل في عظامي.

لم يحدث لي شيء جديد: لقد عثرتُ على ما قمت بتمثيله وتنبأت به سالماً صحيحاً مع هذا الاختلاف الوحيد: انني بلا معرفة وبلا كلمات وبلا تبصر حققت كل شيء. وكنت من قبل أتصوّر حياتي في صور: فكان موتي بسبب مولدي، وكان مولدي يلقى بي إلى موتي؛ وما أن أعدل عن رؤيته حتى أصبح أنا نفسي هذه المبادلة. وشددت حتى التمزق بين هذين الطرفين، أموت وأحيا عند كل خفقة قلب. وأصبحت آخرتي المستقبلة مستقبلي الملموس. كانت تضرب كل لحظة عبث، وكانت في مركز الانتباه الأشد عمقاً وشرود أعمق أيضاً وفراغ كل امتلاء والوهمية الخفيفة لكل واقع. كانت آخرتي تقتل من بعيد، طعم الحلوى في فمي، والأحزان والأفراح في قلبي؛ ولكنها كانت تنقذ أكثر اللحظات بطلاناً بهذا السبب الوحيد وهو أنها كانت تأتي أخيراً وكانت تقربني من آخرتي. لقد أعطتني الصبر على الحياة: فلم أعد قط أتمنى أن أقفز عشرين سنة، وأن أتصفح عشرين سنة أخرى، ولم أعد أتصور الأيام البعيدة لانتصاري؛ وانتظرت. وفي كل دقيقة كنت أنتظر الدقيقة المقبلة لأنها كانت تشد إليها الدقيقة التي تليها. وعشت هانئاً في العجلة المتناهية، متقدماً دائماً على نفسي. كل شيء كان يستغرقني، ولا شيء كان يوقفني. يا له من انفراج. ففي الماضي كانت أيامي تتشابه إلى الحد الذي كان يجعلني أسأل نفسي أحياناً إن كان لم يُحكم عليّ بأن أكابد العودة الأزلية لليوم نفسه. ولم تتغيّر أيامي كثيراً، لقد احتفظت بالعادة السيئة عادة الاسترخاء وهي ترتجف؛ أما أنا، فقد تغيَّرت فيها، فلم يعد الوقت هو الذي ينسحب إلى طفولتي الجامدة بل كنتُ أنا، السهم المرشوق بناء على أمر، الذي يثقب الوقت ويمرق رأساً إلى الهدف. وفي سنة ١٩٤٨، في مدينة أوترخت، أراني الأستاذ ڤان لنب روائز[1]. واسترعت إحدى اللوحات انتباهي: فقد ظهر عليها جواد يعدو ورجل يمشي ونسر محلق وزورق بمحرك يثب؛ وكان على المختبر أن يشير إلى الرسم الذي يعطيه أكبر شعور بالسرعة، فقلتُ «إنه الزورق» ثم نظرتُ بفضول إلى الرسم الذي فرض نفسه بعنف؛

(١) اختبارات نفسية غايتها كشف شخصية الفرد (المترجم).

كان الزورق يبدو وكأنه ينسلخ عن البحيرة، وأنه بعد لحظة سيحلق فوق هذا الركود المتموج. وظهر لي سبب اختياري في الحال: ففي العاشرة من عمرى بدا لي أن صدري يشق الحاضر وينتزعني منه؛ وجريت منذ ذلك الحين، ومازلت أجري. إن السرعة لا تقدر في نظري بالمسافة المقطوعة في مدة معينة من الزمن، قدر تقديرها بطاقة الانتزاع.

منذ أكثر من عشرين سنة كان چياكوميتي[1] يعبر ميدان ايطاليا[2] ذات مساء صدمته سيارة فأصيب بجرح والتوت ساقه. وفي الإغماءة الصاحية التي راح فيها شعر أولاً بنوع من البهجة: « أخيراً شيء ما حدث لي! » إني أعرف راديكاليته: فقد كان ينتظر الأسوأ، أن هذه الحياة التي كان يحبها إلى الدرجة التي لم يكن يتمنى معها حياة أخرى -كانت حياة مقلوبة- وربما محطمة بحماقة عنف الصدفة. وكان يقول لنفسه «لم أخلق إذاً لأنحت ولا حتى لأعيش، لم أخلق لشيء» إن ما كان يحمسه هو نظام السببية المهدد عندما يرفع عنه القناع فجأة وأن يحرق في أضواء المدينة وفي الناس وفي جسمه هو نفسه وقد تلطخ بالوحل بتلك النظرة المحجرة ككوارث الطبيعة. وبالنسبة للنحات فإن سيطرة المعادن ليست بعيدة أبداً. إني أعجب بهذه الارادة التي تقبل كل شيء. وإن كنا نحب المفاجآت فينبغي أن نحبها حتى ذلك الحد، حتى ومضاتها النادرة التي تكشف للهواة أن الأرض لم تخلق لهم.

وفي العاشرة من عمري كنت أدعي أني لا أحب غير المفاجآت. كان على كل خيط من نسيج حياتي أن يكون غير متوقع وأن تنبعث منه رائحة الطلاء الجديد. كنت أقبل مقدماً الظروف الطارئة والحوادث المزعجة، ولكي أكون عادلاً يجب أن أقول إني كنتُ أقبلها قبولاً حسناً. وذات مساء انطفأت الكهرباء بسبب عطل؛ وناداني أحدهم من غرفة أخرى وتقدمتُ فاتحاً ذراعي فاصطدم رأسي بمصراع الباب، وكانت الصدمة قوية بحيث كسرت سناً من أسناني. وألهاني هذا الحادث وضحكت له على الرغم من الألم، كما سوف يضحك جياكومتي بعد ذلك بسبب ما حدث لساقة، ولكن لأسباب متناقضة على خط مستقيم. ولما كنت قد قررت مقدماً أن تكون لقصتي نهاية سعيدة، فإن غير المتوقع لا يمكن ألا أن يكون فخاً، والجدة لا يمكن أن تكون إلاً مظهراً. إن تطّلب الشعوب، عندما جعلني أولد، كان قد رتب كل شيء؛ ورأيت في هذه السن المكسورة علامة، تنبيها غامضاً سوف أفهمه فيما بعد. وبمعنى آخر، كنت أحفظ نظام الغايات في كل ظرف وبأي ثمن. كنتُ أنظر إلى حياتي خلال موتي وكنت لا أرى سوى ذاكرة مغلقة لا يستطيع شيء أن يخرج منها أو يدخل فيها. هل يتصورون أمني؟ فلا وجود للصدف: ولم أكن أتعامل إلاّ مع ما تقلده من الأشياء تقليداً صادراً عن العناية الالهية. كانت الصحف تلقي في الروع أن قوى مشتتة تجول في الطرقات وتحصد صغار الناس. أما أنا المختار فلن ألتقي بها. ربما فقدت

---

(١) البرتو جياكومتي نحات ورسام ومصوِّر سويسري وابن المصور الانطباعي جيوفاني جياكوميتي. وُلد عام ١٩٠١ وتوفي عام ١٩٦٦ (المترجم).

(٢) أحد ميادين باريس (المترجم).

ذراعاً أو ساقاً أو عينيّ. ولكن كل شيء يرجع إلى الأسلوب: إن مصائبي لن تكون أبداً سوى محن، سوى وسائل لعمل كتاب. تعلمتُ أن أتحمل الأحزان والأمراض. ورأيت فيها بواكير موتي الانتصاري والدرجات التي ينحتها ليرفعني إليه. إن هذه العناية الفظة قليلاً لم أكن استقبحها وكنت أعنى بأن أظهر جديراً بها. كنتُ أعتبر الأسوأ شرط الأفضل. إن أخطائي نفسها كانت تفيد، وهذا يعني أني لم أكن أقترف أخطاء. ففي العاشرة من عمري كنت واثقاً من نفسي. ولما كنت متواضعاً وغير محتمل، فقد كنت أرى في هزائمي شروط انتصاري بعد الممات. وسواء كنت كفيفاً أو مقعداً، تضللني أخطائي، فإني سوف أكسب الحرب من كثرة خسارة المعارك. لم أكن أفرِّق بين المحن المخصصة للمختارين والفشل الذي كنت أحمل مسئوليته. إن ذلك يعني أن جرائمي كانت تبدو لي في الواقع تعاسات، وإني كنت أطالب ببلاياي كأنها أخطاء، والواقع أني لم أكن أستطيع أن أمرض سواء كان بالحصبة أو بالزكام دون أن أعلن أني مذنب: لقد أهملت الوقاية ونسيت أن أرتدي معطفي وكوفيتي. وفضلت دائماً أن أتهم نفسي على أن أتهم الكون؛ لا عن سلامة قلب، ولكن كي لا أكون متعلقاً إلا بنفسي. إن هذا التكبر لم يكن يمنع التواضع، كنتُ أعتقد طوعاً بأني كنت عرضة للخطأ بقدر ما كان ضعفي أقصر طريق طبيعي للخير، وكنت أرتب أمري لأشعر في حركة حياتي بجاذبية لا تقاوم كانت لاتنقطع في إجباري، حتى على الرغم مني، على تحقيق تقدم جديد.

إن كل الإطفال يعرفون أنهم يتقدمون. وعلى كل فإنه لا يسمح لهم بأن يجهلوا ذلك: «من تقدم يجب أن ينتقل إلى تقدم آخر ... تقدم جاد منتظم ...» إن الكبار يحكون لنا تاريخ فرنسا: فبعد الجمهورية الأولى، هذه الجمهورية غير الأكيدة جاءت الجمهورية الثانية ثم الثالثة وهي الجمهورية الصحيحة: الثالثة ثابتة! إن التفاؤل البورجوازي كان يجمل حينذاك في برنامج الحزب الراديكالي[1]: وفرة متزايدة في الخيرات، والغاء الفقر بمضاعفة العلوم والمعارف،وبالملكية الصغيرة. أما نحن السادة الشبان فقد وضعوا هذا التفاؤل في متناولنا. واكتشفنا راضين، أن تقدمنا الفردي كان يصوِّر تقدم الأمة. ومع ذلك فإن الذين كانوا يريدون أن يرتفعوا فوق آبائهم كانوا ندرة فبالنسبة للأغلبية لم يكن يهمهم إلا الوصول إلى سن الرجولة؛ ثم يتوقفون عن أن يكبروا وينموا؛ إن العالم حولهم هو الذي يصبح تلقائياً أفضل وأكثر راحة. كان بعضنا ينتظر هذه اللحظة بفروغ صبر، البعض في خوف وآخرون في أسف. أما أنا فقبل أن أتكرّس كنت أكبر في عدم مبالاة: كنت لا أكترث بالثوب الأبيض[2]، كان جدي يجدني قصيراً جداً ويبدي أسفه على ذلك. وكانت جدتي تقول له لإغاظته: «سوف يكون له قوام عائلة سارتر». وكان جدي يتظاهر بانه لم يسمع، وكان يقف أمامي ويقيسني، ثم يقول أخيراً دون كبير اقتناع «إنه ينموا» ولم أكن أشاطره

---

(١) حزب فرنسي تأسس بعد إعلان الجمهورية الثالثة وهو حزب الأحرار المتطرفين (المترجم).

(٢) الثوب الذي كان يرتديه أبناء الأسر النبيلة الشبان في روما القديمة (المترجم).

لا قلقه ولا آماله: إن الأعشاب المضرة تنمو هي أيضاً؛ وهذا برهان على أن المرء يمكن أن يصبح طويلاً دون أن يكف عن أن يكون شريراً. وكانت مشكلتي آنذاك أن أكون خيراً إلى ماشاء الله. وكل شيء تغير حين أسرعت حياتي: فلم يعد يكفي أن أفعل الخير، كان ينبغي أن أفعل الأفضل في كل وقت. ولم يعد لي إلا قانون واحد: أن أتسلق. وكي أغذي مطامحي وكي أخفي شططها لجأت إلى التجربة المشتركة: ففي تقدم طفولتي المتحيِّر أردت أن أرى بوادر مصيري. إن هذه التحسنات الحقيقية ولكن الصغيرة والعادية جداً أوهمتني بأني أختبر قدرتي على الارتفاع. ولما كنت طفلاً عمومياً، فقد اتخذت علنا أسطورة طبقتي وجيلي: إننا نستفيد من المكتسب ونستثمر التجربة، ويثرى الحاضر بالماضي كله. كنت بعيداً عن أن أرضي بالوحدة. لم أكن أستطيع أن أقبل بأننا نستقبل الوجود من الخارج وبأنه يحفظ نفسه بالقصور الذاتي، ولا بأن حركات النفس هي نتائج حركات سابقة. ولما كنت قد وُلدتُ من انتظار مستقبل فإني كنت أثب متوهجاً بكليتي، وكانت كل لحظة تكرر حفلة مولدي. كنت أريد أن أرى في انفعالات قلبي أزيز شرارات. لماذا أثراني الماضي إذاً؟ إنه لم يصنعني، وعلى العكس فكنت أنا المنبعث حياً من رمادي الذي ينتزع ذاكرتي من العدم بخلق يتكرر على الدوام. كنتُ أولد من جديد خيراً مما كنت، وكنتُ استخدمُ الذخائر الجامدة لروحي استخداماً أفضل، ذلك أن الموت كلما أقترب مني زادني نوراً بضوئه المعتم. وكثيراً ما كان يقال لي: إن الماضي يدفعنا، ولكني كنت واثقاً من أن المستقبل يشدني. كنت أكره أن أشعر في نفسي بقوى رقيقة وهي تعمل، وبتفتح استعدادي البطئ. لقد دسستُ في نفسي تقدم البورجوازيين المتصل، وجعلت منه محركاً ذا اشتعال داخلي؛ وهبطت بقيمة الماضي أمام الحاضر. والحاضر أمام المستقبل، وحولت التطورية الهادئة إلى كوارث ثورية متقطعة. لقد لفت نظري منذ بضع سنوات إلى أن شخصيات مسرحياتي ورواياتي تتخذ قرارتها فجأة وفي نوبة، وأن لحظة تكفي مثلاً لكي ينجز أورست في مسرحية «الذباب» تحوله. ذلك أني أصنعها على صورتي؛ لا كما أنا بالفعل بلا شك - ولكن مثلما كنت أريد أن أكون.

أصبحتُ خائناً وظللت كذلك. وعبثاً حاولت أن أضع نفسي كاملاً فيما أقوم به. أن أهب نفسي بلا تحفظ للعمل وللغضب وللصداقة. سوف أنكر نفسي بعد لحظة .. إنى أعلم ذلك وأريده، وهأناذا أفضح نفسي، وأنا في وقدة انفعالي بسعادة الشعور بخيانتي المستقبلة. وبالجملة فإني أوفي بتعهداتي كغيري: ولما كنت ثابتاً في عواطفي وفي سلوكي، فإني غير مخلص لانفعالاتي: وجاء وقت كان فيه آخر ما أشاهد من آثار ولوحات ومناظر طبيعية هو دائماً أجمل ما أرى: كنت أغضب أصدقائي حين كنت أثير في وقاحة أو فقط في طيش -ذكرى مشتركة قد تظل عزيزة عليهم لأقنع نفسي بأنني قد تخلصت منها. ولأني لم أحبب نفسي بما يكفي فقد هربت إلى أمام. والنتيجة أنني أحب نفسي أقل مما كنت أفعل، وأن هذه المتوالية التي لا ترحم ما فتئت تحط من قيمتي باستمرار أمام نفسي، لقد أسأت التصرف أمس لأنه كان أمس وأحس اليوم الحكم القاسي الذي سوف

أصدره على نفسي غداً. لا اختلاط بلا نظام على الأخص. إني أمنع ماضي من الاقتراب مني. فالمراهقة وسن النضوج وحتى السنة التي ولت تواً سوف تكون دائماً العهد القديم. إن العهد الجديد يعلن عن نفسه في الساعة الحاضرة ولكنه لا ينشأ أبداً. غدا الحلاقة مجاناً!! لقد شطبت على الخصوص سنواتي الأول: وحين بدأت هذا الكتاب قضيت وقتاً طويلاً لأفلسف رموزها تحت الشطب. وعندما كنت في الثلاثين من عمري، كان بعض الأصدقاء يقولون لي في دهشة: «يبدو أنه لم يكن عندك أهل ولم تكن لك طفولة»: وكنت أفرح لذلك عن جهل. ومع ذلك فإني أحب واحترم الاخلاص المتواضع والراسخ الذي يكنه بعض الناس وبخاصة بعض النساء -لأذواقهم ولرغباتهم ولمشروعاتهم القديمة وللأعياد التي زالت. إنى أعجب بإرادتهم أن يظلوا كما هم وسط التغيير وأن ينقذوا ذاكرتهم وأن يحملوا في الموت أول دمية وسن لبن وحباً أولا. لقد عرفت من بينهم رجالاً ضاجعوا في آخر حياتهم امرأة كبرت في السن لهذا السبب الوحيد: لقد اشتهوها في شبابهم. ورجالاً آخرين احتفظوا بالبغضاء نحو الموتى أو فضلوا المبارزة على الاعتراف بغلطة عرضية اقترفوها منذ عشرين سنة.أما أنا فلست حقوداً واعترف بكل شيء في يسر: أنا موهوب فيما يختص بالنقد الذاتي على شرط ألاّ يسعى أحد إلى فرضه عليّ. وفي سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٤٥ ضايقوا الشخصية التي تحمل اسمي: فهل هذا يعنيني؟ إني أقيدّ في حسابه المدين الاهانات التي قاساها. إن هذا الأبله كان لا يعرف حتى كيف يجعل الناس تحترمه. لقد قابلني صديق قديم؛ وقص عليّ كربته. إن في نفسه شكوى منذ سبع عشرة سنة؛ ففي ظرف معيّن أسأت معاملته. إني أكاد أذكر أني كنت في ذلك الحين أدافع عن نفسي بشن هجوم مضاد، وكنتُ آخذ عليه شدة حساسيته وجنون الاضطهاد عنده، وبالاختصار فإن لي روايتي الخاصة عن هذا الحادث: ولكن لم يزدني ذلك إلاّ حرارة في قبول روايته، ووافقته على رأيه وتحاملت على نفسي: لقد تصرفت بغرور وبأنانية، وليس لي قلب؛ إنها مذبحة سارة: إني أتلذذ بصفائي؛ إن اعترافي بأخطائي بهذا القدر من طيبة الخاطر، برهان لي على أني لن أستطيع قط اقترافها. هل من يصدق أن اخلاصي واعترافي الكريم قد زاد الشاكي هياجاً؟ لقد كشفني. إنه يعلم أني استخدمه: إنه يحقد عليّ أنا، أنا حياً، حاضراً وماضياً، أنا نفسي الذي عرفه دائماً. وتركتُ له جثة بلا حراك لسروري بأن أشعر بنفسي طفلاً وُلد تواً. وانتهى بي الأمر بأن ثرت بدوري على هذا الهائج الذى ينبش الجثث.

وبالعكس لو حدث وذكرني أحدهم بظرف من الظروف لم أعبس فيه – كما قيل لي– فإني أكنس بيدي هذه الذكرى؛ إنهم يعتقدون أني متواضع، ولكن العكس هو الصحيح. إني أرى أنني سأفعل الأحسن اليوم والأكثر حسناً غداً. إن الكتّاب في سن الكهولة لا يحبون أن يُهنأوا تهنئة مؤكدة على أول عمل لهم. ولكن أنا متأكد من أن هذه التهاني تسرني أنا أقل من غيري. إن خير كتبي هو الذي أقوم بكتابته الآن. ويأتي بعده تواً آخر كتاب نشر لي، ولكني أعد نفسي سراً لكي أشمئز منه قريباً. ربما يسوؤني أن يجده النقاد اليوم رديئاً، ولكن بعد ستة أشهر لن أكون بعيداً عن مشاطرتهم رأيهم. لا مانع لدي من أن

يحكموا على هذا المؤلف بأنه فقير جداً وفارغ جداً بشرط أن يضعوه فوق كل ما كتبت من قبل. إني أقبل أن تقل قيمة الحصة كلها على شرط المحافظة على الترتيب الزمني، وهذا هو الذي يحفظ لي فرصة إجادة العمل غداً، وإجادته بعد غد، وأن أختم أعمالي بإحدى الروائع.

بيد أني لست غراً: فأنا أرى جيداً أننا نكرر أنفسنا. ولكن هذه المعرفة المكتسبة أخيراً جداً تأكل بداهتي القديمة، دون أن تبددها تماماً. إن لحياتي بعض الشهود العبوسين الذين لا يسامحونني في شيء، إنهم كثيراً ما يفاجئونني وأنا أسقط من جديد في الدروب نفسها. ويقولون لي ذلك وأصدقهم، ثم في آخر لحظة أهنئ نفسي: فقد كنت أعمى بالأمس؛ إن التقدم الذي حققته اليوم هو ادراكي أني توقفت عن التقدم. وأحياناً أكون شاهد اثباتي. فقد يخطر على بالي مثلاً أني كتبت قبل ذلك بسنتين صفحة يمكن أن تفيدني. وأبحث عنها فلا أجدها لحسن الحظ. فقد كنتُ سأدخل مدفوعاً بالكسل، خرقة قديمة في مؤلف جديد. إنني اليوم أجيد الكتابة أكثر بكثير.. سوف أكتبها من جديد. وعندما أنتهي من عملي تضع الصدفة يدي على الصفحة الضائعة. يا للدهشة: ففي ما عدا بعض علامات الترقيم أجد أنني قد عبرت عن الفكرة نفسها بالعبارات نفسها. وترددت ثم ألقيتُ في السلة بهذه الوثيقة البائدة، واحتفظت بالرواية الجديدة: إن فيها شيئاً لا أعرفه يعليها على القديمة. وباختصار أسوي أموري: فعندما تزول الغشاوة عن عيني أغش نفسي لأشعر، على الرغم من التقدم في السن الذي يضعضعني، بالنشوة الغضة التي يشعر بها متسلق الجبال.

وفي العاشرة من عمري لم أكن أعرف بعد عاداتي المستهجنة وما أكره من كلمات - ولم يكن الشك يراودني: وكنت أتوثب وأثرثر مأخوذاً بما أشاهده في الشارع، ولم أكن أكف عن تجديد جلدي، وكنت أسمع جلودي القديمة تتساقط بعضها على بعض. وحين كنت أصعد في شارع سوفلو، كنت أحس في كل خطوة، بتواري واجهات العرض، هذا التواري المعشي للأبصار، حركة حياتي وقانونها والترخيص الجميل لي بألا أكون وفياً لشيء كنت أصحب نفسي بكليتي. إن جدتي تريد أن تجدد طقم المائدة؛ فأصحبها إلى محل يبيع الصيني والزجاج؛ وتشير إلى صحفة حساء على غطائها تفاحة حمراء وإلى صحون محلاة بالأزهار. ليس هذا ما تريده تماماً: فإن على صحونها توجد أزهار بالطبع ولكن توجد كذلك حشرات سمراء تتسلق السيقان بطولها. وتتحرك البائعة بدورها: إنها تعرف تماماً ما تريده العميلة، كان هذا الصنف عندها ولكن لم يعد يصنع منذ ثلاث سنوات؛ إن هذا النموذج أحدث وأنفع، ثم أليست الأزهار أزهاراً سواء كانت بحشرات أو بدون حشرات؟ إن أحداً لن يذهب إلى حد تفلية الصحن على رأي المثل! ولكن جدتي لم تكن من هذا الرأي، فتسأل ملحة: ألا يمكن أن تلقي نظرة على المخزن؟ آه المخزن؟ نعم بكل تأكيد ولكن لابد من الانتظار فالبائعة وحدها: لقد تركها مستخدمها تواً. وأودعوني ركناً وأوصوني بألا أمس شيئاً، ونسوني. وقد أرهبتني الأشياء القابلة للكسر التي تحيط بي والبريق المغبر

وقناع باسكال[1] وهو ميت ومبولة على شكل رأس الرئيس فاليير[2]. وعليه، فرغما عن المظاهر فإني شخصية ثانوية مزورة. وهكذا يدفع بعض المؤلفين بعض «المنافع» إلى مقدمة المسرح ويقدمون أبطالهم بسرعة، في نظرة جانبية ناقصة. إن القارئ لا يخطئ: فقد قلّب صفحات الفصل الأخير ليرى إن كانت الرواية تنتهي نهاية سعيدة، هو يعرف أن الشاب الشاحب المسند إلى المدفأة في جوفه ثلاثمائة وخمسون صفحة. ثلاثمائة وخمسون صفحة من الحب والمغامرات. كان عندي على الأقل خمسمائة صفحة. كنت بطل قصة طويلة بنهاية سعيدة. لقد توقفت عن رواية هذه القصة على نفسي: فما جدوى ذلك؟ كنت أشعر بأني عاشق، ذلك كل ما في الأمر. إن الزمن كان يشد إلى خلف السيدات المسنات الحائرات وأزهار الصيني وكل الحانوت. إن الجونلات السوداء تشحب والأصوات تصبح قطنية. كنت مشفقاً على جدتي، فإننا لن نراها بالتأكيد في الجزء الثاني. وبالنسبة لي، فقد كنت البداية والوسط والنهاية ملمومة في طفل صغير جداً بلغ الشيخوخة فعلاً ومات بالفعل، هنا في الظل، بين أكوام الصحون المرصوصة الأعلى منه، وفي الخارج بعيداً جداً، في وضح شمس المجد الجنائزية، كنت الذرة في بداية مسارها ودفعة الموجات التي تفيض عليها بعد اصطدامها بصدأم الوصول . فإذا ما جمعت نفسي وأوثقتها لامساً بيد قبري وباليد الأخرى مهدي، فكنت أشعر بنفسي وجيزاً وزاهياً، شهاباً فجائياً مسحته الظلمات.

ومع ذلك فإن الملل لم يبارحني؛ كان رزيناً أحياناً ومقززاً أحياناً أخرى. كنت أخضع لأخطر إغراء حين لم يكن يعد في استطاعتي تحمله: لقد أضاع أورفيوس[3] أوريديس من قلة الصبر؛ وكثيراً ما ضعت بسبب قلة الصبر. ولما كنت ضائعاً من الفراغ، كان يحدث أن ألتفت إلى جنوني في الوقت الذي كان يجب أن أتجاهله: أن أضعه تحت المسندة وأن أثبت انتباهي على الأشياء الخارجية. وفي تلك اللحظات. كنت أريد أن أحقق نفسي في الحال، أن أعانق بنظرة واحدة المجموع الذي كان متسلطاً عليّ في الوقت الذي كنتُ لا أفكّر فيه. يا للكارثة! إن للتقدم والتفاؤل والخيانات السارة والغائية السرية، كل ذلك قد انهار مما كنت أضفته أنا نفسي إلى تنبوء السيدة بيكار. لقد ظل التنبؤ، ولكن ما الذي أستطيع أن أعمله به؟ إن هذا العرّاف الذي كان يريد أن ينقذ كل لحظات حياتي لم يكن محدد القول، وكان يرفض أن يميّز واحدة منها. إن المستقبل الذي جفّ بضربة واحدة لم يعد إلا هيكلاً. إني أجد صعوبة وجودي وألاحظ أنها لم تتركني قط.

---

(1) عالم رياضيات وفيزيقاً وفيلسوف وكاتب فرنسي ولد في ١٦٢٣ وتوفي في ١٦٦٢. شارك في انشاء حساب الاحتمالات وأشهر مؤلفاته الفكرية «الآراء». (المترجم). (2) هو الرئيس أرمان فاليير رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٩٠٦ إلى ١٩١٣ (المترجم). (3) أكبر موسيقي العصور القديمة. عض الثعبان زوجته أوريديس يوم زفافها. ونزول أورفيوس إلى الجحيم وسحر بموسيقاه الآلهة الذين أعادوا له زوجته بشرط ألا ينظر خلفه طالما هو في جهنم. ولكن أورفيوس عصا الأمر ففقد زوجته إلى الأبد (المترجم).

ذكرى بلا تاريخ : إني جالس على مقعد في حديقة اللكسمبورج: قد توسلت إليَّ «آن ماري» في أن أستريح بالقرب منها، لأني كنت أسبح في عرقي من كثرة الجري. ذلك هو على الأقل ترتيب الأسباب. وبلغ بي الملل حداً جعلني أتجرأ على تغيير هذا الترتيب. لقد جريت لأنه كان يجب أن أسبح في عرقي ولأعطي أمي فرصة استدعائي. كل شيء ينتهي إلى هذا المقعد، كل شيء يجب أن ينتهي إليه. ما دور هذا المقعد؟ إني أجهله ولا أشغل بذلك أول الأمر: لن يضيع انطباع من جميع الانطباعات التي تمسني؛ هناك هدف: سوف أعرفه وأبناء أخوالي سوف يعرفونه . إني أهز ساقيَّ القصيرتين اللتين لا تلمسان الأرض، وأرى رجلاً ماراً يحمل صرة وأرى امرأة حدباء: إن ذلك سوف يفيد. وأردد في انجذاب: «إنه من الأهمية بمكان أن أظل جالساً». ويتضاعف الملل: لم أعد أتمالك نفسي في المخاطرة بعيني: إني لا أطلب إيحاءات مثيرة ولكني أرغب في أن أخَمِّن معنى هذه الدقيقة، أن أشعر بضرورتها، وأن أتمتع قليلاً بهذا الالهام الغامض الحيوي الذي أسنده إلى «موسيه» و «هوجو». بيد أني لا ألمح إلا ضباباً. إن الطلب المجرد لضرورتي والإيحاء الإجمالي لوجودي يستمران جنباً إلى جنب دون أن يتقاتلا أو يختلط بعضهما ببعض. لم أعد أفكر إلاَّ في الهرب وإلاَّ في إيجاد السرعة الصماء التي كانت تحملني: عبثاً؛ لقد قطعت اللذة. أشعر بتنميل في ساقي وأتململ. وفي هذه اللحظة بالذات كلفتني السماء برسالة جديدة. إنه من المهم جداً أن أستأنف الجري. فأقفز على قدمي وأنساب زاحفاً؛ والتفت عند نهاية الممر: لم يتحرك شيء ولم يحدث شيء. وأخفي عن نفسي خيبة أملي بعبارات: إني أؤكد أنه في غرفة مفروشة بأورياك، حوالي سنة ١٩٤٥ سوف يكون لهذا الجري نتائج لا تقدر. وأعلن رضاي التام وأتحمس: وكي أجبر الروح القدس، ألعب عليه لعبة الثقة: وأقسم في فورة الحماس بأنني أستحق الفرصة التي منحني إياها. كل شيء يجرى على سطح الجلد تقريباً. كل شيء يجري على مستوى الجلد تقريباً، كل شيء يلعب على الأعصاب. إني أعرف ذلك. قد هجمت أمي عليَّ، ها هو ذا الجرس المصنوع من الصوف، والكوفية والمعطف: وأتركها تغطيني، أنا صرة! يجب على أيضاً أن أتحمل شارع سوفلو وشارب البواب، السيد تريجون وسعلات المصعد المائي. وأخيراً فإن المدعي الصغير المرزوء يجد نفسه في المكتبة من جديد، ويتحامل من كرسي إلى آخر ويقلِّب صفحات بعض الكتب ويلقي بها. وأقترب من النافذة وألمح ذبابة تحت الستارة وأطبق عليها في فخ من الشاش، وأوجه نحوها سبابة قاتلة. إن هذه اللحظة هي خارج البرنامج، مستخرجة من الوقت العادي وموضوعة جانباً ولا نظير لها، وجامدة لن يخرج منها شيء هذا المساء ولا بعد ذلك، سوف تجهل أورياك دائماً هذه الأبدية المضطربة. إن الانسانية نائمة، أما عن الكاتب المشهور- هذا القديس الذي لن يؤذى ذبابة - فقد خرج تواً. وحيداً بلا مستقبل في دقيقة راكدة وملوثة، يريد الطفل من القتل أن يشعر بأحاسيس شديدة؛ وبما أنهم يرفضون أن يعطوني مصير إنسان، فسأكون مصير ذبابة. ولا أتعجل فإني أترك لها الوقت لتحزر كُنه المارد الذي ينحني عليها. أقدم إصبعي فتنفجر. لقد خُدعت. ويحي!

كان يجب ألا أقتلها. كانت الكائن الوحيد الذي يخشاني من بين الخليقة كلها. لم يعد أحد يهتم بي. ولما كنت قاتل حشرات، فقد أخذتُ مكان الضحية وأصبحت حشرة بدوري. أنا ذبابة وقد كنتها دائماً. وفي هذه المرة لمست القاع. لم يعد أمامي إلا أن آخذ من على المنضدة «مغامرات القبطان كوركوران» وأن أتهالك على السجادة وأن أفتح كيفما أتفق الكتاب الذي عاودت قراءته مائة مرة. إني شديد التعب، شديد الحزن بحيث لم أعد أشعر بأعصابي. وأنسى نفسي منذ السطر الأول. إن كوركوران يضرب الطبول في المكتبة الخالية ويتأبط بندقيته ونمرته تتبعه: إن أشجار الغابة تتهيأ بسرعة حولهما. وعن بعد زرعتُ أشجاراً. والقرود تقفز من غصن إلى آخر. وفجأة تأخذ النمرة لويزون في الزئير، ويتسمَّر كوركوران في مكانه: هذا هو العدو. إن مجدي يختار هذه اللحظة المؤثرة ليعود إلى مسكنه، والإنسانية لتستيقظ مذعورة وتستنجد بي وروح القدس ليهمس في أذني هذه الكلمات المقلقة: «لو لم تجدني لما بحثت عني». إن هذا الملق سوف يضيع: ولا يوجد هنا أحد ليسمعها سوى الشجاع كوركوران. ودخل الكاتب الشهير وكأنه لم يكن ينتظر إلاَّ هذا التصريح؛ إن أحد أحفاد أخوالي يميل برأسه الأبيض على تاريخ حياتي وتبلل الدموع عينيه. وينهض المستقبل، ويلفني حب لا نهائي، وأضواء تدور في قلبي، ولا أتحرك ولا أعطي نظرة للاحتفال. وأتابع قراءتي بكل عقل، وينتهي الأمر بإطفاء الأضواء. إني لم أعد أحس إلاَّ بإيقاع، بدفع لا يقاوم. وأقلع.. لقد أقلعت؛ وأتقدم.. المحرك يهدر ! وأشعر بسرعة روحي.

هذه هي بدايتي: لقد هربت، وشكَّلت قوى خارجية هروبي وصنعتني. وخلال إدراك بائد للثقافة يبدو الدين الذي استُخدم نموذجاً مصغراً. ولما كان طفلياً فهو أقرب شيء للطفل. فقد كانوا يعلمونني التاريخ المقدس والإنجيل والتعليم الديني دون أن يعطوني وسائل الإيمان. وكانت النتيجة بلبلة أصبحت نظامي الخاص. وحدثت تعرجات، انتقال هائل؛ ولما كان القدسي قد أقتُطع من الكثلكة فقد ركد في الأدب، وظهر الكاتب؛ بديلاً للمسيحي الذي لم أكن أستطيع أن أكونه. كان الخلاص عمله الوحيد، ولم يكن لاقامته على الأرض من هدف إلاَّ أن يُجعل مستحقاً لسعادة بعد الموت بمحن يتحملها بجدارة. وتحوَّل الموت إلى إحدى الشعائر العابرة، وقدم الخلود الأرضي نفسه عوضاً عن الحياة الأبدية. وليؤكدوا لي أن الجنس البشري سوف يخلدني اتفقوا في تصوري على أن هذا الجنس لن ينتهي. أن أموت فيه كان يعنى أن أولد وأن أصبح لا نهائياً. ولكن لو افترضوا أمامي أن كارثة كونية قد تدمر الأرض في يوم من الأيام، ولو بعدخمسين ألف سنة، فإني أصاب بالهلع. واليوم أيضاً، وقد زالت أوهامي، فإني لا أستطيع أن أفكر بلا خوف في خمود الشمس. وسيَّان عندي أن ينساني أبناء جنسي غداة دفني؛ فلسوف ألاحقهم طالما عاشوا، دون أن يستطيع أحد أن يمسكني ولا اسم لي، وأكون موجوداً في كل واحد منهم كما هي موجودة فيَّ مليارات الموتى الذين أجهلهم والذين أحفظهم من العدم؛ ولكن إن حدث واختفت الإنسانية فإنها سوف تقتل موتاها حقيقة.

إن الأسطورة كانت غاية في البساطة وقد هضمتها بلا تعب. ولما كنتُ بروتستانتياً وكاثوليكياً، فإن تبعيتي الدينية المزدوجة كانت تمنعني من الإيمان بالقديسين وبالعذراء وأخيراً بالله من كثرة ما كانوا ينادونهم باسمهم. ولكن قوة جماعية ضخمة دخلت فيّ؛ وحين استقرت في قلبي، كانت تتحيّن الفرص، لقد كانت إيمان الآخرين؛ يكفي أن يتغيّر اسم هدفها العادي ويعدّل سطحياً لتتعرف عليه خلف الأقنعة التي كانت تخدعني وتلقي بنفسها عليه وتحتويه بمخالبها. كنت أعتقد بأنني أكرّس نفسي للأدب ولكني في الحقيقة دخلت سلك الرهبنة. وفي داخلي تحوّل يقين المؤمن البالغ التواضع إلى البداهة المتكبرة لما هو مقدر لي. ولمَ لا أكون مختاراً وكل مسيحي يعتبرُ مختاراً كذلك؟ لقد نَمَوْت كعشب بريٍّ على سماد الكاثوليكية، وكانت جذوري تمتص عصارتها وأصنع منها عصيري. ومن هنا جاء هذا العمى الجلي الذي عانيت منه ثلاثين سنة. وذات صباح من سنة ١٩١٧، في لاروشيل، كنت أنتظر زملاء كانوا سيصحبونني إلى المدرسة، وتأخروا، وما لبثت أن عجزت عن ابتكار شيء يلهيني، وقررت أن أفكر في القويّ العزيز. وفي الحال تدحرج في زرقة السماء واختفى دون أن يعطي تفسيراً. قلت في نفسي بدهشة تهذيب إنه غير موجود، واعتقدت أن الأمر قد سُوِّيَ. لقد سوي من ناحية ما، بما أنني منذ ذلك الحين لم أشعر بأية رغبة في بعثه. ولكن الآخر ظلّ: اللامرئي.. الروح القدس، الذي كان يضمن رسالتي ويهيمن على حياتي بقوى كبيرة غفلة ومقدسة. ولشدّ ما عانيت للتخلص منه ذلك أنه أستقر في رأسي من خلف في المعاني المهربة التي كنت أستخدمها لأفهم نفسي وأحدد موقعي وأبرر وجودي. وكانت الكتابة لزمن طويل أن أطلب من الموت ومن الديانة خلف قناع أن ينتزعا حياتي من الصدفة. كنت ملكاً للكنيسة. ولما كنت مجاهداً، فقد أردت إنقاذ نفسي بالأعمال؛ ولما كنت متصوفاً، فقد حاولت أن أكشف النقاب عن سكوت الكائن بحفيف مكدر للكلمات، وعلى الخصوص، فقد خلطت الأشياء بأسمائها: إنه التخيّل. كانت على عيني غشاوة. وطالما بقيت، اعتبرت نفسي متخلصاً من ورطة. ونجحت في سن الثلاثين في هذه الخبطة الجيدة: أن أكتب في «الغثيان»[1]- بكل إخلاص، يستطيع الناس أن يصدقوني- الوجود غير المبرر، والمر لأبناء جنسي وأن أضع وجودي خارج الموضوع. كنتُ روكونتان[2]، كنتُ أرى فيه، لحمة حياتي. وفي الوقت نفسه كنتُ أنا المختار، كاتب جوليات جهنم، جهاز التصوير المجهري من الزجاج والصلب، منحنياً على سوائلي البروتوبلازمية. وعرضت بعد ذلك بفرح أن الإنسان مستحيل. ولما كنت أنا نفسي مستحيلاً، فإني لم أكن أختلف عن الآخرين إلاّ بالوكالة الوحيدة لإظهار هذه الاستمالة، التي كانت تتحوّل في الحال وتصبح أخص امكانياتي وموضوع رسالتي وحافز مجدي. كنت حبيس هذه البداهات، ولكن لم أكن أراها: كنتُ أرى العالم خلالها؛ ولما كنت

---

(١) أول رواية كتبها سارتر وكان ذلك في سنة ١٩٣٨ (المترجم).

(٢) أحد أبطال «الغثيان» (المترجم).

مزوراً حتى العظم ومخدوعاً، فقد كنت أكتب بسرور عن وضعنا التعس. ولما كنت عقائدياً منذ شككت في كل شيء عدا أني موضوع اختيار الشك. كنتُ أصلح بيد ما كنت أخربه باليد الأخرى، وكنت أعتبر القلق ضماناً لأمني، وكنت سعيداً.

لقد تغيرتُ. وسوف أروي مستقبلاً أي أحماض أكلت الشفافيات المشوهة التي كانت تكتنفني، ومتى وكيف تدربتُ على العنف واكتشفت بشاعتي- التي ظلت زمناً طويلاً مبدئي السلبي، والجير الحي الذي ذاب فيه الطفل العجيب- وبأي عقل أستدرجتُ إلى التفكير المنهجي على الرغم مني، إلى حد تقدير بداهة فكرة، بالكرب الذي تسببه لي. إن الوهم الماضي تكسر إرباً؛ إن كلا من الاستشهاد والخلاص والخلود ينهدم، لقد أصبح الصرح خراباً، وأمسكتُ الروح القدس في الأقبية وطردته منها؛ إن الإلحاد مشروع قاس وطويل: وأعتقد أني وصلت به إلى النهاية. إني أرى بوضوح، لقد تيقظت، إني أعرف واجباتي الحقيقية، واستحق بالتأكيد جائزة على إخلاصي للوطن؛ فمنذ ما يقرب من عشر سنوات وأنا رجل يستيقظ وقد شفي من جنون طويل ومرير ورقيق، وهو لا يزال متحيراً، لا يستطيع أن يتذكر، دون أن يضحك، ضلاله القديم، ولم يعد يعرف ما يفعله بحياته. لقد عدتُ المسافر بلا تذكرة الذي كنته في السابعة من عمري: ودخل المفتش إلى ديواني، ونظر إليّ، نظرة أقل قسوة من الماضي. والواقع أنه لا يطلب إلا أن يرحل، وأن يتركني أكمل الرحلة بسلام؛ أن أعطيه حجة مقبولة، أية حجة، فإنه سيرضى بها. وإني لا أجد مع الأسف أية حجة، وفضلاً عن ذلك فإني لا أرغب حتى في البحث عنها: سوف نمكث وجهاً لوجه وحدنا، في القلق حتى محطة ديجون، حيث أعرف جيداً أن لا أحداً ينتظرني.

لقد تخليتُ عن سُلطتي، ولكن لم أترك ثوبي: إني ما زلت أكتب. وما الذي يمكن عمله غير ذلك؟

لا ينقضي يوم دون أن أخط سطراً[1]

هذه عادتي ثم أنها مهنتي. لقد حسبتُ قلمي سيفاً زمناً طويلاً: وإني أعرف الآن عجزنا. وهذا لا يهم: إني أؤلف وسوف أؤلف كتباً، لابد من ذلك، وأنه مفيد كذلك. إن الثقافة لا تنقذ شيئاً ولا شخصاً، إنها لا تبرر. ولكنها نتاج الانسان: فهو يعكس نفسه عليها ويعرف نفسه بها؛ إن هذه المرآة الناقدة هي وحدها التي تقدم له صورته. وفضلاً عن ذلك، فإن هذا المبنى القديم المتداعي- دجلي- هو كذلك خلقي: إن المرء يخلص من مرض عصبي ولكنه لا يبرأ من نفسه. إن كل قسمات الطفل، وقد بُليت وقسمت وأذلت وأهملت وكُتمت، قد ظلت عند الخمسيني. إنها تتسطح في الظلام أغلب الأحيان، وتترصد: وفي أول لحظة عدم انتباه، ترفع رأسها وتدخل في وضح النهار في ثوب تنكري. إني أدعي باخلاص أني لا أكتب إلا لزمني، ولكني أغتاظ من شهرتي الحالية. إنها ليست المجد، بما

(١) مثل لاتيني يذكره سارتر (المترجم).

أنني على قيد الحياة، وهذا يكفي مع ذلك لتكذيب أحلامي القديمة، حتى لو كنتُ لا أزال أداعبها سراً؟ غير أن الأمر ليس كذلك تماماً: لقد كيفتها على ما أعتقد: فبما أني فقدتُ فرصي في أن أموت مجهولاً فإني أغبطُ نفسي أحياناً على أني أعيش مجهولاً. فأنا جريزليديس التي لم تمت. إن «بارديايان» لا يزال يسكن فيّ وكذلك «ستروجوف». إني لا أتبع غيرهم وهم لا يتبعون غير الله الذي لا أعتقد فيه. هل تفهم شيئاً من ذلك؟ فمن ناحيتي أنا لا أفهم شيئاً، وأني أسأل نفسي أحياناً ما إذا كنتُ ألعب لعبة الذي يخسر يربح، واجتهد في أن أدوس آمالي الماضية لكي أعوض عن ذلك كله أضعافاً مضاعفة. وفي هذه الحالة أكون «فيلوكتيت»[1]: ولما كان هذا العاجز عظيماً ومنتناً فقد أعطى حتى قوسه بلا شرط: ولكننا في الخفاء نستطيع أن نتأكد أنه ينتظر جزاءه.

ولنترك ذلك. إن أمي تقول فيه:

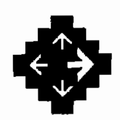
«مروا أيها الفانون ولا تُلحوا.»

إن ما أحبُّه في جنوني هو حمايته لي منذ أول يوم من اغراءات «الصفوة». لم أصدق أبداً أني صاحب «ملكة» سعيد، إن همي الوحيد هو أن أخلّص نفسي- خالي اليدين وفارغ الجيوب. بالعمل والإيمان.

ومع ذلك فإن اختياري الصافي لم يرفعني فوق أحد. وبدون معدات وأدوات أخذت أعمل بكليتي كي أخلص نفسي كلياً. وإذا كنتُ أضع الخلاص المحال في مخزن اللواحق، فماذا يتبقى؟ إنسان بكله مصنوع من كل الناس، يساويهم جميعاً، وأي واحد منهم يساويه.

---

(١) قائد اغريقي اشترك في حصار طروادة وقد أعطاه هرقل سهامه المسمومة. وفي طريقه لطروادة عضه ثعبان وفاحت من جرحه رائحة كريهة اضطرت زملاءه إلى تركه في جزيرة لمنوس حيث مكث عشر سنوات، وجاء أوليس وديوميد لاحضاره من هذه الجزيرة، ذلك أن هاتفاً إلهياً كان قد أعلن أن طرواده لن تسقط إلا بسهام هرقل (المترجم).



إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو / إدوار خراط
عهدة الصقر / ألان نادو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
الكلمات / چان پول سارتر (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
الأحمر والأسود / ستندال (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
المكان / أني إرنو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)



قصص

السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
القمر في اكتمال / نبيل نعوم
شرفات قريبة / هناء عطية



شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود
فقه اللذة / حلمي سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب
الآثار الشعرية الكاملة / إديث سودرجران (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)



دراسات

من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
مسرح الشعب / د. علي الراعي
البحث عن المنهج في النقد الأدبي الحديث / د. سيد البحراوي
يوميات الحب والغضب / فريدة النقاش
الكتابة عبر النوعية / إدوار الخراط



كاريكاتير

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)



عيون الأدب الأجنبي

يصدر منها

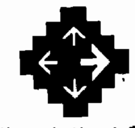
- **عبَدَة الصفر**
  ألان نادو
  ترجمة: البستاني و البطراوي

- **مدام بوفاري**
  جوستاف فلوبير
  ترجمة: محمد مندور

- **الكلمات**
  جان بول سارتر
  ترجمة: خليل صابات

- **الأحمر والأسود**
  ستاندال
  ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

- **المكان**
  آني إرنو
  ترجمة: أمينة رشيد
  و سيد البحراوي



دار شرقيات للنشر و التوزيع

